

أبو عمر المصري

رواية

عز الدين شكري فشير

دار الشروق

أبو عمر
المصري

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٣٥٢٨/ ٢٠١٠
ISBN: 978-977-09-2763-6

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ «٢٠٢» +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

أبو عمر المصري

رواية

عز الدين شكري فشير

دار الشروق

شكـر وإهـداء

ساعدتني مريم بالمعلومات والأفكار والملاحظات، في فهم شخصية عمر، وأنا مدين لها بإنقاذه وإنقاذ أبيه.

وبرغم أن يوسف لم يوافني بما وعدني به من معلومات حول أنواع النسور وحركة النجوم، إلا أنه ساعدني بأكثر مما يعرف.

إليهما معًا، أهدي هذه الرواية..

عز الدين شكري فشير

«نادرين لما نرجع تاني

لبلاد الجمال رباني

جوه البيت حانزرع نخلة

تطرح خير وتعمل ضلَّة

والعصافير، العصافير تلقط غلَّة

في الحوش الكبير والرملة

جار الساقية في العصرية

نحكي حكاوي

والأفراح حاتملى الناحية ويَّا غناوي

مشتاقين يا ناس...»

عبد الرحيم منصور

المحتويات

الفصل الأول

النسر

أحكم فخر الدين لف العمامة على وجهه وأنفه تاركًا شريطًا رفيعًا لعينيه. مال على الناقة التي تحمل عمر وجذبها نحوه فاستكانت. أمسك بالعمامة التي تغطي وجه الصبي. عمر لا يتحرك، كأنه غير معني بما يفعله أبوه. نظر فخر الدين في عينيه، ومرة أخرى لم يجد في عيني عمر أي نظرة، كأنهما تجمدتا. أحكم ربط العمامة حول وجه الصبي المستسلم وترك الناقة تعود لسيرها الطبيعي. ما زالت العاصفة الرملية في أولها، وهما في سهل ممتد بلا جبل يظلهم أو كهف يأويهم ومن غير الحكمة التوقف الآن. طالما تستطيع الدواب المسير فليسيروا. صمت شامل لا يقطعه سوى صوت الريح وحفيف الرمال. سيشتد ساعد العاصفة بعد قليل، وعندها سيحتل الرمل الهواء والأرض، ويتحول إلى بحر يبتلع كل ما يتحرك. عليه أن يجد ما تحتمي به القافلة قبل أن تبلغ العاصفة أقصاها وإلا هلكوا.

استداروا فجر الأمس حول قرية «كُتُم» دون أن يدخلوها، وساروا لمدة تسع ساعات دون توقف. أراد فخر الدين مغادرة شمال دارفور

والوصول للحدود بأسرع وقت. خوفه ليس من أهل القبائل أو سكان القرى، ولا من الأجانب المنتشرين بالمنطقة، ولكن ممن تركهم خلفه. يعرف أن هناك منطقة كهوف صغيرة على مسيرة عشر ساعات شمال «كُتُم». بقي أقل من ساعة وتبلغ العاصفة أشدها، وعليه أن يسبق الرمل إلى هناك. عمر لم ينبس بكلمة واحدة منذ التقاه أول أمس. كأنه لا يراه. يتحرك في الاتجاه الذي يدفعه إليه أبوه دون عزم أو مقاومة. لم يأكل أو يشرب منذ تحركا؛ كلما مرر فخر الدين قربة المياه إليه تجاهلها، وعندما أعطاه كسرات الخبز وبعض التمر لم يمد يده ليأخذها. أمسك فخر الدين بيد عمر وفتحها ووضع فيها الخبز، لكنه تركه يسقط على الرمل. غضب فخر الدين، فالصحراء لا تحتمل هذا التدلل. لكن غضبه كان طاقة ضائعة، فعمر لا يأبه له.

* * *

أصبح رأس اللواء سمير في منتصف عدسة البندقية عندما بدأ هاتف فخر الدين في الاهتزاز. اختلجت يده فخرج الهدف من مرمى العدسة. تردد؛ هذا هو هاتفه الذي لا يعرف رقمه سوى الخاصة. أعاد التركيز على الهدف: حرك ميزان التصويب على رأس اللواء يمينًا ويسارًا. حبس نفسه. التفت اللواء سمير لمرافقه يستمع لشيء ما يهمس به وهو ينظر في الملف الذي يمسك به. تبين فخر الدين ملامح وجهه جيدًا. لا مجال للخطأ. استقر ميزان التصويب على جبهته. الهاتف يواصل الاهتزاز في عناد. توتر فخر الدين. رفع اللواء سمير ناظريه لأعلى فجأة وخيل لفخر الدين أن نظرتيهما التقتا، وعندها ضغط على الزناد. أطلق رصاصة واحدة استقرت بين عيني اللواء سمير الشاخصتين نحوه فأسقطته على الفور بينما أفلت الملف من يده

وطار في الهواء. سقط اللواء سمير على أسفلت الممر الممتد من باب منزله حتى البوابة الحديدية المدججة بالحراس. سقط، وسمع فخر الدين صوت ارتطام رأسه بالأسفلت، ورأى الدم ينداح من أنفه وفمه. نظر من عدسة البندقية فرأى على وجه القتيل ابتسامة من فهم ما يحدث في اللحظة الأخيرة. أخذ فخر الدين نفسًا عميقًا وتراجع من حافة مكمنه بعيدًا عن مجال الرؤية وأخرج من جيبه الهاتف الصغير الذي لا يزال يهتز، ورد.

في البداية لم يصدق أذنيه. دارت به الدنيا وخيل إليه أنه يسقط من شرفة مكمنه في الدور الثامن ويستمع لهذه الكلمات وهو في طريقه للارتطام بالأرض:

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- مثلما قلت لك، لقد صدر الحكم عليه الآن. انفض المجلس للتو والجماعة عازمة على التنفيذ قريبًا.

- حكم؟ مجلس؟ أي مجلس؟ هل جنّوا؟

- استمع إليّ جيدًا لأني لا أستطيع الحديث طويلًا: لقد حاولت ما بوسعي ولكن الأغلبية قضت بإعدام الولد، وأخذ الشيخ حمزة جانبهم. واتفقوا على عدم إبلاغك لكني لا أستطيع أن أخفي عنك مثل هذا الأمر. إن كنت تستطيع فعل شيء عليك أن تتحرك الآن لأنهم عازمون على التنفيذ بعد غد على الأكثر. يجب أن أعود الآن. السلام.

ثم أغلق الخط. ظل فخر الدين ذاهلًا للحظات. نظر من مكمنه لرجال الحراسة وهم يجرون في كل الاتجاهات ومسئولي الأمن وهم يهرعون متتابعين نحو المكان يلقون بنظرة على الجسد الغارق في

دمائه ثم يشيحون بوجوههم ويدخلون إلى المبنى. جاء رجال وبدأوا يغطون الجثمان ثم حملوه وساد سكون على المكان. حاول فخر الدين أن يستجمع معنى ما سمعه لتوه وهو ما زال يجلس على الأرض داخل مكمنه. يجب أن يرحل الآن، فورًا. فك بندقيته ووضعها في الحقيبة، جمع حاجياته القليلة المتناثرة وخرج من المكمن دون عودة.

* * *

لم يأخذ السيارة التي تركتها له هند على حسب اتفاقهما في حالة حدوث شيء غير متوقع. سار حتى منشية البكري واستقل المترو لميدان رمسيس حيث جلس ينتظر هند في المقهى المتفق عليه. ذهنه لا يتوقف عن التفكير: يمكن أن يتصل بالشيخ حمزة. ربما يمكنه إقناعه بتأجيل التنفيذ لعدة أيام حتى يصل إلى معسكر الجماعة بشرق السودان ويتولى الأمر بنفسه. لكنه لو حدّث الشيخ حمزة فربما تسرع الجماعة بالتنفيذ؛ مؤكد أنهم لا يريدونه أن يعلم بالخبر قبل التنفيذ لأنهم يعرفون أنه سيوقفهم. هل يمكنه الوصول لشرق السودان قبل مساء الغد؟ هناك طائرة للخرطوم في المساء لكن السفر جوًا غير مأمون؛ فقد تكتشف هويته في المطار، ومجرد الاشتباه فيه سيعطله. ليلة واحدة في الحجز ستؤخره بما يكفي لإعدام الولد. يمكن أن يأخذ القطار إلى أسوان ومنها يصل لمنطقة الحدود. لكن منطقة الحدود وميناء حلفا مليئة برجال الأمن من الجانبين وقد يتعرض للاحتجاز هناك أيضًا. الطريق الأكثر أمانًا هو العبور من صحراء الجلف الكبير غرب النيل ومنها إلى شمال دارفور ثم إلى المنطقة الشرقية، ولكن ذلك سيستغرق عشرة أيام على الأقل، دون حساب العواصف الرملية التي قد تؤجل رحلته أكثر.

ليس هناك من سبيل سوى البحر. نظر فخر الدين حوله في قلق وهو يستعجل مجيء هند. الحل هو السفر لمرسى علم برًا، ومن هناك يأخذ قاربًا ويبحر به جنوبًا حتى ما قبل بورسودان بقليل. هناك مرفأ صغير استخدمه فخر الدين في السابق ويمكنه الوصول إليه بسهولة. الإبحار خطر في هذه المنطقة، لكن البحر أقل خطرًا من أمن المطارات. رأى هند قادمة نحو المقهى في ردائها الرمادي الطويل وهي تحمل حقيبة كتف كأنها طالبة عائدة لذويها في القطار. استقرت في مقعد خلف فخر الدين وعلى وجهها علامات قلق. طلبت شايًا بالنعناع وأنصتت وهي تنظر بعيدًا عنه. ليس لديه وقت للشرح. باقتضاب، طلب منها أن تأخذ أول طائرة إلى مرسى علم وتنزل في أفضل فنادقها وتؤجر قاربًا اثنى عشر قدمًا بمحرك وشراع لمدة ثلاثة أيام على أساس أنها ستذهب في نزهة بحرية مع صديقة لها، وأن تنتظره بالقارب على بعد كيلومتر واحد خارج مرفأ مرسى علم من الناحية الجنوبية في تمام الواحدة بعد ظهر الغد. هند تحفظ التفاصيل بسرعة بينما تفكر في الإجراءات والاستعدادات التي سيتعين عليها القيام بها لإتمام كل ذلك دون خطأ أو أثر.

قامت وتركت الحساب على المنضدة وغادرت مسرعة. ظل فخر الدين جالسًا خمس دقائق أخرى ثم قام ودفع حسابه. ترك بقشيشًا عاديًا لا يتذكره النادل به ومضى نحو السيارة التي أحضرتها هند. دخلها وأدار مفتاح التشغيل وفي دقائق كان على كوبري أكتوبر باتجاه طريق العين السخنة.

* * *

لم يتغلب فخر الدين على صدمته بعد. تعامل مع الخبر باعتباره مصيبة تستدعي الدفع الفوري دون تفكير كثير في معناها ولا كيفية وقوعها. هو يحسن تدبر المهام ويفعل ذلك بشكل طبيعي. التركيز على دفع المصيبة يساعده على تجميد مشاعره. فمهما كانت قسوة المصيبة، يمكنه أن يتعامل معها إذا حولها لسلسلة مهام محددة. يشحذ ذكاءه ويركز في تحديد هذه المهام ورسم تتابعها وتداخلها بشكل لا يخطئ، ويعفيه ذلك من أن يرى المصيبة نفسها. لكن الأفكار تعود وتهاجمه وهو يقود سيارته وحيدًا في الليل على الطريق المؤدي لمرسى علم. يحاول دفعها بعيدًا بالتركيز على التواءات الطريق وانحناءات الجبل غير المتوقعة والسيارات الآتية التي تعميه مصابيحها القوية، لكن الأفكار تعود وتأخذ ذهنه بعيدًا. هل يمكن أن يكون عمر قد فعل هذا؟ لا يمكن أن يكون قد اقترف هذه الجرائم! هذا ليس عمر، لا بد وأن هناك خلطًا ما. هل يمكن لعمر أن يخون؟ وبهذه الطريقة المنحطة؟ ومتى حدث كل هذا؟ لا يفهم فخر الدين كيف لم يخبره أحد كي يتدخل ويعالج الأمر، وأولهم حارسه القديم عبد الله الذي اتصل به: لماذا لم يتصل به من قبل؟ كيف صمت الجميع حتى وصلت الأمور لهذه الدرجة؟ كيف يقيمون مجلسًا شرعيًا بحق ابنه؟ وكيف يأخذ الشيخ حمزة صفهم؟ كيف واتهم الجرأة أن يحكموا على ابن فخر الدين بالإعدام؟ هو الذي يدين نصفهم بحياته له، وأولهم الشيخ حمزة؟ يفكر وهو يقود السيارة ولا يجد أجوبة: «لا بد وأن كل هذا كابوس».

ظلام دامس لا تقطعه سوى الإضاءة المنبعثة من مصابيح السيارة القوية، ولوحة عدادات السيارة المضاءة بأزرق خافت. فخر الدين يقود السيارة وهو يحاول طرد هذه الأفكار من رأسه مؤقتًا. قاربت

الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل وما زال الطريق طويلًا. يقبض على مقود السيارة بكلتا يديه ويركز تفكيره في ضبط التفات السيارة مع الطريق. لا مجال للخطأ أو للمغامرات. لا يمكن الدخول في حوادث أو أعطال، لا وقت. لا يجب أن يتوقف أو يتحدث مع أحد، اللهم إلا للمرور من نقاط التفتيش المتناثرة على الطريق. يركز مع صوت المحرك، مع صوت العجلات وهي تصفر قليلًا في التفاف الطريق. لا فائدة من التفكير في شيء آخر الآن، سيكون هناك وقت، حين يصل إلى شرق السودان ويلتقيهم. وساعتها لن يحتاج للتخمين، سيحصل على إجاباته من المنبع مباشرة. سيرى عمر وسيعرف الحقيقة حين ينظر في عينيه. وسيرى الشيخ حمزة وبقية القيادات ويستجلي الأمر. لا يمكنه أن يصدق أن الأمر مثلما صوره له صديقه. لا بد وأن هناك أمورًا أخرى خلف الأمور.

* * *

في الواحدة من ظهر اليوم التالي بدأت نقطة سوداء صغيرة في الاقتراب من القارب الطافي خارج الميناء. رأس سوداء تلمع في أشعة الشمس، تختفي تحت الماء ثم تعاود الظهور وتمضي نحو القارب في خط متعرج. فخر الدين لا يغامر أبدًا، يناور حتى وهو وحده في البحر وعلى بعد كيلو متر خارج المرفأ. يغطس أكثر مما يعوم، ويغير اتجاه مسيره حتى لا يلفت لمعان رأسه في الشمس نظر أحد. عدة دقائق وظهر في جانب القارب وقفز بخفة على سطحه. وجد هند جالسة بجوار الدفة تنظر إليه. نظر إليها ودون أن يتحدث استلقى على ظهر القارب يتنفس بعمق ويستجمع قواه. ظل هكذا دقائق وهو يشعر بنظرتها ناحيته وهي تجلس صامتة في أول القارب، تكاد تكون مستمتعة.

قام ونظر إليها متسائلًا. أومأت له أن كل شيء على ما يرام. دخل في بطن القارب وغاب عشر دقائق ثم عاد بعد أن خلع رداء الغطس وأخذ دشًا باردًا سريعًا وارتدى بنطلونًا من الجينز وقميصًا أبيض. توجه للخرائط ونظر فيها وهو يدير محرك القارب ويمضي به. في صمت، زاد من سرعة القارب تدريجيًا حتى بلغ السرعة القصوى ولم تعد هند تسمع صوتها وهي تتحدث. صرخت:

- أكلت حاجة؟

هز رأسه نافيًا.

- تاكل؟

هز رأسه بالإيجاب. نظرت إليه متبرمة وتوجهت للمطبخ الصغير وأعدت شيئًا خفيفًا وهي تتمتم. عادت:

- اتفضل. الشغالة اللي جابتها لك ماما عملت لسيادتك سيريال، ينفع ولا نمشيها آخر الشهر؟

ابتسم فخر الدين وهز رأسه يأسًا من سخريتها المستمرة. تناول الطبق من يدها وهو يومئ شاكرًا دون أن يتحدث يأكل وهو يوزع نظره بين الخرائط والأفق.

- هي إيه بقى الخرايط دي؟

- دي خرايط المنطقة.

- فعلًا؟ كنت فاكراها خرايط منطقة تانية!

- حلو السيريال ده، جبتيه منين؟

- من السوبرماركت، يعني حاجيبه منين؟ من العطار؟

- نفس المبدأ.

- أفندم؟

أشار بيده للخرائط ولم يرد. زفرت في ضجر.

- بقولك إيه؟ حضرتك إحنا قدامنا ثلاثة أيام بلياليهم في المركب الاتناشر قدم ده، ودي مساحة صغيرة جدًا وأنا عندي فوبيا الأماكن الضيقة، فلازم تخليك لطيف معايا.

- طيب بدل الغلبة احكيلي عملتي إيه في مرسى علم.

وقف فخر الدين ممسكًا بالدفة وهو يستمع لها تقص عليه ماحدث بالتفصيل في مرسى علم. جلست أمامه وحكت كيف استأجرت القارب باسمها واسم «صديقة» لها ادعت أنهما تعلمتا الإبحار سويًا في إيطاليا أثناء دراستهما الجامعية وأعطت المشرف على القوارب شهادات الإبحار المطلوبة وأغرقته في تفاصيل الشواطئ الإيطالية واتجاهات الريح هناك. ملأت هند القارب بما يمكن أن تحتاجه الإقامة فيه لمدة ثلاثة أيام مضيفة بعض الأشياء التي يأخذها السياح المبحرون مثل أدوات الصيد البسيطة ومراهم الوقاية من أشعة الشمس. وضعت ملابسها في إحدى القمرتين ووضعت ملابس نسائية أخرى في القمرة الثانية وألقت هناك بتذكرة سفر باسمها الحركي ونثرت بعض الأشياء في القارب. بعد ذلك بدلت ملابسها وهيئتها وأصبحت «صديقتها» درقاء العوسجي ثم اتصلت بالمشرف تنبهه لضرورة المجيء بسرعة للقارب لأن صديقتها وصلت وهما

على وشك الإبحار. وعندما وصل المشرف كان القارب قد اتخذ وضع الإبحار بالفعل وتقدم في المياه قليلًا ودار محركه. وجد درقاء العوسجي واقفة على حافة القارب في مايوه بكيني أسود وحول وسطها التف غطاء المايوه المبتل قليلًا، وشعرها الأصفر يتهدل على كتفيها ونظارتها الشمسية الكبيرة تغطي نصف وجهها. انحنت بشدة على حافة القارب باتجاه القارب المطاطي الذي يحمل المشرف. ناولها الأوراق وقد أربكته تلك الأنوثة الحاضرة. يختلس النظر إلى صدرها وهو يتظاهر بالنظر للأوراق. تناولت الأوراق ووقعت عليها ولوحت له بجواز سفرها فأشار لها ألا داعي. وكأنما لتقضي على ما قد بقي له من تركيز أغرقته في ابتسامة ونظرة طويلة وهي تشير له بيدها ملوحة ثم استدارت تتهادى داخلة القارب وظل هو واقفًا في قاربه المطاطي يومئ دون مغزى.

– بس، وسقت المركب بمعجزة لغاية هنا.

– هو الموضوع محتاج معجزة؟ ده انتي بتطلعي في خط مستقيم من الميناء لهنا!

– ما هو أنا عمري ما سقت مركب المسافة دي كلها!

– أفندم؟ حضرتك بتهزري؟

– لأ، أنا باتكلم بجد. أنا يا دوبك بافك الخط، يعني أدور الموتور وأمسك الدفة وأتصور وراها وكده. انت لازم تعلمني.

– ومافهمتنيش كده ليه إمبارح؟

– أنا ما قلتلكش العكس، أنا ما ادعيتش إني باسوق مراكب.

- أمال لما تقترحي انك تيجي معايا وترجعي المركب لوحدك يبقى ده معناه إيه؟

- معناه انك حاتعلمني.

- أنتِ أكيد مجنونة. والله إنك مجنونة!

صممت على مصاحبته حتى السودان ثم العودة وحدها بالقارب. قال إن ذلك ضرب من الجنون، لكنها أكدت له أنها تستطيع التعلم خلال الرحلة وتحفظ الطريق جيدًا ثم تعود بالقارب. ذكرته أن ترك القارب على شواطئ السودان سيثير التساؤلات ويشكل خيطًا لمن يريد تتبعه والوصول إليهما. ثم، في نهاية الأمر، هناك المغامرة نفسها، هند تقود قارب عبر الحدود، وحدها، دون معرفة مسبقة بالإبحار. وهي لا تريد ترك هذه الإثارة تفوتها.

* * *

هدأت الصحراء وعادت لسكونها. صفا الهواء وكأن حبات الرمل الخشنة قد شفطتها ماكينات العاصفة الثقيلة التي مرت لتوها. سكن الهواء ونقا، وعادت ألوان الأشياء إليها. خرج فخر الدين من الكهف الصغير الذي كانوا محتمين به ليستطلع الجو فوجد الصحراء التي يعرفها، ألوانها تمتد تحت الشمس في صفاء ما بعد العاصفة؛ صخر بني لامع كأنه غسل لتوه ورمل أصفر وأحمر. بعد انعدام الرؤية الكامل وجدران الرمل التي تنهش كل ما تمسك به، بعد الريح التي تطيح بالخيام والصخور المتخلخلة، سكون كامل. عادة ما يملأ مشهد الصحراء بعد العاصفة نفس فخر الدين بالراحة لكن الأمر ليس كذلك هذا الصباح. أخرج دوابه وعقلهم ووضع لهم بعض الماء والطعام ثم عاد للكهف.

نادى على عمر فلم يرد. تحسس جبهته فوجد حرارته كما هي. هزه فلم يتحرك. حمله في أغطيته وخرج به إلى الشمس. أرقده على الرمل ومسح على وجهه ببعض الماء. شفتاه جافتان تمامًا. أخرج منديلًا من جيبه وغمسه بصحن الماء ثم عصره نقطة نقطة فوق شفتيه وهو يفرج بينهما قليلًا. كرر ذلك حتى نفد الماء من الصحن فوضع المنديل على رأسه وظل جالسًا بجواره. الشمس تصعد شيئًا فشيئًا في كبد السماء وعما قليل يجب أن يقرر ما إذا كانا سيواصلان المسير أم يقضيان ليلة أخرى في هذا الكهف. تقتضي الحكمة أن يغادرا السودان في أقرب وقت مستطاع. لا يعرف فخر الدين على وجه اليقين ما يمكن أن يفعله هؤلاء الذين تركهم خلفه، وكلما ابتعد بعمر كان ذلك آمنًا.

لكن عمر رفض الحديث والطعام والشراب حتى سقط فاقد الوعي في وسط العاصفة. أي صلابة تلك التي تجعل فتى في السادسة عشرة يفعل هذا ؟ ماذا حدث له؟ كيف صار بهذه القسوة؟ جرّب فخر الدين كل أساليب الحديث، اللين منها والخشن، الترغيب والترهيب، التودد والتوعد، كل شيء، لكنه لم يحصل من عمر على كلمة واحدة أو رد فعل. لم ينظر حتى لعيني أبيه، وحينما أمسك بوجهه وأداره عنوة كي يواجهه لم يقاومه الصبي، لكنه لم ينظر إليه. لم يغمض عينيه، لم يتفاد نظرات أبيه، لكنه لم ينظر. وفخر الدين لا يفهم: أين تعلم ابنه هذا؟ كيف صارت عيناه زجاجيتين هكذا؟ لا نظرة فيهما، ولا تعبير.. لا شيء إطلاقًا.

حاول السيطرة على غضبه، لكنه لم يستطع الاستمرار طويلًا. انفجر فيه:

- منتهى التحلل من المسئولية، بدل ما تواجه الإثم اللي لا يغتفر اللي ارتكبته، بتعند. وبدل ما تواجهني وتعترف بخطئك عشان نشوف إزاي نعالجه بتسكت! ودلوقت بتعرض حياتنا إحنا الاتنين للخطر بتصرفاتك الطفولية دي. اتكلم؛ أو اخرس لو عايز لكن كل، اشرب شوية مية قبل ما تنهار ويبقى لازم أشيلك كمان!

لا رد، لا نظرة. ظل فخر الدين يحدق فيه والغضب يقبض على نفسه. يحتقن وجهه وتتقلص عضلات بطنه، ويريد أن يمسك بتلابيب عمر ويطوح به في رياح الصحراء، لكنه يكظم غيظه. لا فائدة من الصراخ أو الغضب، سيزيد ذلك الأمور سوءًا.

- فليكن. اسكت زي ما انت عايز، واضرب عن الطعام زي ما تحب؛ إن شالله تموت من الجوع. لكني حاخدك على مصر في كل الأحوال، عايش أو ميت.

ثم صمت فخر الدين هو الآخر، وبعدها بقرابة الساعة سقط عمر من الإعياء. مر على ذلك الآن اثنتا عشرة ساعة، وفخر الدين يقطِّر الماء في فمه كل ساعة تقريبًا. «لن يفيق الآن، ولا اليوم، ولا يمكن أن ننتظر هنا كثيرًا». أعد له مشروبًا مقويًا وقطَّره في فمه مرة أخرى، ثم ربت على الدواب واحدة بعد أخرى وأعدها للرحلة. طمس آثار مبيتهم، وحمل ابنه على صدره وامتطى الناقة. استوى عليها جالسًا ثم سوى من هيئة عمر بين ذراعيه، ومضت القافلة الصغيرة من جديد نحو الشمال.

يعرف فخر الدين المنطقة جيدًا. سافر بطولها وعرضها مع رفاق له من الجماعة، وأحيانًا مع الشيخ نفسه. سافر تارة مع شباب

من قبائل العرب التي تعمل بالرعي وتعرف مواقيت العواصف والأمطار ومواطئ الكلأ وعيون الماء، وتارة مع شباب «زرقة» من قبائل «الفور» و«المساليط» و«الزغاوة»، ممن يعملون بالزراعة وتربية الأبقار ويعرفون الدروب والمسالك والكهوف. وكم من مرة صعد معهم جبل «مرّة» الذي لا يعرف مداخله ومخارجه سوى أهله. وعبر معهم صحراء شمال وغرب دارفور إلى تشاد، وتسلل معهم جنوبًا إلى كردفان وأحراش الجنوب؛ ينقلون سلاحًا ومالًا وعتادًا وناسًا. والآن يأخذ هذا الطريق فرارًا منهم، ويغير مسلكه كل يوم كيلا يجده أحد منهم إن تبعه. سيأخذ الأمر وقتًا أطول هكذا، لكنه بهذه الطريقة يضمن الوصول سالمًا من أذى الذين يتعقبونه. «المشكلة الحقيقية تكمن في هذا الأبله الذي يرفض الحديث والشراب والطعام. هذا ما لم أعد العدة له ولم أحسبه».

القافلة تسير ببطء، ببطء أكثر من اللازم. وعمر لا يزال فاقدًا للوعي. لا يستطيع فخر الدين أن يحمله بين ذراعيه طول الرحلة. ربطه خلفه بقماط لكن كان عليه التوقف من حين لآخر لرعاية شئون القافلة وفي كل توقف كان عليه أن يناور حتى لا يسقط عمر على الأرض. يومان على هذا المنوال منذ تحركا من الكهف وعمر كما هو. يواصل فخر الدين سقايته في فمه وإعطاءه ذلك المشروب المقوي. أضاف إليه بعد الوقت العسل الجبلي وبعض زيت الزيتون. يرى من لون وجهه أن حالته مستقرة، لكن يجب أن يعود للوعي إذا قدر لهما أن يصلا. لن يستطيعا الدخول في صحراء الجلف الكبير وعمر في هذه الحالة. وبداية طريق الصحراء على مسيرة يوم واحد. فما العمل؟

صار يقضي النهار كله في الاعتناء بابنه، وفي الليل يعودان للترحال. وفخر الدين لا يعجبه هذا الحال؛ لا يرى في سلوك عمر سوى عناد غبي. ويسأل نفسه لم يحدث كل هذا؟ يسأل نفسه وهو يرقب النوق تسير صامتة في نعومة الرمل في الليل تحت نجوم كثيفة وضوء فضي منبسط وهدوء كوني شامل. تلك هي اللحظات التي تخرج فيها روحه من سجنها وتنطلق؛ يصير نفسه وليس أي شيء آخر، لا المقاتل، ولا المناور، ولا المتحسب، ولا المخطط، ولا المتعجل، بل فخر الدين اليتيم، المثالي الحالم، والأب الذي يحمل ابنًا عصيًا مريضًا في روحه وفي جسده ولا يعرف ما العمل.

كانت خططه دائمًا محكمة، وتنفيذه لها دقيقًا. عُرف بذلك وهكذا شاعت سيرته، لم يكن أحد يناقشه أبدًا في تفاصيل وضع أو تنفيذ خطة، فلديه قدرة مدهشة على الإلمام بالتفاصيل واستخدامها في الخطط بشكل مركب ومتكامل حتى لقبه الشيخ بوزير تخطيط الجماعة. والآن، تنهار خطته بسبب هذا العنيد الصغير الذي يمكن أن يقتلهما سويًا. يفكر ويغضب من عمر، لكنه يعلم الآن ألا فائدة من الغضب، لا فائدة من هذا الحنق. إن دخلا صحراء الجلف الكبير وعمر في هذه الحالة ستكون حركتهما أبطأ، وسيتأخرا بما يعرضهما لنفاد الماء والمؤن. وإن توقفا انتظارًا لشفائه فقد يحدث لهما مكروه ممن يتعقبونهم. لا يستطيع العودة لدارفور ولا الذهاب ناحية تشاد، فالمخاطر أكبر في الطريق. ولا يستطيع التوجه شمال شرق نحو مدينة حلفا حيث الجنود والحدود. فما العمل؟

لا يستطيع إجبار عمر على الشفاء، ولا التخلي عنه. يفكر فيما يمكن أن يفعله، وشيئًا فشيئًا يدرك أنه ليس هناك من حل. شيئًا فشيئًا

بدأ يفهم أن خططه تتداعى وأن الاختيارات المتاحة كلها محفوفة بالخطر. إذا أراد مواصلة الطريق ومعه ابنه العنيد فعليه أن يقنع بخطة غير محكمة. إما ذلك، وإما أن يمضي به الآن عبر الصحراء على أمل أن يتعافى عمر في الطريق. لكنه يعلم أن عمر لا يمكن أن يتحمل الرحلة في حالته تلك وأنه إن دخل صحراء الجلف الكبير الآن، فسيموت ابنه بين يديه بعد أيام قليلة. ليس أمامه من حل سوى أن ينتظر حتى يتعافى عمر، وليحدث ما يحدث.

* * *

سارت الرحلة البحرية بهدوء لعدة ساعات حتى وصل لحدود السودان. أوغل فخر الدين بالقارب داخل المياه الدولية ليبتعد عن حرس السواحل، وساعده هدوء الريح على التوغل بعيدًا وسريعًا ثم استدار بالقارب جنوبًا ومضى بأقصى سرعة ممكنة. محرك القارب يئن من وطأة السرعة، لكن فخر الدين يبدو واثقًا مما يفعل. سمع هند تتمتم شيئًا بشأن سرعتهم والمحرك لكنه لم يرد. هند، الممسكة الآن بدفة القارب، تتابع كل حركة يأتي بها، وهو يتحرك بسرعة وخفة كالفهد، ويفعل عدة أشياء في وقت واحد ولا يرد على أي من أسئلتها من فرط تركيزه على مهامه المتعددة. يعرف أن هند لا تحتاج إجابات؛ فهي تراقبه وكأنها تصور أفعاله وتحللها وتخزنها.

شرح لها في دقائق مفردات العملية: الخرائط والعدادات وما يجب أن تركز عليه في هذه المنطقة وفي المناطق التالية من الرحلة، وحالة الجو واتصالات القارب مع السلطات ونداء الاستغاثة، والتعامل مع الوقود. نهاها عن استخدام الأشرعة في طريق العودة.

الليلة، عند الاقتراب من الشاطئ السوداني، سيبحران بالشراع كيلا يجذب صوت المحرك الانتباه لهما. هذه المنطقة تعج بالرياح ومن ثم يمكنهما الاكتفاء بالأشرعة، وبذلك يتبقى وقود إضافي بحيث تعود هي مستخدمة المحرك طوال الرحلة، وإذا اعترض أحد طريقها يمكن أن تتظاهر أنها سائحة ضلت الطريق.

لم يمض وقت طويل حتى بدأت هند تشعر بتصاعد الرياح. دقائق وأطفأ فخر الدين المحرك وطلب منها المعاونة في فرد الأشرعة. سحب الشراع لأعلى وبدأ يطلب منها مهام محددة: اربطي هذا، ادفعي قاعدة الشراع للجانب الآخر، اسحبي، شدي، كل هذا وهو مستغرق في فتح وإغلاق وتحريك أشياء وفك حبال وربط أخرى. انتصبت الأشرعة وثبتت واندفع القارب بسرعة أكبر من تلك التي كان عليها، وفخر الدين ممسك بالدفة. القارب مائل ناحية سطح الماء، والشراع عمودي عليه وكأنه يطعن الريح في خصره، وهم يطوون صفحة الماء طيًا. نظر لهند ورأى أنها تتخلى شيئًا فشيئًا عن خوفها وتبدأ في التحرك على السطح المائل ممسكة بحبال سور القارب حتى وصلت لمكان الدفة. ابتسم لها مشجعًا:

- حاسيبلك الدفة. خللي بالك، ما تخليهاش تفلت من إيدك. أنا حاروح عند الشراع. خليكي هنا لغاية ما أقولك.

أومأت وترك لها الدفة. نظر إليها متسائلًا فأومأت أن كل شيء تحت السيطرة. تركها وانسل على سطح القارب نحو الشراع. فجأة حل الصاري ودفعه فانزلق بسرعة نحو الناحية الأخرى من القارب وصعد جانب القارب القريب من سطح الماء في الهواء وهوى الجانب الآخر نحو الماء. ضغطت الريح على الشراع نحو الماء حتى

بدا أن القارب سينقلب لا محالة. لكنه لم ينقلب، بل واصل الاندفاع للأمام وهو مائل. أوثق فخر الدين الصاري في وضعه الجديد وعاد مثلما ذهب، وكأنه ينزلق على سطح القارب لا يمشي. أمسك بالدفة من يد هند المتصلبة. جلست جانبًا وهي تعمل على كبح توترها.

– ماتقلقيش، كل شيء ماشي تمام.

– هو احنا حانقضيها كده؟

همهم فخر الدين بالإيجاب بينما مالت هند بسرعة نحو جدار القارب وأفرغت ما في جوفها في الماء. ابتسم فخر الدين. عادت بعد قليل.

– حمد لله على السلامة. دلوقتي حاتبقي كويسة. اشربي حاجة غازية من تحت وارجعي، بس بسرعة علشان حانعمل المناورة دي تاني.

* * *

أفاق عمر للمرة الثانية منذ الصباح. مد يده للطبق الموضوع بجانب فرشته وتناول قطعة خبز. أخذ يمضغها ببطء ثم شرب. لملم جسده النحيل وتكور فوق فرشته. الجو رطب بهذه المغارة الصخرية التي استقرا بها منذ أيام. الضوء باهر في الخارج. قضى فخر الدين ساعة في الاعتناء بالدواب ثم عاد وجلس في المغارة يحدق في ابنه الذي يثير أعصابه ويفكر أين علته بالضبط. عمر ينظر في الفراغ منذ أفاق. يجلس بلا حراك ويحدق أمامه. أبوه ينظر إليه ويحاول تقبل فكرة عصيان ابنه. لكنه على الأقل أكل شيئًا وشرب بعض الماء.

اقترب منه وجلس بجانبه فلم يهتز. سأله كيف يشعر فلم يرد. استطرد في الحديث رغم ذلك، واصفًا الرحلة التي تنتظرهما: طولها وبعض الصعوبات التي قد تقابلهما. وعمر لا يرد. غامر فخر الدين وقال له إنه بإمكانهما التحرك بعد يومين إذا استمر في استرداد عافيته بهذا المعدل، فلم يرد، لكنه مد يده إلى الطبق وأخذ كسرة خبز أخرى وبدأ يمضغها في بطء. قام الأب ليعتني ببعض الأشياء.

صمت تام.

أنهى عمر مضغ اللقمة التي أخذها وعاد للتمدد على فرشته مغطيًا جسمه ورأسه. جلس فخر الدين عند باب المغارة يرقب الصحراء في الخارج ونفسه تهفو للرحيل. لا يحب هذا الانتظار، لا يحب الانتظار. يعبث بعصا صغيرة في الأرض وينظر من حين لآخر لابنه الممدد مختبئًا تحت الأغطية: ما الذي أوصله لهذا الحال؟ كيف حدث كل هذا تحت بصر وسمع الإخوة دون أن يلحظ أحد شيئًا؟ لا يفهم؛ لم يجد الإجابة في حديثه العاصف مع الشيخ حمزة. لا يجد إجابة سوى خيانة الأمانة. ترك ابنه أمانة في عنقهم، يتربى في وسطهم وفي عهدتهم وهذا ما جرى؛ خانوا الأمانة. لكن الأسوأ، ما لا يستطيع فهمه هو خيانة عمر لنفسه. عندما كان في سنه كان يقرأ في الأديان المقارنة وتاريخ الفلسفة ويدرك بحسه الحق من الباطل ويربأ بنفسه عن الوقوع في الباطل أو مهادنته. كيف انحدر ابنه لهذا الحضيض؟ وماذا يفعل به الآن؟ أنقذه من براثن الجماعة التي أعماها الغضب ورائحة الدم. ولكن ماذا يفعل الآن بولد نحيل صامت عنيد وخائن، وكيف أصبح ابنه هذا الشخص؟

* * *

قرص الشمس يشق سطح البحر صاعدًا شيئًا فشيئًا وفخر الدين واقف عند الدفة وقد أكمل ارتداء ملابسه وأعد لنفسه حقيبة صغيرة بها بعض الأغراض التي أحضرتها هند. نظر في الفراش فوجدها لا زالت نائمة. مال على جانب القارب المتوقف في وسط البحر وتحسس القارب المطاطي الصغير المثبت بجواره. نادى على هند فقامت وسارت نحو جانب القارب. صعدت إلى حافته وتسلقت ببطء نازلة إلى القارب المطاطي. لحقها فخر الدين وبدأ يجدف بخفة والقارب المطاطي يتحرك نحو الشاطئ. دقائق وبلغاه. لا أحد على الشاطئ في هذه الساعة. قفز على الأرض وأشار لها كي تعود. نظر إليها وهي عائدة نحو القارب الكبير دون صوت غير صوت المجدافين الصغيرين في الماء. عليه أن يغادر المنطقة بأسرع وقت، وستتحرك هي بعد ساعة بالضبط. ستدير المحرك وتبحر عائدة في خط مستقيم حتى تصل مرسى علم وتعيد القارب ثم تعود للقاهرة حسب الاتفاق ولا تتصل به حتى يتصل هو بها، مهما حدث.

غادر الشاطئ بسرعة، يعرف هذه المنطقة جيدًا. له بعض الأصدقاء من قبائل «البجة» في قرية مجاورة، لكنه لن يتوقف هناك. لا يريد أن يتعرف عليه أحد قبل الوصول للقرية التي تقيم بها قيادات الجماعة. لا يريد أن يجازف بتسرب كلمة عن وصوله ولو بحسن نية إلى الجماعة وإلا سارعوا بتنفيذ الحكم. كما سيصعب على فخر الدين أن يشرح القصة الكاملة لمن يقابله الآن، لو قال لأحد إن هناك خلافًا بينه وبين الشيخ حمزة فمن يضمن أن الشخص لن يظن به الظنون ويأخذ الموقف الأسلم وهو إبلاغ حمزة؟ كلا، من الأفضل أن يظل متخفيًا حتى يبلغ العرين. التف فخر الدين حول القرية الممتدة بجوار

الشاطئ وسار نحو المرتفعات الممتدة للداخل. بعد قليل وجد عربة يجرها حصان يقودها ولد جنوبي فألقى عليه بالتحية وجلس على طرف العربة. يبدو وكأنه أحد أبناء «الزغاوة» في عباءته الدارفورية والنظارة الشمسية الغامقة التي يضعها على عينيه. تقدمت العربة في صمت قرابة نصف الساعة ثم هبط منها فخر الدين وهو يشكر الولد الجنوبي. سار على قدميه قرابة نصف ساعة حتى مركز صغير اشترى منه دراجة نارية وملأ خزانها بالوقود وولى وجهه شطر قرية العرين مركز الجماعة، وأخذ يفكر في الطريق في كيفية معالجة الأمر مع الشيخ حمزة والقيادات.

* * *

كان اللقاء عاصفًا. فوجئ الجميع بفخر الدين وهو يسير في طرقات العرين الضيقة. لم يلحظ الحراس في الحزام الأمني للقرية وصوله. تسلل فخر الدين من بينهم، ولم يكن ذلك صعبًا عليه هو الذي درّبهم وساهم في إعداد التحصينات بنفسه. وصل لباب دار الشيخ حمزة وصافح الحراس وطلب منهم إبلاغه بوجوده. بعد دقيقتين عاد الحراس وأدخلوه.

- فين عمر؟

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- فين عمر يا شيخ حمزة؟

- على قيد الحياة.

- هاته أشوفه.

- اجلس يا أبا عمر.

تقدم إليه الشيخ حمزة وأمسك به معانقًا إياه. تصلب فخر الدين في وقفته وسأله مباشرة:

- إيه اللي حصل؟

- ماذا أتى بك هكذا فجأة وكنا ندعوك فلا تأتي؟

- إيه اللي حصل يا حمزة؟

- ماذا قال لك الواشون؟

- واشون؟ صحيح أن عمر في الحبس؟

- نعم.

- وما قولتليش ليه؟

- اجلس يا أبا عمر واستمع إليَّ جيدًا. أنت تعلم ما بيننا، وتعلم مكانتك عندنا، ولكن ما حدث جد خطير، فاجلس وصلِّ على رسول الله وافتح قلبك واستمع قبل أن تحكم ولا تتسرع. وسترى أني فعلت الخير واتبعت شرع الله.

- ابعت هات عمر الأول، عاوز أشوفه.

- قبل أن تسمع؟

- قبل ما اسمع.

- لا أظن ذلك من الحكمة، دعني أقص عليك ما حدث ثم يكون لك ما تشاء.

- هاته الأول.

نظر الشيخ حمزة إليه مطولًا وفهم أن فخر الدين لا يثق بأن أحدًا لن يؤذي عمر بينما هما هنا يتحادثان. أشار للحارس على الباب فغاب دقائق وعاد وهو يسند عمر الذي يسير ببطء وهو ينظر في الفراغ أمامه. هتف فخر الدين:

- عمر!

واندفع نحوه آخذًا إياه بين ذراعيه. ضمّه بشدة إليه مبقيًا الحارس بعيدًا عن الصبي. نظر الحارس للشيخ حمزة فأشار له ألا يتدخل. أبقى فخر الدين عمر بين ذراعيه لكن عمر كان متخشبًا لا يستجيب. أدار وجهه إليه ونظر إلى عينيه بلهفة:

- إنت كويس؟ حد عمل لك حاجة؟

وضمه من جديد، لكن الصبي المتخشب لم يجب. أعاد فخر الدين رأسه للوراء قليلًا ونظر لعمر في عينيه مرة أخرى، لكنه لم يجد فيهما أي نظرة. لا شيء على الإطلاق. تمتم فخر الدين ببعض الكلمات المطمئنة والمشجعة، لكن عمر ظل على صمته وتخشبه. أرخى فخر الدين من قبضته قليلًا واجتهد في الابتسام قليلًا، لكن عمر ظل غائبًا.

- حد عمل لك حاجة؟ مش عايز تقوللي حاجة؟

ولما لم يتلق ردًا أجلسه على الأرض في نهاية الحجرة وعاد للشيخ حمزة.

- عمر هايفضل هنا. دلوقتي احكي لي القصة.

- بسم الله الرحمن الرحيم. أنت تعلم مكانتك في الجهاد ومكانتك عندنا جميعًا، وأننا ما كنا نأتي أمرًا يمسُّكَ من قريب أو بعيد، وأن ابنك أمانة لدينا أحسنا مأواه وتربيته وأخذته في كنفي وعاملته كابني. واعلم أنه ما من شيء أشق على نفسي مما سأقوله لك، وأني ذهلت لما علمت بالأمر ولم أتخذ موقفًا إلا بعد تيقني بالرؤية والسمع وباعتراف الولد نفسه. وأعلم أن ما ستسمعه سيشق عليك، وأنه اختبار لإيمانك فلا تدع الغضب والغرور يغشيان بصيرتك، وتذكر قول الله تعالى في محكم كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ .. صدق الله العظيم.

- احكي يا حمزة وكفاية مقدمات! فيه إيه؟ عايزين تموتوا ابني ليه؟

- ابنك خان. ابنك تسبب في مقتل عدد من الإخوة، وتآمر على قتلنا جميعًا ولولا ستر الله سبحانه وتعالى لكان قد نجح.

- ابني؟ عمر؟

- ما حدث هو أن الأمن المصري جند ولدًا من أبناء العاملين مع الشيخ عزام. استدرجوا الولد وخدروه واعتدوا عليه وصوروه. ثم طلبوا منه أن ينقل لهم معلومات بسيطة عن الشيخ عزام وجماعته. لم تكن معلومات هامة في البداية، وهددوا الولد بإخبار أهله إن لم يتعاون معهم، ففعل. لكن جماعة الشيخ عزام غير نشطة مثلما تعلم، واتضح فيما بعد أن هدفهم الأصلي لم يكن الشيخ عزام بل نحن. هذا ما ذكره أحدهم بعد ذلك. قال إنهم يستهدفوننا نحن انتقامًا من عمليات قمنا بها ضدهم. لا نعرف عن أي عمليات يتحدثون، نحن

لم نقم بعمليات ضدهم من يوم تفجير القنصلية عام ١٩٩٥ . ما الذي ذكرهم بذلك بعد أربعة عشر عامًا؟ الله أعلم.

غاص قلب فخر الدين. عن أي عمليات يتحدثون؟ هل يمكن أن يكون ذلك انتقامًا منه هو؟ من عملياته هو؟

قل لي: هل قمت بعمليات ونسبتها لنا يا أبا عمر؟

- لا. طبعًا لا.

- ربما قام أحد الإخوة بعمليات فردية وظنوا أننا وراءها. المهم، ضغطوا على الولد إياه من أجل أن يعرفهم على أحد أبنائنا، وقد كان. أخذ هذا الولد ابنك عمر وذهب للقاء هؤلاء الناس في مكان حددوه له، وفعلوا مع عمر مثل ما فعلوا مع الولد الأول.

شعر فخر الدين بدوار يجتاحه. نظر بطرف عينه لعمر فوجده غارقًا في صمته، كأنه نائم أو غائب عن الوعي. كأنه لا يسمع ما يدور. ظل فخر الدين يحدق بالشيخ وملامحه جامدة كالحجر.

- تعاون عمر معهم. المخابرات السودانية رصدت اللقاءات وقبضوا على الولدين وقالوا لنا ما حدث. اتضح أنه أعطى عملاء الأمن المصري بيانًا بأسماء الإخوة الذين فروا من أفغانستان والبلاد التي آووا لها وأسماء الموجودين في مزرعة الدمازين وفي كُتُم وكردفان. أبلغنا من استطعنا لكن بعضهم كان قد قبض عليه بالفعل وبعضهم قتل. أخذنا عمر من السودانيين وسألناه فاعترف. والشرائط لدينا مسجل فيها اعترافاته. وأرسلت إليك أدعوك للحضور فأبيت.

- كنت فاكر..

- لا يهم الآن. جلس معه بعض الإخوة واستتابوه إكرامًا لك، رغم الدم الذي سال. تاب، فأرسلناه إلى الخلاوي الشرعية ليكمل توبته ويقوي إيمانه ويكفر عما اقترفه. لكنه هرب واختفى. علمنا بعد ذلك أنه عاد للخرطوم وعاود الاتصال بهؤلاء العملاء بمحض اختياره. ثم اتصل بنا وطلب العودة وأبدى ندمه وتوبته. لم نكن مقتنعين بصدق توبته لكننا قلنا نرى ما وراء الأمر. أعدناه إلى هنا، وبعد أسبوعين تعلل بشيء وذهب للخرطوم. كنا قد وضعناه تحت المراقبة وصورناه في الخرطوم مع أحد العملاء الذي سلمه حقيبة متفجرات. قبض عليه السودانيون - الذين كانوا يتابعون هؤلاء العملاء أيضًا - ومعه الحقيبة وحققوا معه فاعترف بأن العملاء قد طلبوا منه أن يضع الحقيبة في مكتبي وأن يفجرها يوم اجتماع القيادة الأسبوعي ودربوه على تشغيل المفجر. لم يكن هناك من شك. أخذنا الولد منهم بعد لأيٍ وأتينا به إلى هنا، وحققنا معه بأنفسنا واعترف أمامي وأمام المجلس الشرعي الذي انعقد.

المجلس تداول كثيرًا في الناحية الشرعية. واضح أن الولد يعرف ما كان يفعل. سأله بعض الإخوة في المحاكمة إن كان يعرف عقوبة خيانة الأمانة فأجاب بالإيجاب. سأله البعض عن سبب خيانته فقال إنه لا يحبنا وإننا لسنا أهله وإنه لا عهد بيننا وبينه. هكذا! ناقشه الإخوة كثيرًا، وتبين أنه لم يكن مكرهًا، فصدر عليه الحكم بالإعدام قياسًا على المتآمر لقتل الناس، وصدق المجلس بالأغلبية على الحكم.

- وليه ماحدش اتصل بيه؟ ليه مابعتليش آجي وفهمتني إن الموضوع متعلق بحياة ابني؟

- أنت رحلت باختيارك. قررت ترك الجماعة والعمل وحدك. وأقنعت الشيخ بذلك رغم معارضتي وقتها، فلا تأتي الآن لتطلب أن نعاملك معاملة العضو الذي يعيش معنا.

- بقى كده يا شيخ حمزة؟

- أنت تعلم أن إخوة عديدين عارضوا رحيلك ورأوا فيه استكبارًا وخروجًا. وقالت ألسنة السوء كيف تصادف أنه رحل من أفغانستان قبل القصف الأمريكي بشهرين، لكنني أخرست هذه الألسنة ووقفت معك رغم عدم اقتناعي إكرامًا للتاريخ الذي بيننا. تركت ابنك مع أم ياسر أيام الجهاد فرعيناه لك. ولما عدت لهنا قلت لأم ياسر إنك ستتركه معها مزيدًا من الوقت لأنك تخشى عليه في مصر ولا تستطيع رعايته فأخذناه في كنفنا. عاملناه كابننا، وهذا ما جنيناه. تسبب في القبض على إخوة وفي تعذيب وقتل إخوة وكبد الجماعة نفقات طائلة وأساء لعلاقتنا بالسودانيين ومكّن الأمن منا وكاد يكلفنا حياتنا. ماذا تريد مني أن أفعل؟ أعطيه وسامًا؟

- لأ، كان عليك تبعت تجيبني من أول المشكلة ما بدأت وقبل ما الأمور توصل لكده! وبعدين هو ليه كرهكم بالشكل ده؟ حصل له إيه؟ لازم حد أذاه. هو فيه ولد يكره أهله كده من الباب للطاق؟

- والله هذا سؤال تسأله لنفسك أو له، أما نحن فقد راعينا الله فيه قدر استطاعتنا.

- وانت يا شيخ حمزة، ما سألتش نفسك إزاي الأمن قدر يجند اتنين من ولاد الجماعة بالسهولة دي؟ مش ده برضه معناه إن فيه خلل عندكم؟

– الخلل بيّن، وهو في هذين الولدين اللذين استسلما للشيطان.

– ده عيل! ده عنده ستاشر سنة. امتى لحق يعرف الشيطان عشان يستسلم له؟ ده ولد في أمانتك وعهدتك، إن كان الشيطان تمكن منه تبقى دي مسئوليتك انت!

– لا يا أبا عمر، إنه بالغ. لقد كشفنا عليه، وهو بالغ.

– بالغ الجسد ليس بالضرورة بالغ العقل يا شيخ! اتق الله يا حمزة!

– اتق الله أنت ولا تلقي بمسئولية الفتى عليّ.

– مسئولية الفتى؟ إزاي دي مسئولية الفتى؟ هو عمر اللي عادى جهاز الأمن وقومه عليكم؟ ده ولد صغير المفروض انك بترعاه وتربيه وتخلي بالك منه، مش ترميه للسباع وبعدين عايز تقوم تموته!

– عمر ليس صغيرًا. والمجلس انعقد وأقر بأنه بالغ وهو نفسه أقر بمسئوليته وعلمه بما يفعل وحسم الأمر.

– حسم الأمر؟ إنت أكيد جرى لعقلك حاجة؟ انت نسيت نفسك ولا إيه يا حمزة؟

– لست أنا من نسي نفسه يا شيخ. بل يبدو أن الأمر أسوأ مما ظننت وأن خوار العزيمة وراثي في الدم.

– خوار العزيمة؟ وراثي في الدم؟ الله يلعنك! انت نسيت بانجشير يا ناكر الجميل؟ والله لولاي لكانت ضباع الجبل أكلت جثتك من سنين.

- الأعمار بيد الله فلا تمن عليَّ بما قدر الله لي وجعلك فيه سببًا. ألم أقل لك استكبارًا وخروجًا؟

- والله ما تغيرت يا حمزة. رمتني بدائها وانسلَّت. بترمي غلطك على غيرك زي ما كنت طول عمرك.

- الزم حدك ولا تتجاوز!

- الزم انت حدك يا شيخ المنصر. والله لولا كرم أخلاقي لخلصت عليك.

نظر حمزة إلى الحارس المتحفز فتقدم ناحية فخر الدين بسرعة. استدار فخر الدين وقبل أن يصل الحارس إليه سدد له ضربة مباشرة في أسفل رقبته أفقدته الوعي. تقدم بيده إلى حمزة وأمسك به من عنقه ورفعه في الهواء. نظر إليه وهو يرجف من الغضب:

- اسمع! إن كنت فاكر إن الحراس دول حايحموك مني تبقى غلطان. أنا لو عايز أعاقبك ماحدش حايحوشني عن قطع رقبتك.

صوت حمزة يتحشرج وعيناه تجحظ وفخر الدين قابض عليه.

- اسمع يا أبا عمر، أنا أختنق. أنزلني بالله عليك، لا تكن مجنونًا.

تنفس فخر الدين بعمق ثم أنزله. ما زال ممسكًا به. حمزة يستعيد التنفس ببطء. نظر إلى فخر الدين القابض عليه واستطرد:

- أجننت يا أبا عمر؟ تريد أن تقتلني؟ اسمع. يمكنني أن أوصي المجلس بتأجيل تنفيذ الحكم، على أن تبقى هنا. نعطيك الولد ويكون في رعايتك وتحت عينيك وفي عهدتك. تعود لمكانك وتقوم بدورك. نحن نعيد تجميع المجاهدين الذين فرقتهم الحرب

في أفغانستان: عاد بعض من ذهبوا للعراق وللشيشان وبعض من كانوا في الصومال ودارفور. وسنبدأ بإذن الله التحرك بشكل منظم، ودورك في هذا الأمر محفوظ ومهم. يمكنك أن تبقى وننتقم سويًا من هؤلاء الذين أغووا ابنك وجرّوه للفاحشة. والله لآتيك بهذا العميل لتفعل به ما تريد. وهذا شفاء عمر الوحيد. ولن يجرؤ أحد على المطالبة بتنفيذ الحكم على عمر وأنت بيننا، ويتوب الولد وتضمنه وينتهي الموضوع.

- وما عملتش كده من الأول ليه؟ كنت حاتقتل عمر ليه إذًا؟

- دعك من هذا الحديث، نحن هنا الآن وأمامك هذه الفرصة...

- سيبك انت من الكلام ده يا شيخ المنصر انت واسمعني. أنا فهمتك من زمان، من أيام الحرب في الشمال وانت بتتملق الشيخ عشان يديك الإمارة. وما اهتميتش ساعتها، ولا مهتم دلوقتي. لكن ما تصورتش في يوم من الأيام إن الخسة والندالة يوصلوا بيك للدرجة دي. ابني؟ ابني يا فاجر؟ أنا لو حاتبع منطقك يبقى لازم أعاقبك انت، ودلوقتي. لكن انت عقابك انك تكون نفسك، زي ما هي كده، وتقضي بقية حياتك زي ما عشتها. اسمعني وما تقاطعنيش، ده آخر الخط بيني وبينك، بيني وبينكم جميعًا. أنا خارج من هنا وفي إيدي ابني. لا حد يعترض طريقي ولا حد ييجي ورايا. وينتهي الأمر عند هذا الحد. لا أعرفكم ولا تعرفوني بعد النهارده.

لم ينتظر فخر الدين الإجابة وإنما رفع عمر من على الأرض وألقى به على كتفه ومضى خارجًا. سار في طرقات القرية الضيقة. وقف الرجال ينظرون وتنحى الحراس في ارتباك وتردد. مضى فخر الدين

ولم يعترضه أحد لكن العيون الغاضبة كانت ترقبه وترقب ابنه الذي يحمله بين ذراعيه. عبر بوابة خلف بوابة وطوق حراسة خلف طوق، حتى وصل لدراجته النارية. جلس على مقعد القيادة وأجلس عمر أمامه وأحكم ذراعيه حوله كيلا يسقط أو يفر وانطلق نحو الطريق المؤدي لصحراء الجلف الكبير.

* * *

الفصل الثاني

بين السرايات

عندما أفاق فخر الدين ووجد نفسه ممددًا على الأريكة بملابسه الداخلية، أدرك أن ابن خاله قد نفذ تهديده. قال عيسى إنه سيفعلها سواء رضي فخر الدين أم لا، ولو اضطر لتخديره. لم يكن يمزح إذًا. لكن في ذلك خطر على حياته، فهؤلاء القناصة لن ينتظروا للتحقق من شخصيته.

شعر منذ استيقظ بما يجري. نظر من نافذة الصالة الصغيرة ولمح القناص المتمرس على السطح. شعر بالشفقة عليه، أي خيبة تلك التي تكشف قناصًا لضحيته؟ يعلم منذ البداية أن الأمور ستصل لهذا. دخل غرفة نومه. فتح باب الدولاب الخشبي القديم. مد يده لجلبابه الأبيض وسرواله الأبيض. بحث عن جورب أبيض والتقطه. أكمل ارتداء ملابسه؛ حذاء كاوتشوك أبيض. ألقى نظرة الوداع على أشيائه القليلة: المنضدة، الكرسيين الخشبيين، ساعة الحائط القديمة، المقعد العريض ذي القاعدة الساقطة قليلا، طرف السرير البادي من

الباب الموارب، لوحة تصوره وهو صغير يرعى الغنم مع أم إبراهيم. نظر من النافذة مرة أخرى ناحية القناص المنتظر، وخرج.

لم يكن القناصون المتربصون على الأسطح هم الذين أوجعوا قلبه، بل الصمت المطبق على الشارع. كيف استطاعت بين السرايات أن تأتي بكل هذا الصمت؟ كيف طاوعها قلبها وأغلقت عيونها عنه وتركته يصارع الذئاب وحده؟ أين ذهب ما بينه وبين أهل الحي؟ أين العهد؟ بل كيف أجمع الأهالي على التخلي عنه وهم لا يجمعون على شيء؟ اختفوا جميعًا بقدرة قادر. تركته بين السرايات يواجه هذا المصير وحده. وهو الآن وحده مع هذه العيون الخبيئة التي ترقبه وتسلمه بعضها لبعض. مر في طريقه المعتاد من جانب مصنع الكوكاكولا متجهًا لشارع السودان. ثم دخل لمنزل خالته ليودع عيسى. طرقات خفيفة على الباب واستيقظ عيسى مسرعًا وعندما رآه فهم. أعد له شايًا سريعًا وجلسا صامتين. لم يكن هناك شيء يقال. رشف فخر الدين من الشاي وشعر بهدوء يعتريه. ابتسم لعيسى ثم بدأت الأشياء تميع في ناظريه.

* * *

ارتبك القناصة حين اختفى فخر الدين على ناصية شارع السودان، وطارت الإشارات الأثيرية في هذا الصباح الشتوي نحو سيارة القيادة الرابضة أمام الجامعة. رشف العقيد سمير من كوب شايه الصباحي وفكر للحظة أن يأمر القناصة باقتحام منزل الخالة، ثم قرر الانتظار. التعليمات أن ينفذ العملية دون إحداث هرج في الحي. انتظر. بعد ربع ساعة جاءته الإشارة بأن فخر الدين قد خرج من منزل خالته. تنفس

الصعداء. شعر عيسى بالوجود الخفي الذي ينتظره ويرقبه، واصل المسير. وفي تمام السابعة إلا الربع من صباح ذلك اليوم الأول من أكتوبر، عندما صار عيسى خلف مصنع الكوكاكولا، انهالت الطلقات من أسطح البيوت فأثخنت جسد عيسى من كل صوب. سقط سقطة واحدة على الرصيف، ودمه يسيل من جسده المهترئ.

* * *

سمع فخر الدين صوت الرصاص قبل أن ينزل من على الأريكة. جرى، جرى كما لم يجر في حياته، لكن الوقت كان قد فات. حين وصل لمكان الحادث كان القناصة قد رحلوا وجثة عيسى قد اختفت. وجد دماءً على الأرض وأظرف فارغة متناثرة ولا شيء آخر. سقط على الأرض وهو ينتحب. لا يصدق فخر الدين أنهم قد فعلوا ذلك بابن خاله؛ حين اكتشف مشركو مكة أن الرسول قد غافلهم وفر مع أبي بكر وأنام ابن عمه عليًا في فراشه، لم يقتلوا عليًا. مع أنهم كانوا كثرة، ولو قتلوه لتفرق دمه في القبائل. ومع أنهم كانوا حانقين وغاضبين، إلا أنهم لم يقتلوا عليًا. أما هؤلاء القناصة فقد قتلوا ابن خاله، وربما لم يعرفوا حتى من الذين قتلوا.

جلس على الأرض في دماء عيسى لا يعرف أين يذهب ولا ماذا يفعل. جاء طفلان ذاهبان للمدرسة ومرا بجواره وهما ينظران إليه في خوف ثم مضيا. يعرفهما، ويعرف أباهما؛ ذهب لمنزلهم عدة مرات ليشرح لهما بعض الدروس في العام الماضي. قام من بقعة الدم التي تشربتها ملابسه - التي هي ملابس ابن خاله، التقط ظرف رصاصة فارغًا وجده على الأرض، كان ساخنًا لا يزال. كيف وصل الظرف

بجوار الجثة؟ ألم يكفهم القناصة فأتوا وأطلقوا النار عليه وهو مسجى! مضى فخر الدين عائدًا لمنزله وهو يبكي: «فداك روحي يا عيسى، كيف فعلت ذلك بنفسك وبي وبأمك؟».

لكنه توقف في الطريق؛ لم يستطع أن يواصل المسير. بدأ أهالي بين السرايات في الظهور من بيوتهم فلم يستطع أن ينظر في عيونهم مرة أخرى، ولم يستطيعوا. وقع الطلاق وانتهى الأمر، وشعر فخر الدين أنه لن يستطيع العودة للعيش في وسطهم. توقف في منتصف الطريق وعاد أدراجه نحو شارع السودان. عبر شريط السكة الحديد وذهب إلى منزل حسين في «كرداسة»، وطرق الباب.

* * *

ظل قلق حسين يتزايد حتى استيقظ فخر الدين وخرج من غرفته. لم يعتد حسين على أن يأتيه أصدقاء في الصباح وملابسهم تقطر دماء ثم ينهارون بين يديه ولا يستيقظون إلا ليغفوا ثانية لمدة ثلاثة أيام. كان قلقًا بحق، فلم يسبق أن رأى فخر الدين في هذا الحال. حسين صعيدي، في أول الثلاثينيات، قوي البنية ومائل للسمرة وشعره أكرت وله شارب كث. صوته مبحوح قليلًا بفعل التدخين المستمر. جاء للقاهرة للدراسة واستقر بها بعد ذلك، وتطوع مع فخر الدين في شبكة المحامين التي أنشأوها لمساعدة الفقراء المحتاجين للمعونة القضائية. تقع شقته في الطابق الأرضي من منزل لا يسكن فيه غيره، وسمعته كمحام محترم وما قدمه خلال العام الماضي من مساعدات قانونية مجانية لأهل «كرداسة» قد زادت من شعبيته في القرية. جلس

في الصالة الصغيرة يدخن ويشرب الشاي وهو ينظر لفخر الدين الجالس أمام منضدة الطعام لا يمس شيئًا مما وضعه عليها.

- ما هو انت لازم تاكل حاجة، ما ينفعش كده!

- حاكل، بس كمان شوية.

ثم يغرق في الصمت. ساعة بعد ساعة، وإلحاح لا ينقطع من جانب حسين دفعه أخيرًا إلى أن يقص القصة عليه.

- هو احنا عملنا لهم إيه؟ دي شبكة محامين بتدافع عن الغلابة، إيه اللي مزعلهم في كده؟

- أكيد المحامين الكبار احتجوا!

- وبعدين إذا عايزين يصفوا الشبكة ليه يقتلونا؟

- ما هم وقفوك عن العمل ما نفعش. بقت الناس بتجيلنا على القهوة بدل ما نروحلهم. بالعكس، ده الشبكة كبرت.

- يقوموا يقتلوني؟

- واضح إن العملية كبرت عما احنا متصورين. أخدت أبعاد تانية؛ الناس صدقّتنا وآمنت بينا ومشت ورانا، ودي أكتر حاجة تزعج الحكومة.

- تزعجها لدرجة القتل؟ دا احنا محامين!

- محامين إيه بس يا فخر، دا احنا بقينا فاتحين حكومة من على القهوة. على العموم الموضوع تجاوز الكلام ده. دلوقت الحكومة ما بتهزرش، الفسحة خلصت؛ كله يخش الشق.

نظر فخر الدين إلى الدم على ملابسه ولم يرد. ترقرق دمع في عينه فاقترب منه حسين وجلس بجانبه.

- اسمع يا فخر، أنا آسف جدًا. عيسى عزيز علينا كلنا، بس المهم دلوقت انك تختفي عن الأنظار. هم فاكرين إنهم قتلوك؛ سيبهم فاكرين كده واختفي شوية لغاية ما الأمور تهدى.

- بس انا مش عايز أهرب يا حسين. انا حافضل. خليهم يقتلوني. حاعلق دمي في رقبتهم قدام الناس كلها.

- طيب وإيه الفايدة؟ ما ده اللي حصل النهارده والناس قفلت عينيها علشان ما تشوفش! هي مسئوليتك تجاه الناس إنك تثبت لهم اللي هم عارفينه من مئات السنين؟ ولا مسئوليتك انك تحافظ على نفسك وتبقى قوي كفاية بحيث تقدر تساعدهم؟

- يا فخر اسمعني وأرجوك حكّم عقلك مش قلبك. مش ناقصين اختبارات. عيسى راح، راح علشان انت تفضل. ما تضيعش تضحيته. مش من حقك ترمي نفسك في التهلكة علشان تثبت مبدأ احنا كلنا عارفينه. عايزينك تفضل حي؛ ده كل المطلوب منك دلوقت. علشان خاطر عيسى وخاطري وخاطر الشباب اللي سابوا حياتهم ومشيوا وراك. ما ينفعش تتخلى عنهم دلوقت. مسئوليتك انك تحمي نفسك من عدو إيده تقيلة.

- وبعدين؟

- وبعدين تبني قوتك وترجع؛ ساعتها تكون المواجهة لها معنى.

- عمر القوة الفردية ما حتكون كافية لمواجهة قوة دولة. الحل الوحيد إن الناس تكتشف القوة اللي في إيدها لو اتحركت بشكل جماعي ومنظم.

- أنا معاك. بس اللي انت بتعمله ده تحدي بشكل فردي لدولة. آديك شفت أهل بين السرايات لا اتحركوا ولا يحزنون.

- المرة دي ما تحركوش، لكن مرة بعد مرة أكيد حاييجي يوم ويتحركوا.

- طيب خد وقت مستقطع، مش أكثر من كده. نفكر في المواضيع دي كلها ونشوف حانعمل إيه.

- وعيسى؟

- أنا والمجموعة حانمشي ورا الموضوع ده لغاية ما نكشف اللي قتلوه. حانفضحهم في كل حته. وحياة أمي لنجرّسهم. بس المهم انت تختفي في حته آمنة.

- وخالتي مريم؟ دي مالهاش غيري دلوقتي!

- واحدة واحدة. الأول نوديك انت في حته أمان وبعدين نحل مشكلة خالتك. روح عند اخواتي في الصعيد. عندي أخ في أسيوط ممكن تستخبى في بيته.

- مش ده أخوك بتاع الجهاديين؟

- بقولك إيه؟ الموضوع دلوقت مش موضوع جهاديين ولا غيره، المهم نوفر لك حته تكون فيها بأمان. وبعدين هم مبطلين شغل.

كل اللي بيعملوه انهم يصلّوا ويعملوا حلقات استذكار ومناقشات. مالكش دعوة بيهم؛ ماتروحش تصلّي معاهم لو مش عاوز ومحدش حايقولك حاجة! ده أخويا وانت ضيفه. مش أكتر من كده. فيه حد غيري يعرف انك سليم؟

– يعني فيه كام واحد من بين السرايات شافوني بعد الحادثة لكن مافتكرش يتكلموا.

– كويس. انت من دلوقت حاتبقى ابن خالك: عيسى النجار. حاروح أجيب أوراقه من البيت. حاقول لخالتك إنه مسافر وباعتني آخد حاجات ليه.

– يعني حانكدب على خالتي مريم؟ حانخبي عنها إن ابنها اتقتل؟

– معلش، تأجيل الخبر السيئ مش حايضر في حاجة. حانقولها إن عيسى كان لازم يسافر فجأة علشان يلحق المنحة بتاعته. قالوا لازم يسافر دلوقت علشان المنحة ماتروحش عليه. وبعدين ابقى قول لها انت بطريقتك لما ترجع إن شاء الله.

وهكذا ظل الصديقان يتحاوران طيلة اليوم وقسم من الليل: حسين بحسه العملي، وفخر الدين بتمسكه بالمثال ومقاومة أي حيد عنه، حتى ولو مؤقتًا. لكن الضربات كانت قد تلاحقت على فخر الدين مؤخرًا، من ملاحقة أمن الدولة له في سنواته الأخيرة بالجامعة حتى وقفه عن العمل من قبل النقابة في العام الماضي وهجر شيرين له، مرورًا بمحاكمته في حفر الباطن حين حرّض الجنود على عدم المشاركة في الحرب ضد العراق. كانت معجزة حقيقية أن أفلت من

كل هذا وتماسك. كان جريحًا وجروحه غائرة وإن كتم الألم. وأجهز مقتل عيسى على ما بقي فيه من قوة. لم يعد يحتمل مواصلة هذا التعب. وإن كان قد قرر ترك نفسه لأعدائه وانتظارهم وهو يعلم أنهم قادمون فذلك ليس فقط لأنه يريد أن يعلق دمه في رقابهم، ولكن لأنه تعب ولم يعد يستطيع. يريد أن يستريح. ويتمنى من أعماق قلبه لو أنه هو الذي سقط برصاص القناصة خلف مصنع الكوكاكولا وليس ابن خاله البريء. يعرف أن حسين محق، وأن مسئوليته تجاه نفسه وتجاه من أحبوه وتبعوه أن يلملم جراحه ويمضي. لكن إلى متى؟

– في الأثناء دي، أنا وعلي وأشرف نقدم بلاغات عن عملية القتل، بس على أساس ان انت اللي اتقتلت، لغاية ما التحقيقات تكشف الحقيقة وساعتها تبان انت تاني. أوعدك بشرفي إني مش حاسكت إلا لما افضح اللي ورا الموضوع ده. علي وأشرف حيساعدوني، بس مش لازم حد غيرنا احنا الأربعة يعرف انك عايش. من هنا ورايح انت عيسى مش فخر الدين، لغاية ما الموضوع يبان له قرار.

– خليهم خمسة: لازم خالتي مريم تعرف إني عايش. ماتقولهاش على عيسى دلوقت. قول لها عيسى سافر زي ما اقترحت، بس لازم تعرف إني عايش وإني حاطمئن عليها من بعيد لغاية ما اقدر أرجع أو أبعت لها.

– اتفقنا.

قام حسين ليتصل بأخيه في أسيوط من تليفون عمومي ويخبره أن صديقًا عزيزًا عليه سيذهب لبيتهم هناك غدًا ولعدة أسابيع.

– مش حايسألني ليه. وحابقى اتصل بيك عن طريقه.

لم يرد فخر الدين، وربت حسين على كتفه بحنان وابتسم له مشجعًا وخرج.

* * *

صعد علي السلم وهو يتحسب للقاء. لكن الخالة مريم كانت قد أعدت نفسها للأسوأ، فالأخبار لا تتأخر في بين السرايات. عندما رأته عند عتبة البيت أمسكته من يده وجرّته للداخل وأغلقت الباب بسرعة. لم تجد ابنها في البيت عندما استيقظت، وأخبرتها نسوة من الحي أن رجال الأمن ملئوا الشوارع منذ الصباح الباكر ووقع إطلاق نار. أقسم لها البعض إنه رأى فخر الدين غارقًا في دمائه خلف مصنع الكوكاكولا، ومن ساعتها وهي لا تغادر المنزل تصلي وتدعو. طمأنها علي أن الاثنين بخير. يصعب عليه أن يكذب، وخاصة على الخالة مريم. لكن لم يكن أمامه حل آخر. أخبرها أن فخر الدين مطلوب للأمن، وأن الناس يعتقدون أنه قتل ومن الأفضل تركهم في هذا الوهم حتى تهدأ الأمور. قال لها إن عيسى سيختبئ أيضًا ويحاول مغادرة البلاد إلى فرنسا بأسرع وقت يستطيعه كي لا يقبض عليه ويفقد المنحة التي حصل عليها للدراسة هناك، وطلب منها التظاهر بالحزن على «مقتل» فخر الدين. فقالت له إن لديها من الحزن ما يكفي بلدًا ولا حاجة بها للتظاهر، فأمن على كلامها وطلب منها أن تخبر كل من يسأل عن عيسى أنه سافر لفرنسا في المنحة الدراسية إياها، وكرر على مسامعها أهمية حفاظها على السر حماية لابنيها، وقد كان.

والخالة مريم حزينة فعلًا بما يكفي بلدًا بأكمله. فمنذ خرجت مع زوجها يوسف من قريتهم مطرودين من بيت أختها - أم فخر الدين - والمصائب تتوالى عليهم. فقدوا ما كانوا يملكون في قريتهم، وأصبحوا

يعيشون في قرية أخرى غرباء وفقراء. لم يستطع يوسف أن يجد عملًا منتظمًا يؤمن لهم اللقمة الكريمة، ثم ماتت ابنتها الكبرى في نوبة حمى، ثم مرض يوسف وقعد عن العمل بالكامل. وذات ليلة، عادت هي وعيسى للدار فوجدت سيارة إسعاف رابضة أمام الباب واثنين من الغفر يحوقلان. منعاها في البداية من الدخول ثم تركاها أمام صراخها. وعندما اندفعت للمنزل كان رجال الجمعية الشرعية يرفعان جثث يوسف وابنتيها الأخريين داخل سيارة الإسعاف الخيرية. قال الجيران إنهم اختنقوا بالغاز. الخالة مريم تحمد الله على نصيبها، لكنها في قرارة نفسها لا تفهم لماذا اختصها بكل هذه المصائب هي وأسرتها، هم الذين لم يؤذوا مخلوقًا في يوم من الأيام. لكنها تذعن، تذعن وتستغفر الله.

لم تستطع المبيت في دارها. ذهبت هي وابنها عيسى للإقامة عند بعض الجيران، ثم أرسلته لفخر الدين ليسأله إن كانا يستطيعان المجيء للحياة معه بالقاهرة. كان زوجها يجلّه ويقول عنه إنه الرجل الوحيد الباقي في هذه العائلة. لم تكن تعرف محل إقامته بالضبط، غير أنه محام ولا بد من أن الناس ستدل ابنها. وبالفعل، عثر عليه عيسى في نفس يوم وصوله القاهرة في قهوة بحي بين السرايات المجاور للجامعة. رحب فخر الدين بابن خاله وترقرق الدمع في عينه غير مرة تلك الليلة، ولم يكتف بقبول رغبة زوجة خاله «التي يدعوها خالته» وإنما قام منذ الصباح وسافر مع ابنها إلى حيث تقيم وعاد بها بنفسه. في البداية أقاما في الحجرة الصغيرة التي كان يقطن بها على سطح أحد البيوت وانتقل هو للإقامة عند صديقه علي، ثم عثر لهما على شقة صغيرة بشارع مجاور بعدها بأسبوع. تكفل فخر الدين بمصاريف خالته وابنها، والأهم من ذلك أنه تولى عيسى برعايته وكأنه أخ، فنقل أوراقه

لكلية الحقوق بجامعة القاهرة القريبة، واستذكر له وشجعه حتى تخرج ثم حصل على درجة الماجستير. وإن كان عيسى قد تفوق في دراسته بما مكّنه من الحصول على منحة دراسية لتحضير الدكتوراه في فرنسا، فإن مريم كانت موقنة أن الفضل في ذلك كله يرجع لفخر الدين.

ولكن ابنيها - مثلما تدعوهما - كانا غارقين في السياسة. وهي تعلم في قرارة نفسها ألا شيء سيثنيهما عن ذلك، وأن الأمر يكاد يكون وراثيًا في هذه العائلة. لكنها تتمنى لو لم يفعلا؛ لمَ يجب أن يحمل أحباؤها دائمًا عبء الدفاع عن الحق؟ ألا يكفي زوجها وما لقيه؟ أخرج من داره وأبعد من قريته وفقد مصدر رزقه على يد أقرب الناس إليه، وظل بقية حياته تأكله الفجيعة حتى قضت عليه تدريجيًا قبل أن يأتي الغاز على ما بقي منه. ومن قبل ذلك أبو فخر الدين والذي كان مصدر حمايتهم جميعًا من بطش العم سليم. وعائشة أم فخر الدين التي وقفت في وجه العم سليم دفاعًا عن حقها وحق ابنها حتى أسكتها سليم للأبد. أليس هناك بد من أن يكرر الأبناء قصة الكفاح الخاسر هذه؟ وإن كان سليم وأشباهه سينتصرون في كل الأحوال، فلم نضيع حياتنا في مقاومتهم؟ تسأل نفسها في صمت، وأحيانًا تفلت منها كلمة لفخر الدين أو لعيسى سرعان ما تتداركها، فهي تعلم أن ليس مما واقع بد؛ كله مقدّر ومكتوب.

شرب علي الشاي، وجمع بعض حاجيات عيسى وأوراقه، وأعاد التأكيد للمرة العاشرة على الخالة مريم أن تتظاهر بأنها لا تعرف شيئًا غير ما يردده أهل الحي. والخالة صامتة بطبعها، ولم يكن علي يخشى أن تقول شيئًا، لكنها تعليمات حسين وقد نفذها.

* * *

يجلس بجوار النافذة في القطار المتجه إلى أسيوط. شكله مختلف اليوم. أعطاه علي ملابس أخرى وغيّر من تسريحة شعره. ترى إلام ستقود هذه الرحلة؟ لا يشعر فخر الدين بالارتياح لتركه منزله والحي الذي عاش فيه كل هذه السنوات. فبرغم كل شيء، لا يستسيغ فكرة الهرب من مواجهة الظلم والافتراء، هو الذي لم يهرب قط، ولم يتراجع قيد أنملة في حياته، لا في القرية أمام عمه، ولا في حجز أمن الدولة أيام الجامعة، ولا حتى في ميدان المعركة وسط الحرب. فكيف يتراجع الآن؟ كيف يقبل بأن يساوم؟ يسأل نفسه وهو جالس في هذا القطار المزدحم عما إذا كانت تلك اللحظة هي نهاية النقاء الذي حاول طيلة حياته الاحتفاظ به داخله، عما إذا كانت تلك هي نهايته، منفيًا مع ما بقي من نقاء في قطار يرحل إلى ما لا يعرف. لكنه، هو الذي قُتل مرة بعد مرة، يتساءل ماذا سيكسب إن قتلوه ثانية؟ سيخسر، ولن يكسب الحق شيئًا. يقول لنفسه ذلك فيهدأ، ثم يعود ويفكر أنه بهذا المنطق كان من الأجدر به أن يساوم في مهنته كمحام ويظل مقيدًا بجداول النقابة ويدافع عن بعض المظلومين؟ هل المساومة بداية مسلسل تنازلات لا يتوقف؟ أم إن حسين على حق، وهو الآن يدافع عن حقه وواجبه في البقاء حيًا ورفض موتًا مجانيًا لا يكسب من ورائه أحد شيئًا؟

لا يجد الإجابة. لكنه يأخذ على نفسه عهدًا أن يعود وإن طال الغياب. سيعود للدفاع عن قضاياه. لن يتخلى ولن يساوم. سيختفي ليحمي نفسه من هذا البطش الجنوني. لكنه سيقوي من نفسه ويعود. والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وخير من الشهيد. لا يريد بعد الآن أن يكون ضعيفًا ولا شهيدًا، بل سيتسلح بما يمكنه من العودة

والانتصار للعدل. معركة ستطول، وهذه ليست إلا جولتها الأولى. قال محمود درويش للمقاتل المهزوم «ضع كيس العواصف عند أول صخرة واحمل فراغك وانكساري». لكنه لم يعد يرغب في الانكسار، بل سيحمل كيس العواصف معه ويمضي كي ينتصر للحق. وسيأتي يوم يعدل فيه الميزان بيده.

* * *

أعد أشرف وعلي وحسين عددًا من البلاغات الغفل من التوقيع، وأرسلوها من مراكز بريدية مختلفة. تضمنت البلاغات الوقائع الخاصة بيوم الاغتيال. فذكر أحدها أنه اختفى من محل إقامته، وذكر آخر أنه قتل وحوى رسمًا للمنطقة التي جرى فيها الاغتيال، وحوى بلاغ ثالث بيانات عنه وعناوين عائلته ومعارفه، وضم آخر بيانات بعض أهل المنطقة ممن يعرفونه جيدًا، وهكذا. شكلت البلاغات معًا قائمة شاملة لما يحتاجه أي محقق يريد البحث بجدية في الموضوع. استعلموا عن سير التحقيق من أصدقائهم بالنيابة، وعلموا بعد عدة أيام أن النيابة قررت حفظ البلاغات. ومن ثم بدأوا البحث في طرق للضغط على مكتب النائب العام كي يأمر بفتح التحقيق.

لجأ أشرف للدكتور نشأت غالب، أستاذهم بالكلية ومدير إحدى منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان. يرى أشرف فيه نموذجًا للأستاذ الذي يجمع بين العلم والشعور بالمسئولية إزاء طلبته وبلده. كان قد قدم له يد العون حين تعرض أحد أفراد عائلته لمشكلة بعد تحوله عن المسيحية، وتوثقت علاقته بنشأت بعد ذلك. وعندما بدأوا شبكة الاستشارات القانونية المجانية غير الرسمية التي كانوا يديرونها من

على القهوة في بين السرايات، اهتم نشأت بالتجربة. فدعاه أشرف للحضور ذات مساء وعرفه على فخر الدين وقضى المساء معهم. لكنه أبدى تحفظه على التجربة وقال إنها فكرة غير واقعية ومحكوم عليها بالفشل. قال نشأت إن من الخطأ أن نعطي الناس أملًا زائفًا، في حين أننا لن نستطيع مساعدتهم حين يحتاجوننا. ولمّا سأله أشرف: لِمَ لن نستطيع؟ هز نشأت رأسه ولم يجب.

شرح أشرف لنشأت غالب مسألة «اختفاء» فخر الدين وكيف أن النيابة العامة لا تريد فتح تحقيق.

- طبعًا مش حاتحقق في البلاغات!

- ليه؟

- لأن لو الموضوع تصفية زي ما بتقول يبقى مش حايحققوا، ولو الموضوع خيال يبقى مش حايهتموا.

- طبعًا الموضوع مش خيال!

- فيه شهود؟

- فيه أهل الحي.

- كانوا فين ساعة الحادثة؟

- كانوا في بيوتهم.

- وطبعًا ما عملوش حاجة؟

- لأ.

- حد منهم ممكن يشهد؟

- ما فتكرش.

- طيب إيه؟

- إيه إزاي؟

- إيه؟ عايزين إيه؟ حتى لو فيه تحقيق، حيحققوا مع مين؟

- مع اللي ارتكبوا الجريمة!

- انت بتهزر يا أشرف؟ انتوا يا بني مش حاتعقلوا بأه؟ أنا باكره عبارة «مش قلت لكم»، لكن هل في اللي حصل ده شيء مفاجئ؟ احنا مش اتكلمنا من شهور وقلت لك إن الموضوع ده آخرته كده؟ هو انتم عايشين معانا هنا في البلد ولا انتوا في بلد تانية؟ فيه حد يعمل كده؟

- طيب يعني كنا نعمل إيه؟ انت عاجبك اللي بيحصل حواليك ده؟ مطلوب مننا إيه؟ نقبل؟ ولا نقعد نتفرج؟

- لأ، لا نقبل ولا نقعد نتفرج، نتصرف بحكمة مش نرمي نفسنا في التهلكة. قلت لكم ده شغل صبياني ومش ممكن يستمر، العقل إنكم تعملوا عمل قانوني سليم بحيث ماحدش يقدر يمنعكم. انتم محامين مش هتيفة في مظاهرات، يعني عملكم مفروض يبقى بالقانون وفي إطار القانون. تستخدموا القانون علشان توسعوا الهامش المتاح قدامكم.

- طيب ما حضرتك بتعمل كده بقى لك خمستاشر سنة، وصلت لحاجة؟

- يعني أفتكر بنعمل عمل جيد، والمكتب ماتقفلش ومستمر في أداء واجبه وفي خدمة ولو عدد قليل من اللي بيحتاجوا المساعدة، والدليل انك هنا النهارده!

- طيب والعمل إيه دلوقت؟

- خلّيني أشوف أقدر أعمل إيه. أنا ليه معارف يمكن تساعد. حاعمل اللي أقدر عليه، لكن بغض النظر، فكر في اللي قلته لك، وفي إنكم تبطلوا الحركات الصغيرة دي وتبدأوا تشتغلوا بشكل مؤسسي وعاقل.

- طيب، بس حضرتك شوف تقدر تعمل إيه في موضوع التحقيق.

* * *

ذهب حسين للقاء «ناصر الخضري»، وهو صديق قديم لفخر الدين لكن علاقتهما فترت في السنوات الأخيرة. وحسين لا يحب ناصر أو حتى يحترمه. فهو في نظره شاب عدمي، يعيش حياة بوهيمية متحللة من المسئولية ويبرر لنفسه حالة العبث التي يعيشها بأفكار مشوشة عن صعوبة الظرف التاريخي. حسين رجل فعل، يكره النظريات التي لا تتفق والمنطق الجلي للأمور - ما يسميه بكلام المثقفين. حسين، ابن «ساقلته» بسوهاج، تعلم في المدارس الحكومية، وعمل بجانب الدراسة كي يمكن لعائلته مواصلة تكاليف الحياة المتزايدة. عندما التحق بالجامعة عمل في تجارة السجاد في نفس الوقت كي يعيل نفسه، ثم كي يساعد أباه المتقاعد بقريته. وفي خضم الكفاح من أجل لقمة العيش والإيجار ومصاريف الدراسة، لم يبق لديه طاقة

للأحاديث البعيدة عن الواقع العملي. حسين يعيش مع جيرانه في كرداسة ويتعاون ويتصارع معهم من أجل أمور الحياة المباشرة: توصيل مياه الشرب، ماسورة المجاري المتهالكة، الجسر الذي تنوي الحكومة تركيبه وتغيير حركة المرور وبالتالي التأثير على المحلات التي هي مصدر رزق الناس، الشباب الذين يتحرشون بالسائحات، المشكلات المترتبة على تشغيل أطفال الشوارع في بعض الورش، وهكذا. ومن قلب الصراعات والاتفاقات والتحالفات التي تدور في سياقها هذه الأشياء تحددت طبيعة علاقته بجيرانه وأبناء كرداسة ثم بالسياسة ككل. من هنا ولد ميله للبحث عن حلول تهدف لحماية المصلحة الفورية وكسب الوقت حتى تسنح ظروف أفضل.

ذهب إذًا لمقابلة ناصر الذي يعمل في وكالة للأنباء كي يرى ما إذا كان يستطيع دفع مكتب النائب العام لفتح تحقيق في «اختفاء» فخر الدين. لكن ناصر لم يكن ذا فائدة. بكى عندما قال له حسين إن فخر الدين اختفى ويشاع أنه قتل، ولام نفسه على انقطاعه عنه خلال السنوات الأخيرة. ثم بدأ يشرح لحسين أسباب ذلك والحادثة التي وقعت له عندما كان يعمل مهندسًا بمشروع كهرباء طلخا قبل أن ينتقل للعمل كمترجم بوكالة الأنباء. ثم استطرد في شرح صداقته بفخر الدين ومدى تعقيدها، وكيف أنه برغم حبه الشديد له لم يستطع أن يكون على اتصال به خلال الأعوام الأخيرة بسبب هذه التعقيدات. ولما قاطعه حسين متسائلًا في نفاد صبر عما يمكن لناصر أن يفعله، تساءل الأخير في براءة عما يمكن فعله إن كان فخر الدين قد قتل وانتهى الأمر. سأله حسين إن كان بوسعه أن يكتب شيئًا عن الموضوع في صحيفة أو مجلة، بحيث يثير اهتمام الرأي العام بما يدفع النيابة للتحرك، فقال

ناصر إنه مترجم وليس صحفيًا. سأله حسين عن أصدقائه ومعارفه من الصحفيين وما إذا كان يمكن لأحدهم أن يفعل ذلك لو قابلهم وأعطاهم البيانات اللازمة، ففكر ناصر طويلًا ثم طلب منه أن يعطيه بعض الوقت للبحث في هذا الموضوع. ترك له رقم تليفونه ورحل.

* * *

«نازلًا من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد

وكانت السنة انفصال البحر عن مدن الرماد

وكنت وحدي

ثم وحدي...

آه يا وحدي؟ وأحمد

كان اغتراب البحر بين رصاصتين

مخيمًا ينمو، وينجب زعترًا ومقاتلين

وساعدًا يشتد في النسيان

ذاكرة تجيء من القطارات التي تمضي

وأرصفة بلا مستقبلين وياسمين»

حدق فخر الدين في قصيدة درويش وهو يفكر في المخيم ومقاتليه. كيف يبدو المخيم؟ هل هو مجموعة من الخيام القديمة التي تهلهلت بفعل المطر والريح أم هو أبنية مبعثرة ومتهدمة مثل تلك التي يجلس وسطها؟ الشمس ساطعة في فناء المنزل، تتخلل الأرض الطينية للفناء، وتنعكس على جدران البيت المشققة، مخلفة لمعة في بقع الألوان

الجيرية التي تكسوها كأنها مرايا صغيرة. في الخارج هدوء، وشوارع صغيرة صامتة في هذا الوقت من اليوم. ذهب الرجال إلى أشغالهم وخلدت النساء إلى بيوتهن. وهو جالس في هذا الفناء بلا حراك، كأنه تمثال من الطين الممتد حوله. لا يفكر، بل يجلس محدقًا في الفراغ وتاركًا العنان لأفكاره الهائمة. يسأل نفسه إن كان ما يفعله مضيعة للوقت ولا يجد إجابة شافية. يسأل نفسه للمرة الألف: لماذا هو جالس هنا الآن؟ ثم ماذا؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ همّام، أخو حسين، ورفاقه الملتحون الصامتون، ونساؤهم المحتجبات خلف الأسوار، يعرفون ما يفعلون. أما هو فجالس بلا حراك، ولا يدري ما سيفعل في الغد. الشمس ساطعة في أسيوط، والحقول لم تعد حقولًا بل بيوتًا، والتراب يملأ شوارع المدينة وهناك تحصينات مقامة حول مديرية الأمن. يفكر في المواجهات التي وقعت بالمدينة عندما اغتيل الرئيس السادات عام ١٩٨١ ويسأل نفسه عن سبب تميز أسيوط في هذا المضمار؟ ثم يتذكر مواجهات دارت بالمنصورة وهو صبي لها علاقة بتنظيم «التكفير والهجرة» وشكري مصطفى واختطاف الشيخ الذهبي. كان صبيًا عندما حدث كل ذلك ولم يفهم منه شيئًا سوى انتشار سيارات نقل الجنود وحصار لمنطقة مكتظة وأصوات إطلاق نار. ثم أناس كثيرون يحكون حكايات عن الشباب «السني» والمواجهات مع الأمن. يفكر فيما يفعله عمه سليم الآن، وليلى ابنته، ويتساءل عن كنه الرجل الذي وافق على الزواج بها وهي حامل من غيره مقابل عشرة أفدنة ثم طلقها بعد الوضع مباشرة. يفكر في أحمد ابن عمه ويسأل نفسه كيف ورث خصال عمه حتى استولى على الأرض والتجارة من أبيه المقعد وجعل ليلى أخته ضحيته الجديدة، تمامًا مثلما فعل أبوه في الماضي. يسير في شوارع أسيوط المتربة، ويجلس في الفناء الطيني المشمس

ويسأل نفسه إن كان الظلم والعدل وراثيين. البيت الطيني مريح للعين والنفس، وفناؤه يحتضن الشمس ويعطي الساكنين حرمًا يتحركون فيه براحتهم؛ فلم لا يبنون البيوت هكذا في القاهرة؟ وفيم كل هذا الزحام؟ يجلس بلا حراك أو يسير بلا هدف ويتساءل أين رفاقه الآن، وكيف حال لبنى التي لم يسمع عنها شيئًا منذ ترك الجامعة، وشيرين التي تزوجت رجلًا لا تكاد تعرفه وسافرت معه. يجلس ويسير وينام ويقوم ويسأل نفسه لماذا يختفي كل من يحب؟

امتلأت نفسه وتحتاج أن تفرغ الزائد منها؛ ربما تكون فائدة هذا الوقت أن يجلس في هذه الشمس ويترك نفسه تفرغ ما فيها من حمولة زائدة، ويعلم الله أن بها الكثير. هو الذي مضى من محنة لأخرى، يبقى في نفسه ما يبقى ويفسح المجال سريعًا لمحنة أخرى قادمة. قال حسين إن الله يختبر عباده الذين يحبهم بهذه المحن، وضحك علي وتساءل بلهجته الأسوانية الساخرة «هو يعني ربنا ما بيحبش حد من عباده غير فخر الدين!» وتدخل أشرف ليمنع حسين وعلي من بدء نقاش مكرر قائلًا شيئًا عن المسيح ومعاناته لم يستمع إليه أيهما. وفخر الدين لا يظن أن ما تعرض له من محن خارج عن المألوف مثلما يقول أصدقاؤه، ولا يعتقد أنها اختبارات من الله، بل ظلم من عباده لأنفسهم ولبعضهم. وما زادته هذه المحن إلا تصميمًا، لكنه الآن متعب. متعب، ومطارد من جهاز مدجج بسلاح وجنود وعتاد انفلتوا من إطار القانون ويبحثون عن رأسه لقطعها. وهو لا يريد اليوم شيئًا سوى بعض الراحة، ويجلس في الشمس بلا حراك في انتظار شيء لا يعرف ما هو، شيء يفعله ويتقوى به كي يعود.

* * *

اتصل نشأت غالب بأشرف وقال له إنه بعد ضغوط واتصالات حصل على وعد بفتح التحقيق في اختفاء فخر الدين، ونبهه إلى أن التحقيق لن يصل لشيء ما لم يكن هناك شهود على استعداد للحديث. أخبره نشأت أن المحقق الذي سيتولى القضية رجل مجتهد وذو خلق، ودعا أشرف لمحاولة إقناع اثنين أو ثلاثة من الشهود بالحديث وإخبار المحقق بما رأوه وسمعوه، مشيرًا إلى أن هذه قد تكون فرصتهم الوحيدة لكشف المؤامرة على حياة فخر الدين.

لم يكذب أشرف الخبر، واتصل بعلي وحسين والتقيا بعد ظهيرة نفس اليوم. لم يتحمس علي، واستبعد أن يشهد أحد من الأهالي، فلو كان لدى أحدهم الشجاعة الكافية للشهادة لتحرك حين جاءت قوات الأمن واحتلت أسطح البيوت التي يعيشون فيها، أو على الأقل لحذر فخر الدين. علي غاضب على أهل الحي ولا يرى فيهم نفعًا يرتجى منذ ذلك اليوم الذي تركوا فيه عيسى أو فخر الدين يقتل تحت بصرهم وسمعهم. لكن حسين قال إنهم لن يخسروا شيئًا بالمحاولة، ورأى أنه يجب تفهم مخاوف أهل الحي وحرصهم. فمن الذي سيحميهم من بطش الحكومة إذا ما خالفوا تعليماتها؟ وإن كانت الحكومة قادرة على سحق فخر الدين نفسه، الذي يفترض فيه أن يدافع عنهم ويحمي حقوقهم، فكيف تريد من أي منهم أن يقف في وجهها؟ ثم إن كل واحد منهم في نهاية الأمر يأمل أن يتحرك شخص آخر غيره، وهذه أمور طبيعية فلِمَ نحمّل الناس ما لا طاقة لهم به؟ دارت المناقشات مرة أخرى، وتدخل أشرف كالعادة بحل وسط، واتفق الثلاثة على أن يقوم حسين بمحاولة أخيرة مع بعض أهل الحي ممن كانوا على علاقة

وثيقة بفخر الدين ودون أن يثير ريبة أحد. وبناء عليه قضى حسين بقية اليوم واليوم الذي تلاه في بين السرايات يتحدث إلى الأهالي.

* * *

في أول نوڤمبر، استدعى محمود بك مدير مكتب النائب العام أحد محققيه، عمر فارس، وألقى إليه بملف وطلب منه دراسته. كان الصداع الذي تسبب فيه هذا البلاغ قد زاد عن الحد المعقول: بلاغات لا تنقطع، وصحفيون يتصلون به يسألونه عن سبب عدم التحقيق في الموضوع، ثم جاءه اتصال من ضابط كبير بجهاز المخابرات اسمه أحمد كمال يستفسر عن أبعاد الموضوع، وانتهى الأمر بنشأت غالب يطارده شخصيًا من أجل فتح التحقيق. شرح محمود بك لوكيل النيابة أن النائب العام قد تلقى بلاغات متعددة للتحقيق في هذا الحادث وأنه مهتم باستجلاء الحقيقة فيه، ولكنه أيضًا أفهمه دون تصريح أن المطلوب هو سرعة الانتهاء من القضية وطيها بشكل مهني وسليم. سأله عمر فارس عن الوقت المتاح للتحقيق، فقال له دون أن يرمش: «ليس أكثر من أسبوع». كان ذلك يعني فعليًا المرور مرور الكرام على القضية، وقد تعمد تكليف عمر فارس بها لما اشتهر به من كفاءة وذكاء ومهنية، فمن ناحية يدرأ بذلك شبهة التلفيق، ومن ناحية أخرى يعلم جيدًا أن شخصًا كفئًا مثله لن يفعل شيئًا ذا قيمة في أسبوع، ونظرًا لأن لديه قضية مخدرات كبيرة ومعقدة يعمل بها منذ شهور وتكاد تشارف على الانتهاء، فإنه لن يضيع وقته في هذه القضية كثيرًا. وقد كان.

فبعد أسبوع بالضبط، وبعد عدة تحريات واستجوابات لم تفض إلى شيء، قرر عمر فارس أن القضية غير متماسكة وحفظ البلاغات،

وسلم الملف لمحمود بك مدير المكتب الذي أكد له أنه كان على ثقة من حسن تقديره. ولم يفهم عمر فارس وقتها المقصود بهذا التعليق الغريب.

* * *

ابتسم حسين وهو جالس قبالة فخر الدين في الفناء الذي تملؤه الشمس.

– همّام بيقول انك بتقعد هنا من ساعة ما تصحى من النوم لحد الغروب ما تتحركش.

– فعلًا.

– كويس، خليك ترتاح شوية.

– ....

– مش محتاج حاجة؟

– لا شكرًا، بس انت سلّم على خالتي مريم وقول لها إني حاجي أشوفها قريبًا إن شاء الله. واتأكد انها مش عايزة حاجة. علي أكيد مخلّي باله منها بس هي بتحب الناس تسأل عليها.

– من غير ما تقول.

– ....

– معلش، بكره تُفرج.

– أكيد فيه طريقة، بس مش عارف ألاقيها. أنا متأكد إن فيه طريقة. أحيانًا بتكون الحاجة قدامك وانت مش واخد بالك، زي المية اللي تفضل تعلى وفجأة يحصل فيضان.

- والله أنا مش خايف غير من الفيضان ده. انت شايف الوضع هنا عامل إزاي؟

- شايف يا سيدي، مش دول أصحابك؟

- لأ، أنا أصحابي أخف من دول شوية. أصحابي بتوع صلاة وصوم ودقون وشريعة. أما دول فداخلين في الغامق قوي؛ دول بيكفروا أصحابي. انت ما تكلمتش مع حد منهم؟

- لأ، أنا مافيش فيَّ حيل وهم برضه مش اجتماعيين قوي. في حد منهم جه اتكلم معايا شوية في الأول وبعدين اختفى، الظاهر كان بيجس نبضي. همّام قال لي إن بعضهم راجع من الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان وشافوا أهوال هناك وما بيتكلموش كتير ومش عايزين شوشرة. واضح أنه استأذن منهم علشان يأويني هنا.

- حصل.

- وما شفتش ولا واحدة ست من ساعة ما جيت. واضح إنهم متزمتين في مسألة الاختلاط دي برضه.

- مضبوط.

- اللي أنا مش فاهمه إزاي كلهم متركزين في منطقة واحدة كده والحكومة سايباهم. أنا ما رضيتش اسأل همّام لحسن يقلق!

- أبدًا. هُمَّ متفقين مع الأمن إنه يسيبهم في حالهم وهُمَّ ما يعملوش أي نشاط.

- فعلًا؟

- فعلًا. هم راجعين مرهقين وواخدين قرار ما يعملوش أي عمليات هنا. وما بيضايقوش الحكومة في حاجة.

- بس دول عاملين مجتمع منفصل هنا، ده كأننا في بلد تانية.

- أحسن؛ مش ممكن يخطر على بال حد انك هنا.

لم يكن فخر الدين مستاءً من إقامته بأسيوط؛ بل على العكس وجد فيها راحة يحتاج إليها بشدة. ما يشغل تفكيره هو الخطوة التالية: ماذا عساه أن يفعل؟ إن كان التحقيق قد أغلق، فمعنى ذلك أن القوى التي تتربص به لها اليد العليا، ومن ثم لن يستطيع العودة للظهور مرة أخرى ولوقت طويل، اللهم إلا لو ظهر ليُقتَل. فأين يذهب؟ وماذا يفعل؟ هل يعيش مختبئًا حتى تتغير الأمور؟ ولكن ذلك قد يستغرق سنوات. فماذا يفعل الآن؟ ذلك ما يشغل فكره وهو جالس هكذا في فناء بيت همّام، يتأرجح بين مراجعة النفس والذكريات وبين هذا السؤال الذي لا إجابة له.

* * *

وهذا هو السؤال الذي يشغل بال حسين وعلي وأشرف أيضًا، وبشأن مصيرهم جميعًا. وبينما كان فخر الدين جالسًا يتأمل انهمك الثلاثة بدفع عمر فارس لإعادة فتح التحقيق بعد أن حفظ الموضوع. معلوماتهم وتحرياتهم عن عمر فارس تشير إلى أنه رجل جاد ومخلص؛ مجتهد وأول دفعته على الكلية، وأبوه رئيس محكمة متقاعد وأمه نشطة في مجال الأعمال الخيرية، وهم من أسرة عريقة في القضاء حيث كان جده وزيرًا للحقانية في الثلاثينيات وقام بإصلاحات هامة في مجال القضاء. عمر فارس غير متزوج

ويقضي وقته كله في المكتب أو في ركوب الخيل يوم الجمعة بنادي الفروسية. يعيش وحده في شقة صغيرة بعمارة قديمة بشارع قصر العيني يبدو أنها كانت ملك أبيه. له صديق يلتقي به مرة كل أسبوع على العشاء لدى كبابجي بمنطقة المذبح، ويزور والديه وأخته المقيمة معهما يوم الجمعة على الغداء، ولا مزيد. حاول أشرف مع نشأت غالب كي يدفع عمر فارس لإعادة فتح التحقيق ولكن نشأت قال له أن ينسى الموضوع. ذهب حسين لمقابلة ناصر مرة أخرى فوجده تائهًا في حديثه وعليه آثار سكر شديد مع أن الوقت كان صباحًا. بذلوا محاولات أخرى مع معارف لهم وآخرين من زملاء فخر الدين القدامى بالجامعة والذين صاروا شخصيات مرموقة في عالم الصحافة والقانون والسياسة، لكنهم كانوا يبتسمون ويقللون من أهمية «اختفاء» فخر الدين مشيرين إلى أن له اختفاءات سابقة عديدة ويؤكدون أنه سيظهر ثانية، كما تهرب البعض من لقائهم. ثم اقترح أشرف فكرة إعداد ملف كبير عن القصة الحقيقية لفخر الدين وإرساله هكذا إلى عمر فارس. في البداية تحسب حسين من عواقب ذلك، لكن الأسابيع تمر والأمل يتضاءل في أن يجدوا طريقة فاعلة لإعادة فتح التحقيق ولاستعادة حياتهم الطبيعية. ظل حسين يعارض الفكرة حتى ناقشها مع فخر الدين نفسه أثناء زيارته السريعة له في أسيوط. وافق فخر الدين، وبدأ الثلاثة في إعداد هذا الملف.

وضعوا في الملف مجموعة مختلفة من الأشياء: مستندات تخصه وعائلته وأوراق عن الميراث الذي نهبه عمه، بعض من يوميات كتبها فخر الدين وهو في قريته حين اكتشف العار الذي يستمرئه أهله الأقربون، خطابات تبادلها مع رفاق له في المدرسة ووعيهم يتفتح في

ظل القهر الفكري والنفسي لنظام التعليم المدرسي، وصور وقصص قصيرة وأشعار كتبها وهو في الجامعة، قصاصات من خطابات تبادلها وشيرين قبل أن تتركه وتتزوج، أوراق له ولأصدقائه عن صدماتهم المتتابعة من القمع في الجامعة وخيانة الرفاق وبطش الأمن، لمحات عن فترة تجنيده وإرساله ورفاقه للمشاركة في الحرب على العراق عام ١٩٩١ ومحاكمته ميدانيًا في حفر الباطن إثر رفضه القتال، ثم تفاصيل عن قصة فصله من المكتب الذي كان يعمل به وإيقافه عن العمل من قبل النقابة وشبكة المحامين التي أنشأها، حتى تفاصيل يوم محاولة قتله، والظرف الفارغ عيار ١٦ مل الذي التقطه فخر الدين من جانب جثة عيسى.

وضعوا ذلك كله في مظروف كبير وانتظروا حتى انتهى عمر فارس من الترافع في قضية المخدرات الكبرى التي كان منشغلًا بها، والتي خسرها وخرج المهربون جميعًا من قاعة المحكمة يبتسمون سعداء بالبراءة، وفي اليوم التالي أرسلوا هذا المظروف لبيته. وجلسوا ينتظرون.

* * *

قضي الأمر..

قال نشأت غالب لأشرف إن عمر فارس قابله وأخبره أنه حاول إعادة فتح التحقيق في القضية ولكن رؤساؤه رفضوا بحزم. وجده نشأت مشوشًا، وادعى أن فخر الدين زاره في الحلم، وأنه تلقى بعد هذه الزيارة مباشرة مظروفًا به مجموعة من الأوراق الممهورة بتوقيع فخر الدين وعلبة بها ظرف فارغ لرصاصة عيار ١٦ مل. وكان رأيه أن عمر فارس يمر بفترة صعبة بعد خسارته لقضية المخدرات الكبيرة

بسبب خطأ في الإجراءات. ربما يكون ذلك قد ساهم في طلبه الحصول على إجازة طويلة قرر أن يقوم خلالها بالبحث في موضوع فخر الدين بنفسه. كرر نشأت على مسامع أشرف أن ما يفعله عمر فارس إنما هو أمر شخصي، وأن «تحقيقه» هذا ليس تحقيقًا ولا صفة رسمية له، ولن تكون له نتيجة ملموسة سوى إبراء ذمة عمر فارس نفسه أمام نفسه على الأكثر، وأن قيامه شخصيًا بترك المكتب على خلفية هذه القضية أبلغ دليل على أن طريق التحقيق مغلق بالضبة والمفتاح، وعليهم الآن أن يجدوا طريقًا آخر.

لكن أحدًا منهم لا يرى طريقًا آخر. اعترف فخر الدين لـ«حسين» أنه لم يهتد لحل مفيد، لكنه في نفس الوقت لا يرغب في قضاء السنوات القادمة جالسًا يتشمس. وليس هناك تهمة رسمية موجهة له ليسلم نفسه للشرطة ويواجهها. ولا يعرف ما يمكنه فعله الآن سوى أن يعود ويدعهم يقتلونه أمام الناس كما أراد منذ البداية. اقترح علي وأشرف عليه أن يختبئ لفترة أطول، بعيدًا عن القاهرة منتحلًا هوية ابن خاله عيسى النجار. وهنا صاح حسين «وجدتها».

– هو مش عيسى عنده منحة لتحضير الدكتوراه في فرنسا؟

لم تكن هذه الفكرة الجريئة قد خطرت على بال أي منهم. أيدها أشرف وعلي فورًا، لكن فخر الدين لم يستسغ الأمر، فذلك أشبه بالاستيلاء على حياة ابن خاله. لكن الخيارات المتاحة لم تكن كثيرة، ولم يكن من المعقول أن يقضي على حياته دونما جدوى، سواء بالاستسلام لمن يريدون قتله أو بالاختباء لسنوات قد تطول والحياة الذليلة التي تنتج عن ذلك. كان فخر الدين محاميًا لامعًا

ودارسًا محبًا للقانون، وتلك فرصة لتمضية الوقت بعيدًا عمن يريدون قتله في نفس الوقت الذي ينمي فيه نفسه ويطورها. ولديه الأوراق جاهزة، وهناك بعض الشبه بينه وبين ابن خاله، ولا أحد يدقق كثيرًا في الصور القديمة للشهادات الدراسية أو لجوازات السفر.

– العقبة الوحيدة هي المطار، وكل ما كنت هادي وواثق من نفسك كل ما الأمور عدت بسلام.

ما زال يجد في الأمر غضاضة، لكن ذلك هو السبيل الوحيد المتاح أمامه. فلن يجلس بلا حراك في انتظار تحقيق عمر فارس، والذي لم يعد تحقيقًا مثلما قال نشأت غالب، بل سعيًا شخصيًا من إنسان يريد أن يفهم نفسه والحياة من حوله – نتمنى له التوفيق مثلما قال حسين. سيرحل فخر الدين إذًا. سيرحل حتى يعود.

جلس الأصدقاء في كافتيريا المطار ينتظرون مرور فخر الدين. أشار لهم من خلف الحواجز بعد وزن الحقائب والحصول على بطاقة صعود الطائرة. يتوجه الآن للجوازات وهم يحبسون أنفاسهم. لن يروه من هنا. اتفقوا معه على أن يمر مباشرة لصالة الترانزيت ولا يحاول العودة للتلويح لهم حتى لا يخلق مناسبة لأحد أن يسأله عن أي شيء. بعد أن يختم الجواز سيعبر مباشرة لصالة الترانزيت ويتصل بمنزل أشرف من مكتب التليفونات ويسأل أم أشرف إن كان ابنها بالبيت. إن حدث مكروه لن يتصل. كل خمس دقائق يقوم أشرف ويتصل بالمنزل. وبعد نصف ساعة قالت له أمه إن فخر الدين قد اتصل يسأل عنه.

ظل الأصدقاء الثلاثة جالسين في الكافتيريا حتى أقلعت الطائرة.

– حانعمل إيه دلوقت؟

- مش عارف، بافكر أروح أسيوط عند همّام أخويا.

- وتنضم للجماعة دول؟

- مش أحسن من القعدة؟ انت حاتعمل إيه يا سي علي؟

- ولا حاجة. حاعمل إيه يعني. حاستنى فرج ربنا.

- وانت يا سي أشرف؟

- والله مانا عارف. متهيأ لي أخش الدير أحسن.

* * *

الفصل الثالث

سان دوني

في المنحنى، تهتز عربات المترو وتئز عجلاته ويعلو صوتها. يزيد المترو من سرعته وهو يلتف داخل النفق وكأنه تحول لقاطرة رعب في مدينة الملاهي. لحظات ثم تهدأ سرعته شيئًا فشيئًا حتى يتوقف في «ميدان كليشي». هنا ينزل الركاب البيض والسياح الذاهبون للملاهي الليلية القريبة من الميدان، ويبقى سكان الضواحي من السود والعرب. جلس فخر الدين أخيرًا وأخرج كتابه الصغير. يكره المترو، من أول يوم وصل فيه باريس. طول عمره يسمع عن مترو الأنفاق، وكان تواقًا لرؤية هذا الشيء الذي لا بد أنه مثال في النظام والأناقة. عندما وصل المطار بحث عنه، وبعد صعود وهبوط وجر لحقائبه الثقيلة وسط نظرات المسافرين المستهجنين لهذا الذي يسد الطريق على السلم الكهربائي الضيق، وجد المترو. اندس فيه ووجد مكانًا وجلس. انطلق المترو بسرعة وهدوء يتفقان وسمعته، ثم دخل النفق، وأصبحت رائحة الهواء خانقة وكريهة. في البداية

ظن أن هناك مشكلة في ذلك المكان - ربما منطقة مجاري أو عطل ما، وأنهم سيتجاوزون تلك الرائحة. لكن المترو لم يتجاوزها منذ ذلك اليوم وحتى آخر مرة وضع فخر الدين قدمه في هذه العربات الحديدية البغيضة.

في الطريق من المطار، شعر بنظرات الركاب تستهجن كثرة حقائبه. تمتم رجل بشيء لم يفهمه، ثم زعقت في وجهه امرأة عجوز سائلة إياه إن لم يكن يرى أنه يضايق الناس، ورحلت قبل أن يرد وهي تزفر بيأس. ومن يومها وهو يلقي بنفسه في المترو في الصباح الباكر وفي المساء وهو يدعو الله أن يجد مكانًا منعزلًا يجلس فيه بعيدًا عن بقية الركاب، ويحاول أن يقرأ في كتابه في هدوء. لكن الحرب الصامتة بين أعراق الركاب كانت تمنعه من التركيز. يخلو مقعد بجوار الراكب الأسود الذي يستمع لموسيقى صاخبة تتجاوز السماعات التي يضعها في أذنيه، فتنظر الراكبة الشقراء الواقفة إلى المقعد الفارغ وتمتنع عن الجلوس فيه. في المحطة التالية، يغادر صاحب الموسيقى فتجلس المرأة في المكان عينه على الفور. المرأة المحجبة التي تحمل أكياسًا كثيرة عليها علامة السوبر ماركت الرخيص تحاول جمع أكياسها أمام قدميها، والراكب بجوارها يمتعض في كل مرة تلمسه فيها أحد الأكياس. المراهقان اللذان يتبادلان القبلات الحارة يتظاهران بأنهما لا يريان أحدًا، والمحيطون بهما مشغولون بالتظاهر بألا شيء غير عادي يحدث أمامهم. ثم تدخل المرأة الرومانية وهي تسحب معها طفلة في السادسة وتستعطف الركاب بأنها فقيرة من رومانيا بلا أب أو عائلة وتحتاج للمال لعلاج ابنتها من شتى الأمراض، وتمضي من عربة لعربة دون أن يرى فخر الدين أحدًا يعطيها فرنكًا واحدًا ولو

على سبيل المزاح. ثم يأتي الموسيقي الأشعث وجيتاره الصاخب ورائحة الكحول تفوح منه، فيعزف ويغني ويصرخ ويجمع الفرنكات ويمضي. راكب عربي ينظر إليه في عينيه وهو يحاول التأكد من هويته، وكأنه يسأله إن كان معه أو عليه. وسائحة أمريكية تستطلع حولها محاولة التيقن مما إذا كان الجالس أمامها أجنبيًا جيدًا أم أجنبيًا مخيفًا. ثم المرأة التي تنز نظراتها وحدة، وتلك التي تعاني من الاكتئاب، وغيرها وغيره حتى يصاب بدوار. يعود إلى كتابه، ثم يرتطم بفخذه الراكب الذي جلس لتوه والذي يجلس مفرجًا ساقيه لدرجة لا يتسع لها المقعد. يتقلص فخر الدين في جلسته، ويحاول ألا يرفع عينيه من الكتاب.

وصل المترو إلى نهاية الخط، وخرج فخر الدين مسرعًا ليجد كاتدرائية «سان دوني» شامخة عند رأس سلم المترو. أحكم إغلاق معطفه حول رقبته وابتسم وهو يتذكر خالته مريم، تزعم أن عائلتهم كلها تصاب بالبرد من رقابهم وتصر على أن يغلق زرار قميصه عند الرقبة، حتى في فصل الصيف. رائحة «المرجيز» تملأ الساحة أمام الكاتدرائية. توقف فخر الدين عند مطعم «أمين» واشترى سندوتشًا كبيرًا مملوءًا بهذه المقانق المغربية التي تذكره بسجق «صابر» في بين السرايات. الشارع يعج بمحلات تبيع اللحم الحلال. نساء ممتلئات يغطين شعورهن بإيشاربات ملونة يرحن ويجئن وهن يسحبن خلفهن حقائب بلاستيكية كبيرة ذات عجلات لا تسير بنعومة على بلاط الشارع المربع. محلات بقالة تفوح منها روائح المنتجات العربية من الجبن الدمياطي والملوخية إلى الكوسكوس والشطة التونسية. مجموعة من الشباب الصغير واقفة في حلقة على

الرصيف أمام مدخل الكاتدرائية يراقبون شابين يتزلجان على ألواح خشبية بعجلات ويتقافزان بين المقاعد المتناثرة على الرصيف. عدل فخر الدين عن الجلوس هناك وتناول طعامه. أغلق الكيس على السندوتش ووضعه في حقيبته ومضى نحو محطة الحافلات.

تستغرق المسافة قرابة الساعة والنصف بين الشقة التي يقطن فيها فخر الدين والجامعة. عند وصوله باريس، وجد أن المؤسسة المانحة قد رتبت له الإقامة في المدينة الجامعية، لكن عدة ليال في برج المدينة الجامعية المنعزل أقنعته بضرورة الانتقال لسكن خاص. لم يتصور أن يجد مدينة جامعية أشد وحشة من تلك الكائنة بأبي قتادة بالقاهرة. في كل مرة يدخل غرفته يشعر وكأنه في زنزانة داخل غواصة ضائعة. الغرفة باردة، وعارية الجدران وكئيبة. لم يستطع أن يقرأ فيها أو يجلس أو يفعل فيها أي شيء؛ تلفظه كلما دخلها، وكأنها رحم يتقلص ويريد طرده. يعود للغرفة متأخرًا بحيث ينام على الفور. وهكذا تحولت الغرفة إلى فراش كبير معلق في الهواء في مبنى كئيب، وأصبح بلا مأوى يلم شتات نفسه طيلة النهار. يتسكع في الحديقة المجاورة أو حول مباني الجامعة وهو يحاول القراءة أو الاستذكار، لكنه يحتاج لبيت يرتاح فيه، ولو قليلا.

ثم جاءت أصوات مطارحة الغرام. كان الصوت قريبًا وكأن أصحاب الأمر معه في الغرفة؛ لم يقتصر الأمر على سماع الصراخ الذي يأتي في النهاية، بل شمل المناجاة والتأوهات التي تسبق ذلك، وحتى صوت القبل. لم يكن يعلم - حتى تلك اللحظة - أن التقبيل له صوت. في أول مرة سمع هذه الأصوات قفز من الفراش وهو يظن أن معه أحدًا بالغرفة، وظل ينظر للحائط في عدم تصديق. فكر

أن يصدر صوتًا للفت نظر العشاق إلى أن هناك من يسمعهم، لكنه خجل أن يقطع عليهم ما بدا وأنه غرام ملتهب. في الصباح، وفي كل صباح تال لمدة أسبوعين حاول أن يجد ساكن الغرفة المجاورة ليلفت نظره لقضية انتقال الصوت، وأيضًا ليرى هذا العاشق الجبار الذي لا يكل ولا يمل. لكنه لم يفلح في العثور على البطل. كل يوم يرى وجوهًا جديدة في الممرات وفي الحمامات المشتركة في وسط الطابق حتى استسلم.

ثم جاءت البرودة التي تقاوم كافة أشكال التدفئة، حتى إنه كان يرتدي كل ما معه من ملابس في الليل. وكانت هناك أصوات الرياح والأبواب التي تنخلع من صفق الريح لها. ثم الشعور القاتل بالعزلة والصمت؛ حين يعبر الحديقة الصغيرة التي تفصل الشارع عن مباني المدينة الجامعية، يشعر وكأنه يعبر حدود العالم الحقيقي إلى غواصة موجودة في كابوس لا يملك الفكاك منه.

سأل في الجامعة عن كيفية البحث عن سكن خاص فأشارت عليه الموظفة المتشككة بأن يسأل في «مركز الإسكان»، ولم تنس أن تلفت نظره إلى أن مخصصاته الشهرية لا تتجاوز أربعة آلاف فرنك بما لا يترك له هامشًا كبيرًا لمواجهة الإيجارات الباريسية المرتفعة. ذهب إلى المركز حيث أعطوه قوائم طويلة بعناوين وتليفونات ومواصفات غرف وشقق من كل نوع. أنفق أسبوعًا في تفقد الغرف التي يقل إيجارها عن ألفي فرنك – وهو المبلغ الذي يستطيع استقطاعه، وهي إما غرف في بيوت أو غرف «الخادمة» في الطوابق العليا حيث ينحني السقف في نصف الغرفة ولا يمكن للساكن الوقوف إلا في النصف الآخر، أو في فناء الدار من الناحية المظلمة، أو غرف أخرى

منحشرة على السلالم أو بجانبها أو تحتها، وكلها بدون حمام. يرى هذه الغرف ويفكر في توفيق الحكيم وعصفوره الآتي من الشرق. في البداية ذهب إلى «مونمارتر» بحثًا عن سكن، لكن ابتسامات مكاتب العقارات الساخرة أفهمته بسرعة أن يبحث في مكان آخر.

مع تزايد يأسه من العثور على سكن ملائم أشار عليه صديقه محمد البحيري، وهو أحد العارفين ببواطن باريس، بأن يبحث في ضاحية «سان دوني»، حيث وجد شقة صغيرة جدًا في إحدى المشروعات السكنية التي أقامتها الحكومة والتي يسمونها «الإسكان ذو الإيجار المعتدل». الشقة مؤجرة من الحكومة إلى عائلة جزائرية، لكن العائلة سافرت ولن تعود قبل عامين، وتبحث عمن يستأجر شقتها من الباطن بمبلغ أكبر قليلًا من الإيجار الأصلي دون إخطار السلطات حتى لا يفقدوا حق تأجيرها. أكد له محمد البحيري أن هذا أمر متعارف عليه خاصة بين العائلات الفقيرة من أبناء المهاجرين والذين يريدون الاحتفاظ بهذه الشقق لحين عودة ذويهم. وتحت ضغط الحاجة، انتقل للسكن فيها.

جاءت الحافلة؛ شبه خاوية في هذه الساعة. السائق، شمعي الوجه، لا يرد التحية ويرقب الركاب في توجس. طلب من أحد الشباب من ذوي الملابس شديدة الاتساع والموسيقى الصاخبة أن يريه تحقيق شخصيته وهو يمسك ببطاقة اشتراك المترو الخاصة به. الشاب يعترض بحركات واسعة من ذراعيه وجمل غير مكتملة ولكنة تميز سكان الضواحي، والسائق ينتظر في لامبالاة أن ينتهي من اعتراضاته ثم يكرر طلبه في رتابة من لم يسمع حرفًا واحدًا منها. أخرج فخر الدين المرجيز وبدأ في الأكل وهو جالس في مقعده

بوسط الحافلة، وأخذ ينظر من النافذة إلى مباني المنطقة الصناعية التي تمر فيها الحافلة. الشوارع مقفرة، والمباني تبدو وكأنها كلها مخازن ومستودعات. بعض المحلات الصغيرة التي تبيع السجائر تظهر من وقت لآخر. مركز الشرطة، ثم شريط للسكك الحديدية وجسور تؤدي للطريق الدائري الملتف حول باريس. جسور من الأسمنت، ثم حوائط من الأسمنت، وشوارع من الأسفلت وأرصفة من الأسمنت. الشيء الوحيد الملون هي تلك الرسوم التي رشها شباب على الجدران باستخدام علب الألوان المعدنية. مرت الحافلة من أسفل الطريق الدائري. دق جرس صغير. توقفت الحافلة لأقل من دقيقة ثم استأنفت. مرت أمام المركز التجاري ودار السينما الصغيرة بمصابيحه النيون التي تضيء حروف العلامة التجارية وتزن طول الوقت؟ هناك حرف مظلم فيها، ومتسولة الحي تتسكع حول المركز وتدفع أمامها إحدى عربات التسوق. صناديق الخضار والفاكهة الفارغة متراصة بانتظار عربة القمامة. وشباب صغار متجمعون في ساحة المركز يتقافزون بألواح التزلج الخشبية دون حماسة. شد الحبل الموازي للنافذة واستمع كالعادة لصوت الجرس الصغير. لحظات وتوقفت الحافلة. هبط درجة على السلم فانفتح الباب. خرج.

عندما ركب فخر الدين حافلات باريس لأول مرة وقف على درجها الخلفي ينتظر أن ينفتح الباب فلم ينفتح. نادى على السائق فلم يرد. تحركت الحافلة وغادرت المحطة وهو ما زال بالداخل. شق طريقه إلى السائق وقال له إنه كان يريد الهبوط في المحطة ولكنه لم يفتح الباب له. لم يلتفت السائق ولم يرد. كرر فخر الدين الملاحظة لكن السائق واصل الصمت. وقفت الحافلة في المحطة التالية فأسرع

فخر الدين خارجًا من الباب الأمامي رغم اعتراضات السيدة العجوز التي كانت تريد الصعود. بعد ذلك قال له زميل عربي بالجامعة إن باب الحافلة لا ينفتح إلا إذا وضع كفه على زجاج الباب. ولم يفهم فخر الدين لماذا لم يقل السائق له هذا.

دفع باب العمارة ودلف للمدخل الخالي. ضغط على زر المصعد وانتظر. اللون الأحمر الذي يسود حديد المدخل والمصعد يكسر قليلًا من جهامة المدخل. انفتح باب المدخل ودخل ساعي البريد متجهًا نحو صناديق البريد. تبعه فخر الدين ليرى ما إذا كانت له خطابات. سمع باب المصعد ينفتح وينغلق وشخص بداخله يسب المجهولين الذين ضغطوا على زر المصعد بلا سبب. تمنى يومًا جيدًا لساعي البريد فرد الساعي التحية دون أن يرفع نظره من الصناديق التي يضع فيها الخطابات. سكت فخر الدين وانتظر. ساعي البريد يتمتم أرقام الشقق وهو ينظر للصناديق. سمع فخر الدين رقم شقته فقال:

- نعم، هذا أنا.

تجاهل ساعي البريد يد فخر الدين الممدودة ووضع الظرف في الصندوق، وتبع ذلك بوضع بقية الخطابات في الصنايق الأخرى ثم مضى. أخرج فخر الدين مفتاحه وهو يهز رأسه غير مصدق وأخذ خطاباته وأغلق الصندوق ومضى. نظر للخطاب وهو ينتظر المصعد؛ من ناصر. أخيرًا خطاب من صديقه القديم. سيصعد الآن لشقته الصغيرة ويدفئها ويعد شايًا ويجلس ليقرأ الخطاب. تأتي خطابات ناصر كنفحة من الدفء في هذا الصقيع العاطفي. كل شيء في الخطاب يحرك قلبه: خط يد ناصر على الظرف، طابع

البريد بألوانه الباهتة وإخراجه البدائي، الظرف المزين على الحواف بالأزرق والأحمر والمكتوب عليه دون داع «بريد جوي»، حتى رائحة المظروف وملمسه. يحاول أن يتمهل في قراءة الخطاب حتى يطيل وقته معه، لكن دائمًا ما ينتهي به الأمر لالتهام كلماته. انفتح باب المصعد ودخلت شقراء طويلة، ترتدي رداء أسود قصيرًا وجوربًا ثقيلًا من نفس اللون وطاقية صوف تغطي قسطًا من شعرها. ابتسمت له فارتبك، أول مرة تبتسم له امرأة في باريس. سألها أي طابق تريد وضغط على الرقم الذي أشارت به. فكر لحظة ثم سألها إن كانت تسكن بالمبنى فنفت وقالت إنها باحثة من الشئون الاجتماعية فابتسم وضحك في أعماقه. تمنى لها التوفيق في عملها وخرج.

جلس على مقعد بجوار الشرفة الصغيرة التي وضع بها نبتة صغيرة. باب الشرفة الزجاجي مغلق بإحكام حتى لا يتسرب منه البرد. شغل المدفأة الكهربائية وجلس أمامها وكوب الشاي يتصاعد منه بخار محبب. أمسك بالخطاب مرة أخرى وابتسم له وكأنه يلقي بالتحية على صديق عمره، وفتح المظروف.

القاهرة في ٣٠ مارس

عزيزي عيسى

عرفت أنك في باريس، وكانت مفاجأة لطيفة. أشكرك على إخباري، وأعدك بألا أنشر الخبر مثلما تقول في خطابك. لا تقلق، فالوكالة لم تعد تنشر أخبارًا منذ زمن. وحتى حين تفعل، لا يلتفت أحد لما نقوله. كنت أنوي أن أكتب إليك خطابًا طويلًا، وأردته دافئًا وعاطفيًا وقويًا. أردت أن أقول لك كم افتقدك منذ رحيلك، رحيلك الأول ورحيلك الأخير ورحيلك الدائم. أردت أن أقول

لك إني لم أتعاف بعد لا من غيابك القديم ولا من مقتلك المزعوم الذي أوجعني (وأريد الآن أن أذهب وألكم حسين صديقك في وجهه). والأهم من ذلك أني لم أسامحك على أيهما، وربما لن أفعل قط. وأعددت الكلمات في ذهني وأنا في طريقي اليومي من الموت في الوكالة الغبية إلى الموت وحدي في شقتي غير العامرة إلى الموت عشقًا في سحر التي تأتي وتعود ثم أنساها حين تذهب. أردت أن أقول لك أشياء كثيرة، ولكني ما إن وصلت للمنزل حتى فقدت الرغبة في أن أقول أي شيء. جلست على لوح الكتابة الذي تسخر منه، وأمسكت بالقلم وظللت أحدق في هذا اللوح الخشبي الأبيض وأسأل نفسي لماذا احتفظت به كل هذه السنوات؟ ولماذا احتفظت بك؟ وبي؟ وبكل هذه الترهات التي أعيش فيها. قمت وأعددت لنفسي كأسًا من الويسكي بدون ثلج. وكان مذاقه مريعًا، لأنه من هذا النوع المحلي الذي ربما يصنعونه تحت السلم في البناية المجاورة (هل حدثتك عن البناية المجاورة وما يدور فيها؟ ربما لا، لا يهم). أريدك أن تعود في زيارة كي تحضر لي ويسكي حقيقيًا، ونبيذًا (مع أني لا أحبه حقيقة) وبنًا فرنسيًا لأصنع لنفسي قهوة على تلك الماكينة التي أرسلتها لي مع صديقك الذي حمل لي الخطاب وفسره لغبائي - والذي لم أعد أذكر اسمه. لكن ماكينة القهوة في حقيقة الأمر عديمة النفع لغياب أي بن هنا غير ذلك الذي يشتريه لي عم محمد فراش الوكالة.

ليس لي رغبة حقيقية في الحديث، وليس لدي ما أقوله، لكن لي رغبة في الكتابة إليك.

فكرت فيما اقترحته في خطابك من سفري. لكني لست واثقًا أني أريد الرحيل. إلى أين أرحل؟ إلى باريس أيضًا؟ وماذا أفعل هناك؟ لا أريد الدراسة ومللها، ولا أتحدث الفرنسية، والفرصة الوحيدة

لي أن أذهب هناك مع وكالة للأنباء، ولكني لست صحفيًا حقيقيًا بل صحفي ورق. هذا ما لم يفهمه صديقك حسين. قلت له إني لست صحفيًا بل مترجمًا. كان احتقاره لي واضحًا رغم محاولته أن يتظاهر بغير ذلك. وكنت في الحقيقة أريد أن ألكمه من ساعتها (والآن أريد ذلك أكثر – هل كتبت هذا من قبل؟). هذا الذي يظن أنه بالإمكان فعل أي شيء. أكره هذه البراءة الممضة وهؤلاء المتحمسين الذين عينوا أنفسهم مندوبين للضمير الكلي. وأسأل نفسي أحيانًا إن كنت أكرهك أنت أيضًا لنفس هذه الأسباب. ولكني لا أكرهك مثلما لا تكرهني أنت لاستسلامي لهذا العفن الذي أعيش فيه.

أنا جزء من هذا العفن، وأنا أحبك لأنك تدرك ذلك وتحبني رغمًا عنه.

والآن أشعر ببعض الخدر يتسلل إلي يدي التي تكتب. لم أشرب سوى عدة كئوس ولكن. ولا أدري كالعادة كيف أنهي هذا الخطاب الأبله وما إذا كنت سأرسله. لو وصلك، فاعلم أني قد أرسلته، وأني أحبك، والسلام.

ناصر

* * *

جاءت العودة للدراسة كطوق نجاة لفخر الدين من المصائب التي ضربت حياته مؤخرًا. دراسة القانون من أحب الأشياء لقلبه، وفي أعرق جامعات فرنسا التي هي منارة الدراسات القانونية. شعر أن فرصة نادرة أتيحت له كي يبدأ من جديد. فوضع جانبًا كل ما حدث واعتبره ماضيًا مؤلمًا لن يعيقه عن المضي قدمًا. ذهب للجامعة

بقلب مفتوح ورغبة عميقة في التعلم. متعطش للدراسة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وعندما يجلس في قاعة الدرس يشعر أن الكلمات والأفكار تدخل روحه وتسد فراغات فيها وتنير منها زوايا وتروي جفافًا. اكتشف كم هي سطحية معرفته بالقانون وعلومه، لقد مرت أيام الدراسة بجامعة القاهرة سريعًا، وكان الزحام، والضغوط، وقلة الموارد العلمية والكتب، وغياب النصوص الأصلية لمن أسسوا لعلوم القانون، كل ذلك جعله لا يحصل من المعرفة إلا قشورها. والآن انفتحت أمامه نوافذ لم يكن يعلم أنها موجودة، ولم يكن يشغله إلا تحسين لغته الفرنسية كي يتمكن من تحصيل كل هذا العلم المتاح.

لكنه أيضًا يشعر كمن يسبح في المحيط دون بوصلة. لم يفكر في موضوع لرسالة الدكتوراه قبل وصوله، وكيف كان يمكن له أن يفعل ذلك، اللهم إلا لو كتب عن إنكار العدالة والتصفية الجسدية! عينوا له مشرفًا بناء على المشروع المبدئي الذي كان عيسى قد أرسله مع أوراق التقديم، وهو موضوع لا هو ولا عيسى يعرفون عنه شيئًا ولكن نصحه به أستاذ بالكلية كي يجهز أوراقه في الوقت المتاح. التقى بالمشرف وحاول أن يشرح له ما يواجهه، لكن المشرف لم يكن لديه الكثير من الوقت، وقال له بجفاء إن تحديد التوجه هو مهمة الطالب وليس المشرف:

- سيد نجار: ما لم يكن المرء يعرف أين يريد أن يذهب فمن الصعب مساعدته على الوصول. ومهمتي هي مساعدتكم وليس الحلول محلكم.

- أفهم ذلك يا سيدي، وأعلم أن هذه مشكلتي أنا، ولكني كنت أطمع في نصيحتكم كي أتعامل مع هذه المشكلة وأستطيع تحديد الهدف من البحث جيدًا كي لا أضطر لتغييره في المستقبل.

- لن تكون هناك تغييرات في المستقبل. هذه أول نصيحة. فكل تغيير سيكلفكم شهورًا طويلة من العمل الدؤوب والليالي البيضاء. هذه ليست جامعة تأتي إليها لتحصل على شهادة سهلة. هناك جامعات أخرى تفعل ذلك، ولكن ليس في السربون، وليس في القانون.

- نعم، بالتأكيد. أنا لم أقصد..

- قولوا لي بالتحديد كيف تريدونني أن أساعدكم؟

- مثلما قلت لكم؛ أشعر من قراءاتي المبدئية أني أسبح في المحيط وأريد أن تدلوني على ما يمكنني التركيز عليه.

- اسمعوني يا سيد نجار. أولًا: أن تسبحوا في المحيط لهو أمر يجب أن تعتادوا عليه. العلم هو سباحة في المحيط. ثانيًا: أنا مشرف على رسالتكم للدكتوراه ولست معلمكم الخاص، إن كنتم لم تدرسوا جيدًا في بلادكم فربما يتعين عليكم أن تعيدوا النظر فيما أنتم بصدده. مهمتي كما قلت أن أتأكد من أن ما تكتبونه في رسالتكم ليس كلامًا فارغًا، وأنكم لا تعيدون اختراع العجلة، وأن بحثكم لا يجهل جانبًا مهمًا من العلم أو يحيد عن الصواب في التفسير. هذه هي مهمتي، وليس رعاية شئونكم الخاصة. هل هذا واضح لكم؟

- نعم.

– جيد. الآن يجب أن تكملوا سباحتكم في المحيط الذي تختارونه، على أن تأتوا إلى هنا بعد شهرين وتخبروني بما سيكون عليه اتجاه سباحتكم، وسنرى ساعتها ما يمكننا فعله.

ضحك دميان كثيرًا عندما قص عليه فخر الدين تفاصيل لقائه بأستاذه. قال له إن هذا هو أسلوب التخاطب العادي بين الأساتذة والطلبة في باريس.

– لا تتوقع أي مساعدة. كل شيء منوط بك وبجهدك. هو لا وقت لديه ولا طاقة أو حتى اهتمام ليتبناك.

– لا أريده أن يتبناني لا سمح الله، لكن بعض التوجيه لن يقتله!

– الحقيقة أنه كان كريمًا معك، اسأل بقية الدارسين عن لقاءاتهم المماثلة بأساتذتهم. احمد الله أنه لم يقل لك إلى أي حد يعتقد أنك جاهل وأخرق ومضيعة للوقت.

– وأيضًا على أنه لم يصفعني!

– أنا لا أمزح. لا مجال هنا لتدليل الطلبة. النظرة السائدة هي أنه على الطلبة والدارسين أن يتسلقوا جبل العلم بينما يلقي الأساتذة عليهم القاذورات.

– ألا يمكنك أن تجد مثالًا أفضل قليلًا؟

– حسن، فكر فيها على أنها مسابقة لتخطي الصعاب. أنت تركض وتتسلق العقبات والأساتذة يلقون لك بمزيد من العقبات والأحاجي لتحلها، وإذا نجحت في اجتياز كل ذلك فمعنى هذا أنك تستحق الجهد، وإن لم تنجح فمعناه أنك لا تستحق الجهد من أساسه.

- أي جهد؟ ثم ما قصة الحديث بصيغة الجمع هذه؟ أشعر وكأنه يتحدث لأناس آخرين.

- على العموم إذا احتجت شيئًا فأنا جاهز للمساعدة.

دميان يوشك على الانتهاء من رسالة الدكتوراه، وإن كان يبتسم عندما يسأله أحد عن موعد الانتهاء من الكتابة ويقول إنه يفضل صيغة «على وشك الانتهاء» لأنه لا أحد يعلم ما يعنيه ذلك بالضبط. قصير القامة ونحيف، حاد الذكاء وشديد اللطف، مبتسم دائمًا ويلقي بالتحيات يمينًا ويسارًا، وإن كان كثير من تحياته لا ترد. ودميان متفوق في دراسته، وحظي بأفضل ما يمكن أن يقدمه التعليم الفرنسي لشاب من أبناء النخبة، وذلك بفضل مال ونفوذ أبيه. فهو من عائلة لبنانية أرمنية الأصل، وإن كان قد قضى معظم حياته في فرنسا حيث استقر والده منذ الحرب الأهلية الأولى في ١٩٥٨. قال دميان إن والده فهم مبكرًا أن هذه الأشياء عندما تبدأ لا تنتهي، وأنه ما دام اللبنانيون قد بدأوا في قتل بعضهم بعضًا فلن يتوقفوا، وهكذا رحل. وُلد دميان ونشأ بباريس مع أخيه وأخته، وإن كان كما يقول قد احتفظ بلبنانيته في المنزل الذي يتحدثون فيه بالأرمنية والعربية والفرنسية معًا، ويأكلون نفس الطعام الذي كانت الأم تعده في منزلهم بالأشرفية ببيروت. وليس لدميان مشكلة مع الحياة في باريس. الأم هي التي تشتكي من افتقادها للحياة البيروتية؛ فلا شيء في باريس يماثل نظيره في بيروت، لا الطعام ولا الهواء ولا البحر طبعًا، ولا الذوق العام ولا جمال النساء ولا النظافة ولا حتى مذاق الفاكهة والخضار، خاصة النعناع والليمون. وليس لدى دميان أوهام حول هويته؛ فهو لبناني وأرمني وفرنسي أيضًا، كما يردد.

ولكن دميان، اللطيف، المرح، الذكي، المتفوق، ابن العائلة الغنية، وصاحب الثقافة المتنوعة، لا أصدقاء له بين الطلبة العرب، لا أحد منهم يحبه أو يتحدث معه، وحتى فخر الدين لا يحب أن يقترب منه كثيرًا.

- لأني «مخنث». أليس هذا هو اللفظ الذي تستخدمونه بالعربية فيما بينكم حين تتحدثون عني؟ لا تنزعج، فقد قيل لي عشرات المرات، وقيل لي ما هو أسوأ. لقد تعودت على رفض الآخرين لي. عندما صارحت أبي بميولي وأنا في العشرين سكت لحظة ثم قال: «يا للهول، إن أمامك حياة من الوحدة». لم أفهم وقتها ماذا يعني بذلك، لكني فهمت مع الوقت، وأحاول أن أتأقلم.

صمت فخر الدين ولم يعرف بم يرد.

- في الحقيقة أن هذا ظلم بيّن؛ فأنا لم أؤذ أحدًا منهم في يوم من الأيام، ولم أعامل أحدًا بطريقة سيئة، لم أتحرش بأحد منهم ولو بواحد على المئة من التحرش الذي يحيطون زميلاتنا به. لا أعرف لم يرفضونني لهذه الدرجة؟ هل يكرهونني لمجرد أني مختلف؟ أم إن لديهم ميولًا مثلية يحاولون قمعها من خلال كراهيتي؟

- ربما يبغضون ما تمثله.

- ولكني لا أمثل أي شيء!

- بلى. أنت تمثل أسسًا مختلفة للمجتمع. قبول المثلية يعني هدم الأساس الذي تقوم عليه العائلة والعلاقات في المجتمع. الأمر ليس مجرد حرية فردية؛ هناك عواقب للمجتمع ككل، وهناك أيضًا التحريم الديني.

- اسمع، أنا مسيحي من عائلة شديدة التدين، وآخر ما أريده هو خطبة عن التحريم من شخص جاهل. ثم كيف يهدم أسس العائلة أني لا أحب النساء؟ الموضوع كله جهل وكراهية للمختلف. هم يرونني مخلوقًا فضائيًا، شيء لم يتصوروا أن يتعاملوا معه أو يلمسوه. طبعًا هم يعتقدون أني مريض نفسيًا، أو إن البواب اعتدى عليَّ وأنا صغير فأفسد أخلاقي، أو كانت أمي تخون أبي أمامي فتكونت لدي عقدة ما، أو مشت عليَّ سحلية وأنا نائم أو أي من هذا الهراء الذي يمتلئ به الفولكلور العربي حول المثلية. في كل الأحوال أنا بالنسبة لهم إنسان له ذيل، أو كائن آخر يشبههم ولكنه ليس بشرًا «طبيعيًا»، وطبعًا كوني أرمنيًا لا يساعد موقفي.

- الحقيقة أنه يساعد.

- لم؟

- لأنه يعطيك بعض العذر!

ضحك فخر الدين ليخفف من حرجه وينهي هذه المناقشة التي لم يطلب فتحها. الحقيقة أن مشاعره لا تختلف عن مشاعر أصدقائه إلا في الدرجة. هو لا يكره دميان، لكنه لا يحتمل فكرة المثلية. على الأكثر يمكن أن يتقبلها كاستثناء، ويجب أن يظل في هذا الإطار. يمكن معالجته إن كان قابلًا للعلاج، أو تمني الرحمة والتوفيق لصاحبه إن لم يكن قابلًا للتغيير، على أن يظل بعيدًا، يظل استثناء لا أن يصبح موقفًا عاديًا تضفى عليه الشرعية. ولكن في كل حال فهذا هو آخر اهتماماته، ولا يحتاج مناقشات حول هذا الموضوع.

ابتسم دميان مرة أخرى.

- لا عليك، آسف على فرض همومي عليك دون داع. لماذا لا نذهب في نزهة؟ دعني أريك باريس بالسيارة.

تردد فخر الدين لحظة فانفجر دميان ضاحكًا:

- والله هذه دعوة بريئة. ما لكم؟

* * *

كان خطاب علي هو الذي أعلمه بوفاة المهندس حسن محمود. وظل اليوم بطوله شاردًا. أعاد خبر وفاته أشياء كان فخر الدين قد دفنها، غوص القلب عند ذكر اسمها، رائحة شعرها وهي تزيحه جانبًا أو تعقصه في رباط من القماش الملون، مشيتها في صالة دار القضاء العالي وصوت كعب حذائها المميز، روب المحاماة الملقى بإهمال على كتفها وهي تحث الخطى لتعوض تأخرها الدائم، راحة يدها وهي تحتضن يده، عيناها وهي تنظر إليه بعمق وتبتلعه فيهما، وحبه الذي انكسر على صخرة الطبقة الاجتماعية. هل يتصل بشيرين ليعزيها في وفاة أبيها؟ أهي هنا أم ما زالت في القاهرة؟ لا بد وأنها ذهبت للقاهرة لحضور مراسم الدفن والعزاء. هل ذهب زوجها معها أم كان مشغولًا بعمله المهم؟ وهل يستطيع أن يتحمل مقابلتها في وجود ذلك الرجل الذي أخذها منه دون وجه حق؟ وهل يستطيع مقابلتها هي التي تخلت عنه دون وجه حب؟ نظر لخطاب علي وذهنه يشرد أكثر: المهندس حسن مات. مات رمز التقاليد والأصول، مات الرجل الذي تخلت شيرين عن حبها كي لا تغضبه. مات مثلما يموت الرجال جميعًا. مات وانقضى مثلما ينقضي كل شيء، ففيم كان التخلي يا حبة القلب؟ وأسئلة كثيرة تتلاحق ولا تتيح له الوقت للتفكير أو الإجابة.

ثم قرر أن يتصل بها ليعزيها، على أمل أن تكون ما زالت بالقاهرة فيترك لها رسالة عزاء وينتهي الموضوع عند هذا الحد. لماذا لم يرسل لها تلغرافًا إذًا؟ لأنه في حقيقة الأمر كان يريد سماع صوتها، وكان يداري الأمر عن نفسه كي لا يواجهها بتلك الرغبة التي تعتمل في نفسه منذ وطأت قدمه أرض المطار الفرنسي. رفع سماعة التليفون واتصل بالسفارة وسأل عن زوجها فقالت له السكرتيرة المرتبكة إنه غير موجود فقال إنه صديق قديم وطلب رقم منزله ليعزيه وزوجته، فأعطته الرقم. تردد مرة أخرى، ثم رفع سماعة التليفون بسرعة قبل أن يغير رأيه مرة أخرى واتصل، فجاءه صوتها عبر خط التليفون.

آلو..

كانت مكالمة غريبة بين حبيبين قديمين لم يشف أيهما من حب الآخر؛ بها من الصمت أكثر ما بها من الكلمات. عزّاها في وفاة الوالد، فردت بكلمة شكر أو ما شابه ثم صمتت. ثم بكت، وظل صامتًا وقلبه يبكي معها. ولم يكن أيهما يعلم على وجه اليقين ما إذا كان ذلك بكاء على الأب أم على الحب الذي دفن. قال شيئًا عن علمه بالخبر متأخرًا، واعتذر، فقالت إنها هي التي يجب أن تعتذر، وصمتا. قال شيئًا عن الحزن الذي باغته حين علم، فغمغمت بشيء وصمتت. سألته عما يفعل في باريس فقال لها إن تلك حكاية طويلة. قالت له إنها سمعت إشاعة غريبة عن اختفائه من صديقتهما المشتركة منار، فقال إن مجيئه له علاقة بهذا وإنه هنا باسم عيسى النجار وطلب منها ألا تذكر لأحد في خطاب أو تليفون شيئًا عن هويته الحقيقية. سألها إن كانت تحتاج لأي شيء فشكرته لكنها لم تقل شيئًا يوحي بأنها تنهي المكالمة. على العكس، سألته إن كان يحتاج شيئًا فشكرها. سألته

منذ متى وهو بباريس فقال لها قرابة ثلاثة شهور فعاتبته على عدم الاتصال، على الأقل كصديق قديم. صمت فصمتت هي الأخرى.

ومثلما هو متوقع، لم تكن تلك هي المكالمة الأخيرة بينهما. وعندما هاتفته هي في المرة التالية لتشكره على تعزيته استمرت المكالمة وقتًا أطول، وقلت مساحات الصمت فيها وزاد عدد الكلمات. وفي المكالمة التي أعقبت ذلك أمطرته بأسئلة وتحدث هو مطولًا. ثم سألته عما إذا كان يريد لقاءها وتقديم العزاء شخصيًا، وتلعثم وهو يريد أن يسألها عن كيفية تلقي الزوج لوجوده ولكنه قال بدلًا من ذلك شيئًا ماسخًا عن رغبته في عدم التسبب في حرج. ثم التقيا. ذهب لتقديم العزاء لها في منزلها، والتقته في الحديقة الصغيرة الملحقة ببيتها الأنيق ولم تدعه لدخول البيت بل أتت خادمة أثيوبية بالشاي والقهوة حيث يجلسون في الشمس بالحديقة. كانت ترتدي رداءً أسود بسيطًا وفوقه شال أسود من الصوف الخفيف به زهر أحمر صغير متناثر. وجهها مغسول ونقي بدون أي تجميل كما يحبه. عيناها منتفختان قليلًا وبهما حمرة وتحتهما شبح هالة سوداء. شعرها معقوص خلف رأسها برباط من قماش أسود. هي هي، لم تتغير.

سلمت عليه وتركت راحة يدها في يده ثانيتين. لم يعرفا ماذا يفعلان بكفيهما، كيف يتلامسان هكذا كما الأغراب؟ كيف يأخذ يدها في يده ولا يأخذها. ظلت يده متجمدة ويدها تفيض حنانًا حتى لانت يده لكن الثانيتين المسموح بهما للأصدقاء كانتا قد انتهتا فسحبت يدها في اللحظة التي بدأت فيها كفه الثلجية في الانصهار. كيف ينظران بعضهما لبعض نظرة تكون عادية فلا تعكر صفو حدود لقائهم هذا، وفي نفس الوقت لا تكون نظرة غرباء؟ حاول أن يجول بعينيه

بعيدًا، وأن تكون نظرته لها حيادية، لكن كل ذلك باء بالفشل، ووجد نفسه يستخدم النظرات الوحيدة التي يعرف أن ينظر إليها بها.

ثم جاءت مريم وأنقذته. جاءت تجري على أرض الحديقة وهي تكاد تقع عند كل خطوة، ووجد فخر الدين نفسه فجأة أمام شيرين صغيرة؛ تلك التي طالما تخيلها، بضفيرة شعرها وبراءتها المطلقة وابتسامتها الآسرة. جاءت مريم فانكسر قلبه ثانية وهو يرى هذه المخلوقة الرائعة تخرج من أحلامه وتستوي أمامه كائنًا حقيقيًا، ليس له. غمغمت بشيء ما وهي تحتمي بأمها وتنظر إليه في فضول ممزوج بالدلال. ظل فخر الدين ساكنًا، ثم استأذن وانصرف حتى لا يعطل الأم عن ابنتها.

وكما هو متوقع، لم يكن ذلك هو اللقاء الأخير بينهما. في المرة التالية كانت شيرين تجوب الحي اللاتيني بحثًا عن سجادة للبيت قالوا لها إنها بمحل عاديات هناك، واتصلت به قبلها بيوم ودعته لشرب القهوة عند الجامعة فيما بين محاضراته. وبعد ثلاثة لقاءات أخرى تحدثا أخيرًا عن الماضي وما حدث بينهما. دون عتاب ودون اتهامات ودون أي شيء، فقط ذكرا هذه الموضوعات، وقالت له شيرين إنهما الآن يمكن أن يكونا أصدقاء، وأوضحت له أن زوجها على علم بلقاءاتهما وأن هذه صداقة في النور ليس فيها ما يستوجب الإخفاء. بعدها بأسابيع قليلة تعاتبا وتبادلا الاتهامات بالمسئولية عن انهيار حبهما. وبكت شيرين كثيرًا ذلك اليوم، ورحلت وهي تبكي. ثم اتصلت واعتذرت وطلبت أن تراه ثانية، وفي هذه المرة لم يتعاتبا وإنما تحدثا عن حياتهما بعد أن افترقا، وشرح لها فخر الدين تفاصيل ما حدث له حتى جاء لباريس باسم ابن خاله. وصارا يلتقيان أكثر،

وتحدث مع زوجها في الهاتف عندما رد الأخير ذات مرة لكنهما لم يلتقيا وجهًا لوجه.

ثم اعترفت له بأنها غير سعيدة في حياتها. شرحت كيف حاولت التأقلم مع حياتها الجديدة، وفشلها في ذلك. واعترفت له بأنها في لحظة يأس حاولت الانتحار، وأن الطبيب الذي عالجها بعد إنقاذها نصحها بالحديث لطبيب نفسي، وقد فعلت وأراحها ذلك كثيرًا، مع بعض المهدئات طبعًا. انتهى الأمر بها، مثلما قالت، إلى أن قبلت بمبدأ غياب السعادة واستعاضت عنه بالهدوء النفسي والرضا. أنجبت مريم، قرة عينها، وبنت لنفسها وعائلتها الصغيرة إطارًا هادئًا.

- بس فيه حاجة ناقصة. كأني عايشة في فيلم أبيض وأسود؛ مفيش ألوان، مفيش حاجة تهزني أو تحرك قلبي. مفيش حاجة عايزة أقولها لشريف جوزي، مفيش بينا حاجة تتقال. طول الوقت بامشي الكلام، وهو كمان بيمشي الكلام.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى وصلت الأمور لنتيجتها الطبيعية. اعترفت له بأنها لم تحب أحدًا سواه وأنها ما زالت تحبه. قالت إنها جربت الحياة بدونه ووجدتها بلا طعم، واعترف لها بأنه يحبها ولم يحب أحدًا سواها وأن الحياة بدونها كانت دائمًا مُرة.

* * *

تولى محمد البحيري مهمة حل مشاكل فخر الدين العملية منذ وصوله لباريس. والبحيري أحد زملائه القدامى بالجيش لكنه جند كضابط احتياط بوحدة الصواريخ التي خدم بها فخر الدين، ورحل معه إلى الخليج وحضر تمرده ومحاكمته. حاول وقتها إثناء

فخر الدين عن رفضه التحرك إلى حفر الباطن، ليس عن اقتناع بالحرب - على العكس تمامًا - وإنما على حساب المكسب والخسارة. قال لفخر الدين وقتها إن عليه الانحناء للعاصفة حتى تمر، لكن فخر الدين كان عنيدًا كالصلب. وبرغم غضب البحيري من عناده آنذاك إلا أنه أكبر فيه هذه الرجولة، وصار يكن له منذ ذلك الوقت عظيم الاحترام. ترك البحيري مصر بعد نهاية خدمته العسكرية، ولم يجد وظيفة تناسبه. فساعده بعض «الإخوة» ودبروا له السفر لباريس بتأشيرة سياحية، حيث استقبله أحد «الإخوة» الجزائريين ودبر له عملًا معه في مجال دهانات الشقق - ما يسميه العرب هنا «البنتيرة». ومع الوقت نجح في عمله وأصبح شريكًا لصاحب العمل ثم تزوج بأخته التي تحمل الجنسية الفرنسية وهكذا وفق أوضاعه القانونية. توسع عمله شيئًا فشيئًا خاصة بعد أن غادر زوج أخته البلاد وأصبح يبيع ويشتري العقارات الرخيصة في الضواحي إضافة لأعمال «البنتيرة».

اشترى البحيري لنفسه ولعائلته الصغيرة بيتًا صغيرًا بحديقة صغيرة في أطراف «سان دوني»، وأنجب ثلاثة أطفال أكبرهم ياسر، وصار يعرف باسم أبو ياسر، واستقرت أموره كعمدة للعمال واللاجئين المصريين في باريس، يساعد من يبحث عن مكان يأويه حتى تستقر أموره، ويوظف من يستطيع من الباحثين عن عمل، وأحيانًا يزوج البعض منهم لفرنسيات مسلمات من أصل جزائري من معارف زوجته، وغير ذلك من أعمال المساعدة والخير.

لم يكن فخر الدين يعلم بكل هذه القصة قبل وصوله، لكن حسين أرسل له رقم تليفون قاده إلى البحيري. وأخذ البحيري على عاتقه تعريف فخر الدين بأكبر عدد ممكن من أبناء الجاليات

العربية، خاصة الجزائريين أنسبائه. فكان يمر عليه أحيانًا في شقته ويصطحبه لسوق سان دوني ويسير وهو في يده كأنه أخيه الأصغر، يلقي بالتحية على أصحاب المحلات وهو يمر من شارع لشارع ويقدمهم لـ«الدكتور» ويوصيهم خيرًا به، ثم يذهبون لشرب الشاي وتدخين بعض «النارجيلة» على مقهى عربي يديره «الشيخ النعيمي»، أحد الفلسطينيين المستقرين بباريس. وفي أيام الجمعة كانوا يختتمون الجولة بالصلاة في «مسجد سان دوني» - وهي تسمية وجد فيها فخر الدين مفارقة مضحكة لا يلحظها أحد. تعرف فخر الدين في المسجد على عدد أكبر من أبناء الجالية العربية، وتبين له أن نفوذ البحيري يتجاوز تسكين الشباب وتوظيفهم. لم يكن قد لاحظ أيام الجيش اهتمامات البحيري الدينية، ولكن اتضح من المناقشات التي حضرها معه في المسجد أن له باعًا كبيرًا في الفقه والحديث، فكان يقضي ساعات ما بعد صلاة الجمعة يحاجج شبابًا في أحكام الشريعة وجواز العمل في المؤسسات الفرنسية الحكومية، وفي المصارف، وحكم العمل في المطاعم التي تقدم الخمور، وغير ذلك من المسائل التي تهم الجالية المسلمة في فرنسا. كان البحيري يشتكي له بعد هذه المناقشات من تشدد الشباب وتأثرهم بأئمة غلاة أتوا من باكستان والسعودية وأفغانستان والجزائر، ممن لهم صلات وثيقة بالتنظيمات المقاتلة، وأنهم يدفعون الشباب للتطرف في حياتهم اليومية بما يصعب عليهم الحياة في فرنسا ويدفع البعض منهم لترك البلاد بعد أن يسدوا أبواب الرزق والحياة فيها أمام أنفسهم. سأله فخر الدين عن هذا الاهتمام بالفقه ومن أين أتى فضحك:

- إنت ناسي إني خريج هندسة؟ الواحد بيتعلم حاجتين في كلية الهندسة: الشريعة واحدة منهما والثانية انت وحظك.

كان يرمي إلى النفوذ الواسع الذي تتمتع به الجماعات الإسلامية في كليات الهندسة. سأله فخر الدين كيف لم تظهر عليه أي من هذه العلامات أثناء الخدمة العسكرية، فابتسم:

- إنت عاوز توديني في داهيه ولا إيه؟ مش الجيش بيقولك الميري ميري والتيري تيري؟ أهو ده بأه التيري.

وأضاف أنه استفاد الكثير من الخدمة بالجيش، ولكن هذه مرحلة وانقضت، وهو الآن يركز بشكل كامل على حياته الجديدة في باريس وعلى خدمة أبناء الجالية المسلمة هنا.

* * *

باريس في ٥ مايو ١٩٩٣

عزيزي ناصر

دعني أحدثك عن اكتشافي لذاتي. هنا، في باريس، عاصمة النور، اكتشفت أخيرًا من أكون؛ أنا يا سيدي «عربي غير معتاد». إذا قلت شيئًا ذكيًا، يفاجأ الناس من حولي. وإن تصرفت بشكل مهذب واحترمت الغير، اندهشوا. وإن طلبت نبيذًا، تأثروا. وإن وصلت في موعدي، استغربوا. وإن حصلت على علامة مرتفعة في امتحان، انبهروا. وإن اختصرت في الحديث وسألت أحدًا ما هي النقطة التي يحاول شرحها بالضبط، ارتبك. وإن رافقني أحد في ثلاث من هذه المناسبات قال إني لست «عربي معتاد»!

ولكني لا أكتب لك من أجل هذا، بل كي أسألك ما الذي يجري. خطاباتك الأخيرة مثيرة للقلق. لماذا تغرق نفسك في اليأس لهذه الدرجة؟ أعلم إلى أي مدى الأحوال محبطة في مصر، ولكن هل

يعني ذلك أن السكر والغرق في اللافعل هو السبيل للخلاص؟ أم هو موت بطيء ذلك الذي تختاره؟ أنا لا أعرف سحر التي تتحدث عنها، ولكن يبدو من حديثك أنها ليست كالعابرات الأخريات فإن كنت محقًا في ظني فلا تجعلها عابرة هي الأخرى.

لا يمكنك الاستمرار في هذه الحالة، أنت تقتل نفسك ببطء، وتذكر أن هناك من يحبونك ويعلقون توازنهم العاطفي على صداقتك - أيها الأحمق.

عيسى

* * *

قبل فخر الدين دعوة دميان للذهاب في جولة بالسيارة. ومن نافذة السيارة الفخمة رأى باريس أخرى، بدون انتظارات المترو وحروبه. اكتشف أن الأماكن أقرب بعضها لبعض مما يظن وأن الطرق بينها ليست دائمًا خطوطًا مستقيمة. قاما بجولة في شارع ريفولي الذي كان يكرهه بسبب البعد بين محطات المترو فيه واكتشف أنه شارع لطيف، ثم ذهبا حول الأوبرا القديمة ثم ميدان الباستيل وقاما بجولة سريعة داخل دار الأوبرا المعاصرة التي افتتحت حديثًا. بعدها أخذه دميان إلى حي «لاديفانس» الجديد وصعدا قوس النصر الجديد الذي هو عبارة عن مكاتب وشركات، وضحك دميان قائلًا إن هذا فعلًا هو النصر الجديد لفرنسا. بعدها عادا في طريق طويل نحو قوس النصر القديم ودارا حوله بالسيارة «ولم يكن يعرف أن ذلك ممكن، كل ما يعرفه عن قوس النصر أنه يمشي في أنفاق طويلة جدًا من محطة «إتوال» حتى يصل إليه». ذهبا إلى شارع «سان دوني» بوسط البلد وأخبره دميان أن هذا هو المقر التقليدي للعاهرات. رأى بعضًا منهن

واقفات في انتظار الزبائن. أشار دميان إلى بعض الفنادق المجاورة والتي تعمل في نفس النشاط. علق فخر الدين بأن معظم الواقفات من إفريقيا وجزر المحيط الهادي والشمال الإفريقي، فذكر دميان أن هناك موجة جديدة من بولندة وروسيا ولكنها تعمل في مناطق أخرى. صعدا إلى كنيسة القلب المقدس وتناولا طعام الغداء في مقهى صغير في ميدان مونمارتر يعج بالسائحين. سأله فخر الدين:

- ولكن أين ذهب الفنانون أصحاب الميدان؟

- ذهبوا إلى البيت يا عزيزي. الفنانون اليوم ليسوا «ڤان جوخ» الذي لا يجد ما يتقوت به ويموت من السل. معظمهم يعمل مع شركات ومنتجين ووكالات، وأيضًا في مجال الإعلان.

بعد الغداء ذهبا إلى جزيرة سان لوي في قلب نهر السين خلف كنيسة سيدتنا، ولم يكن يعلم أن هناك أناسًا يعيشون في بيوت هنا ولديهم شرفات تطل على هذا المنظر الأخاذ. ثم ذهبا لمعهد العالم العربي، ومركز بومبيدو الثقافي، والحي الرابع، والـ«ماريه» مركز الحياة اليهودية القديمة في باريس. ومع هبوط الظلام، قاد دميان السيارة إلى غابة بولونيا، وهناك رأى فخر الدين الوافدات الجدد من بولندة وروسيا اللواتي تحدث عنهن دميان، ورأى أيضًا العابرين أو العابرات للجنس، ورأى الشباب الذي يبيع نفسه للرجال، وبعض الصبية والأطفال. لم يستطع البقاء طويلًا فطلب من صديقه المغادرة، وعادا إلى «حي النور»، الحي اللاتيني. جلسا على مقهى «دوماجو» الشهير. سأله فخر الدين:

- ما هذا؟

- هذا يا عزيزي ما يمكنك تسميته: فوضى عارمة.

- أحاول تخيل ما كان سارتر وكاميه سيقولانه وهما جالسان على هذا المقهى من خمسين سنة!

- سيقولان ما قالاه وقتذاك.

- هل كان الحال هكذا دائمًا هنا؟

- بالضبط. فرنسا طول عمرها فوضى عارمة، ومن هذه الفوضى يخرج المفكرون والأدباء والفلاسفة والمنحرفون ومجرمو الحرب.

- والقانون؟

- والقانون أيضًا. لا تنس أن المحامين هم نمل هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي، هم وخريجو الإنا!

- الإنا؟

- نعم، مدرسة الإدارة الوطنية: أكبر «المدارس الكبرى» التي تخرج فيها كبار السياسيين ومسئولو الإدارة العليا بالدولة وكبار مديري الشركات في آن واحد. كلها نخبة واحدة ولكنها تعيد توزيع المناصب بينها كل فترة، كالكراسي الموسيقية.

- والقانون؟

- مرة أخرى؟ القانون ياسيدي هو لحمة كل هذا. لهذا السبب يتقاتل الطلبة على الالتحاق بكليات الحقوق. ولهذا السبب يتقاتل الأساتذة على سمعة وهيبة ومكانة كلية الحقوق. لهذا السبب يتقاضى المحامون هذه المبالغ الباهظة. لهذا السبب يحتلون الشرائح العليا من السلم الاجتماعي. إنه قتال البقاء على القمة يا عزيزي. المحامون

ورجال القانون هم كهنة هذا النظام، تمامًا مثل الكاتب المصري في بلاط الفراعنة.

- حور؟ هل قابلته أنت أيضًا؟

- عفوًا؟

- لا، لا تهتم.

- ماذا؟ هل يصدمك كلامي؟ هل كنت تتوقع شيئًا مختلفًا من دراسة القانون هنا؟

- الحقيقة نعم. كنت آمل في دراسة القانون ودوره وعلاقته بحركة المجتمع. يعني، مثلما كتب روسو ومونتسكيو.

- روسو ومونتسكيو؟ لا بد وأنك تمزح! هذه مُثُلٌ يا صديقي، نماذج نحلم بها. لكن الواقع هو مكتب روشيه للمحاماة، وتكلفة الساعة سبعمائة وخمسون فرنكًا. هذا هو الواقع.

- صباح الخير أيها القانون، ومرحبًا بحكم النخبة.

- طبعًا مرحبًا بحكم النخبة! طول عمر النخبة هي التي تحكم! ألم تتعلم هذا في بلدكم؟

- من مفارقات القدر أن أتعلم هذا في بلاد الثورة الفرنسية.

- هذا لأنك حالم يا عزيزي؛ الثورة الفرنسية قادتها نخبة وحددت مثلها نخبة. الجماهير كانت وقودهم، لكن النخبة هي التي قادت وهي التي تقود اليوم. هل نكمل الجولة؟

- لا. أظن أني سأكتفي بهذا القدر اليوم. من فضلك وصلني لأقرب محطة مترو على الخط الأزرق.

- أين أنت ذاهب؟

- كاتدرائية سان دوني.

- آه. فرنسا الجزائرية! بلاد المرجيز! رحلة سعيدة.

* * *

في سبتمبر تركت شيرين زوجها وجاءت إلى فخر الدين. دق جرس الباب في بيته فانزعج، لا أحد هنا يأتي دون موعد مسبق. فتح الباب فوجد شيرين واقفة أمامه. ظل واقفًا بلا حراك من المفاجأة. ارتمت بين ذراعيه وأخذت تبكي. احتضنها. بعد كل هذه السنوات، أخيرًا في حضنها.

أغلق الباب وأجلسها على الأريكة وهي مستسلمة لدفء صدره. هدأت شيئًا فشيئًا وهو يربت على شعرها، يزيحه قليلًا من على وجهها ويعيده فوق رأسها ويربت عليه ثم يعود لعينيها يمسح الدمع من عليهما بطرف يده، يجفف يده في قميصه ويعود يمسح عينيها. ضحكت في وسط الدموع ورفعت رأسها قليلًا لتتمكن من تجفيف عينيها وتنظيف أنفها.

- أنا آسفة.

- لا أبدًا. ما تقوليش كده.

- أنا مش عارفه أروح فين ولا أعمل إيه.

- هو إيه اللي حصل؟

وبدأت شيرين تحكي ما دار بينها وبين شريف زوجها خلال الأسابيع الماضية وكيف تدهورت الأمور منذ ظهور فخر الدين مرة أخرى في حياتها.

- ما تخافش. مش انت السبب. هو السبب. أنا السبب. أنا وهو. إحنا اللي مش عايشين مع بعض. كل اللي عمله ظهورك إنه نبهني إني لسّه إنسانة وعندي مشاعر وإن الدنيا فيها حاجة غير الصمت وتمشية الكلام، حاجة غير الكلام على مريم وهدومها، والمربية وأجازتها. حاجة غير تذاكر السفر وحفلات الاستقبال والناس اللي دمها تقيل ومضطرة استحملها، حاجة غير المهدئات اللي ما بانامش من غيرها. وفاة بابا كانت البداية، وبعدين انت ظهرت، وبعدين مابقتش قادرة، مش قادرة استحمل العيشة دي خلاص. مجرد صوته أو أي تعليق ليه بيخليني مش طايقة نفسي. مش طايقاه. وهو مش غبي، فهم طبعًا ومن الأول. وبس. خلاص. أخدت مريم والبنت ومشيت.

- مشيتي؟

- أيوه. أنا قلتله إني عاوزه اتطلق. ده مالوش دعوه بيك. دي حاجة تخصني أنا. أنا مش حاعيش الحياة الميتة دي. قلتله كده، واتفقنا.

- وفين مريم والبنت؟

- تحت.

- تحت؟

- آه.

نبهها إلى أن ساعة قد مرت منذ مجيئها. نزلا، فوجدا السيارة خاوية. صرخت شيرين وجرت في الشارع تبحث عنهما، وجرى خلفها يهدئها.

- أكيد راحوا المركز التجاري القريب. تعالي.

وبالفعل، كانتا جالستين في محل صغير للحلوى والمثلجات. جرت شيرين واحتضنت مريم بقوة وهي تعنف البنت الأثيوبية التي أخذت تعتذر. جلس فخر الدين وأجلس شيرين وسألها ماذا تريد أن تفعل. عرض أن يترك لهم شقته الصغيرة ويذهب للمبيت لدى صديق له يسكن على مقربة فابتسمت شيرين وشكرته، قائلة إنها حجزت غرفتين في أحد الفنادق في وسط المدينة حتى تتدبر أمرها، وذكرته بأنها قد ورثت عن أبيها ثروة تمكنها إن أرادت أن تعيش بقية حياتها في الفنادق. حاول أن يوصلها ولكنها شكرته. أصرت على دفع الحساب البسيط. وضعت مريم في مقعد الأطفال بالمقعد الخلفي للسيارة والبنت الأثيوبية بجوارها، ولوحت له بيدها وانطلقت عائدة نحو المدينة.

* * *

عزيزي ناصر

التقيت اليوم برجل عجوز غريب. مصري لكنه لا يتحدث العربية، أو هكذا زعم، وقال إن اسمه «حور» وإنه «الكاتب المصري» - ليس «كاتب مصري» بل «الكاتب المصري». قال لي ذلك ببساطة ونحن جالسون في مقهى في حي «كني» حيث توجد بعض الآثار الرومانية على مقربة من السربون. ابتسمت وكنت أظنه يمزح أو يبدأ تصويرًا خياليًا أو بلاغيًا. لكنه نظر إليَّ بغضب وقال: «أيها

الشاب المصري الحديث: لا تسخر من أجدادك». أدركت أنني في مأزق: آخر ما ينقصني هو مختل عقليًا مثل الذين يملأون عربات المترو ومحطاته والحدائق العامة. في مرة، جلس رجل بجواري وادعى أنه السيد المسيح ويريدني أن أكون تابعه، ولما قلت له إني مسلم ولن أستطيع أن أتبعه سألني إن كنت على الأقل أستطيع أن أتبرع لحملته ببعض المال. وهكذا. هناك العشرات من هذه القصص تحدث كل يوم، ولكن السيد «حور» لم يكن يريد سوى أن أترجم مذكراته من الفرنسية إلى العربية. قال إنه لا يعرف سوى الأبجدية الفرنسية والهيروغليفية. ومذكراته المزعومة عبارة عن قصة تمثال الكاتب المصري الذي يعود للحياة ويخرج من متحف اللوفر لكنه يرفض الحياة في باريس التي يجدها غريبة، ويحاول أن يعود لمصر لكنه لا يستطيع، وكلما حاول فشل ولا ينجده سوى أصدقائه الفرنسيين، فيغضب أكثر ويحاول مرة أخرى وهكذا في دائرة مغلقة من الإحباط والاستحالة.

أعجبتني الفكرة، وبغض النظر عن مدى جنون صاحبها فإنها قد أصابتني في الصميم.

عيسى

* * *

- والحل؟

- لا حل.

أجاب دميان في ابتسامة.

- ولكن إذا كانت الليبرالية بهذه القسوة، وسبل التغيير السلمي مغلقة بهذه الطريقة، فلا يبقى إلا العنف.

- وهل العنف حل؟ العنف يدمر أصحابه قبل أي شيء آخر.

- لكنه الملاذ الأخير لمن لم يعد أمامه سبيل غيره.

- العنف ليس ملاذًا.

- يعني ماذا تريد من الناس أن تفعل؟ تستسلم؟

- الاستسلام خير من العنف.

- الاستسلام جبن!

- أن تكون جبانًا خير من أن تكون متوحشًا.

- الآن عرفت لماذا يقول الطلبة العرب إنك «مخنث»، ليس بسبب ميولك المثلية وإنما بسبب هذه الآراء الضائعة.

* * *

١٤ أكتوبر

عيسى

أرسلت إليك صباح اليوم أهنئك بعيد ميلادك، ولكني كنت سكران طينة في الصباح ولا أذكر بالتحديد ما قلته لك «ولا أريد فتح المظروف».

أرى نظرتك المستنكرة من هنا، وأقول لك أن تكف عن هذا. كف عن أن تقول لي ما يجب عليَّ فعله. تلقيت خطابك الأخير الذي تنعتني فيه بالحماقة. أنا الذي أعطيتك الحق في أن تتبوأ موقع الناصح الأمين. والآن أقول لك شكرًا: لا أريد المزيد من نصائحك التي لا أستطيع تنفيذها، تمامًا مثل هداياك التي لا أستطيع استخدامها (هل أخبرتك عن ماكينة القهوة اللعينة التي ظلت تحتل نصف رخامة

المطبخ وتخرج لي لسانها؟ بعد جهد جهيد عثرت على البن الذي يمكن أن أستخدمه معها، ثم تبين أن الهانم تحتاج أيضًا إلى «فلتر» ورق! طبعًا لا أثر لمثل هذه الأشياء هنا – نحن الذين لا نكاد نجد الماء. ومن ثم صنعت فلتر من المناديل الورق ووضعته في الماكينة. وعندما حاولت تشغيلها أصدرت أصواتًا غريبة ودخانًا ثم انسدت تمامًا ورفضت أن تخرج أي شيء حتى يومنا هذا).

لقد تفرقت بنا السبل. سرت أنت في طريق غير محدد المعالم لكنه طريق، وقفزت أنا كالمظلِّيِّين في المستنقعات أطفو دائمًا وأعيش أحيانًا وأغوص كثيرًا فيها وأنتظر.

أعتقد أني قلت هذه الجملة بالحرف الواحد في خطاب سابق.

سأذهب الآن لأعد لنفسي كأسًا. كل عام وأنت بخير.

ناصر

* * *

لم تكن المقابلة التالية مع المشرف على الرسالة خيرًا من سابقتها. فلم يكن فخر الدين قد وجد بعد الموضوع الذي يريد أن يعمل عليه. سأله المشرف كم من الوقت ينوي تخصيصه لكتابة الرسالة فأجابه بأن لديه عامين. وهنا انفجر المشرف مذكرًا إياه بجدية الدرجة العلمية التي يرغب في الحصول عليها ومشيرًا إلى أن متوسط المدة التي يستغرقها إعداد الدكتوراه هو خمسة إلى سبعة أعوام، مضيفًا إلى أن الإيقاع الحالي لفخر الدين يشير لاحتياجه إلى عشرة أعوام. ثم صرفه بإشارة من يده محددًا له موعدًا بعد ستة أشهر أخرى.

* * *

استقرت شيرين في حياتها المنفصلة. بعد عدة أسابيع في الفندق الذي نزلت به وجدت لنفسها شقة بالحي السابع. لم يعلق فخر الدين على القيمة الإيجارية الخيالية للشقة الفاخرة، ولكن بدا عليه بوضوح أنه لاحظ فخامة المكان. ابتسمت شيرين في شبه اعتذار وقالت إنها لا يمكن أن تسكن إلا في الضفة اليسرى للسين، حيث الحياة الثقافية والمدارس والجامعات والمكتبات، كما أن الحي قريب من مقر عمل زوجها، وبالتالي يمكن أن تأخذها البنت الأثيوبية إليه في ساعات الراحة. ذكرت بشكل عابر أنها ستظل بباريس، وربما تستأنف الدراسة من أجل الحصول على الشهادة التي تخول لها ممارسة المحاماة بباريس. سألها إن كانت فعلًا تريد أن تكون محامية هنا فردت بأنها تريد الحياة في فرنسا، وتريد استعادة حياتها التي توقفت منذ زواجها، وهي محامية ولا تستطيع استعادة حياتها دون عمل. أضافت أنها ستتخصص في التحكيم التجاري، فابتسم فخر الدين مشاكسًا، ونبهها إلى الثروة الطائلة التي ورثتها وعدم احتياجها لأن تعمل بأكثر فروع المحاماة إدرارًا للمال، فضحكت وقالت إنه لم يتغير، وأوضحت أنها تريد أن تعمل بفرع يمكن لها أن «تحمله معها إلى أي مكان»، وأنها بذلك ستستفيد مما تتعلمه وتعمله في أي مكان آخر.

استقرت شيرين في حياتها المنفصلة، وصارت مريم تذهب إلى الحضانة كل يوم في حين تذهب شيرين في جولات باريسية. لن تبدأ دراستها قبل يناير، ومن ثم قررت الاستفادة من هذه الفترة في التسكع واكتشاف باريس بعيدًا عن قيود حياتها السابقة. رافقها فخر الدين في هذه الرحلات، وكانت جذلة وهي تركب الحافلة وتشد الحبل الذي يسجل رغبة الركاب في النزول، لكنها كانت تخاف في المترو وتلتصق به طول الوقت ثم طلبت منه تفاديه لأنه يصيبها بالاكتئاب.

في الليل يتمان جولاتهما بسيارتها، وتأتي معهما مريم أحيانًا، التي صارت صديقة لفخر الدين وأصبحت تمسك بيده كلما رأته ولا تتركها حتى يغادر. كان فخر الدين يحبها حقيقة، يحبها لأنها صورة مصغرة من حبيبته، لكن شيرين كانت قلقة، وكانت تشكره طول الوقت على «حسن معاملته» لمريم. يستغرب الشكر، ويتهمها بالجنون إن ظنت أن ذلك من حسن المعاملة. شرح لها أنه يراها هي في مريم: «ولكن بالحجم البريء»، وشيرين تضحك ثم يبدو عليها التأثر وتشكره ثانية فيضحك هو. وفي عطلات نهاية الأسبوع يخرجون ثلاثتهم معظم النهار، ويذهبون بسيارة شيرين إلى أماكن لم يرها فخر الدين من قبل، كمزارع العنب في مقاطعة «شامبانيا»، وجبل «سان ميشيل»، و«فونتانبلو» حيث ودع نابليون جيشه المنهزم، وكثيرًا إلى قصر «فرساي» الذي تحبه مريم كثيرًا لحريتها في الجري في مروجه. وحين يعودون للمنزل تكون البنت الأثيوبية قد أعدت الطعام.

- هي اسمها إيه؟

- مين؟

- البنت الأثيوبية؟

- مريم.

- برضه؟

- أيوه. علشان كده ماحدش بيندهلها باسمها. مريم بس هي اللي مريم.

- والأخت؟

- البنت الأثيوبية. خدي يا بنت روحي يا بنت، ولو سألتها على التليفون انتي مين حاتقولك أنا البنت الأثيوبية.

استقرت شيرين في حياتها المنفصلة، لكن الطلاق لم يقع. طلب شريف منها الانتظار، ثم أبدى اعتراضه على احتفاظها بمريم إذا تزوجت. وهكذا قضت شيرين أيامها في شد وجذب حول موضوع الطلاق، تتصل بفخر الدين وتخبره بأن شريف وافق على تطليقها واحتفاظها بمريم، واعتذر عن المضايقات التي سببها لها وبرر ذلك برغبته في البقاء معهما، ثم بعد أيام أخرى تظهر على بابه وهي تبكي بحرقة وتقول إنها تشعر أن مصيرها سيكون مثل «أنا كارينينا» وأن شريف مصمم على أن يأخذ منها مريم أو على عدم تطليقها وهكذا.

وأثناء هذا الشد والجذب، كانت شيرين تقترب أكثر من فخر الدين. لم يكن قد حدث بينهما ما هو أكثر من احتضانها يوم جاءت لبيته في «سان دوني»، وحرص من وقتها على إبقاء مسافة بينهما لأنه يعرف إلى أي حد يريدها، وأنه لن يستطيع أن يتوقف إن اقتربت خطوة واحدة أكثر من اللازم. كان يتحرق شوقًا إليها. منذ أيام الجامعة ودار القضاء العالي وشارع النيل في الجيزة وهي تلهب خياله وتسيطر على رغبته بالكامل حتى لم يبق فيه رغبة بغيرها. ولم يقترب من امرأة أخرى منذ رحيلها. كانت هي المرأة. بامتداد قوامها وثنياته، برقبتها، بثنية خصرها، بركبتها، بمنابت شعرها عندما ترفعه إلى أعلى وبخصلاته حين تتهدل على وجهها غير عابئة، بابتسامتها التي تنير وجهها، وبعينيها النافذة. تأسره كل مرة يراها، وليس بحاجة لأن يراها كي يريدها. كان بحق عبدها، ويعرف أنه لن يتوقف إن لمسته، ومن ثَمَّ آثر البقاء بعيدًا عن هذا الملمس الذي لم يكن يريد شيئًا سواه.

كانا يقتربان بعضهما من بعض أكثر، ويقضيان أوقاتًا أطول سويًا، ولكن كانا أيضًا يختلفان ويتخاصمان كثيرًا. كانت الأشياء محل الخصام عادية، ولكن حدة رد فعل شيرين كان يفاجئه. في مرة، تناقشا حول دراسة فخر الدين وموضوع رسالته المستعصي عليه. نصحته بأن يختار موضوعًا عاديًا لا يستغرق وقتًا طويلًا في البحث بحيث ينهي الدكتوراه في أقرب فرصة. فقال لها إنه لا يريد موضوعًا عاديًا، بل يريد أن يكتب شيئًا يحدث فرقًا في دراسة القانون، وأن ذلك هو المبرر الوحيد الذي يمكن أن يقنعه بأن يقضي خمس سنوات من عمره في إعداد هذا البحث. قال إنه يريد أن يؤسس للقانون الدولي من وجهة نظر العالم الثالث، وبالذات من وجهة نظر عربية إسلامية، شيئًا مثل الذي فعله «جروتيوس» ولكن بنظرة غير أوربية. صمتت شيرين واغمق وجهها، ثم تعللت بصداع أصابها فجأة وقالت إنها ستخلد للنوم. رحل فخر الدين ليلتها وهو غير فاهم، واختفت ثلاثة أيام متواصلة ثم اتصلت به وقالت إنها تريد أن تنهي العلاقة التي بينهما وأنها لا تستطيع أن ترتبط بشخص مثله، وأنها الآن فقط فهمت سر الخلاف بينهما منذ أيام بين السرايات. وعندما سألها عن هذا السبب قالت له إنه مصاب بجنون العظمة، وأنها لا تستطيع ربط حياتها بهذا الجنون، وأغلقت السماعة واختفت لمدة أسبوع آخر.

ثم ظهرت على بابه في سان دوني مثلما جاءت أول مرة. بكت واعتذرت وقالت كم تحبه ولأي مدى لا تستطيع الحياة بدونه، وتصالحا. ثم تكررت نفس القصة بحذافيرها ولكن على خلفية رغبة فخر الدين العودة لمصر ومحاولة العثور على طريقة لإصلاح

الأمور التي يراها الجميع فاسدة ولا يفعلون شيئًا حيالها. قالت له إن هذه علامة عدم النضج وأنها تترك حياتها المستقرة وزوجها من أجل شخص غير ناضج. انزعج فخر الدين هذه المرة، محتجًا بأنها أكدت له في الماضي أنها تريد ترك زوجها في كل الأحوال وليس من أجله، وأنه لا يقبل بأن يكون بديلًا لزوجها، وافترقا. ثم عادت بعد أسبوع وأكدت له أنها لم تعنِ ما قالته، وتصالحا. لكنها عادت بعد أسبوعين وذكرت شيئًا مماثلًا فغضب هو وخاصمها، ثم تصالحا بعدها بأسبوع، وهكذا.

ثم أعلن شريف أنه لن يطلقها، لا بمريم ولا بدونها. وانهارت شيرين تمامًا. اتصلت بفخر الدين وطلبت منه المجيء، عندما وصل للمنزل وجدها نائمة وقالت له البنت الأثيوبية إنها أخذت بعض المهدئات ونامت، أما مريم فكانت تقضي عطلة نهاية الأسبوع عند أبيها. ظل فخر الدين جالسًا في صالة الشقة، وفي حوالي الثالثة صباحًا سمع صوت شيرين ينادي البنت الأثيوبية. غمغم من مكانه بأنها نائمة وسألها إن كانت تريد شيئًا. ران صمت يقطعه صوت بكائها، ثم تحول إلى نحيب. هرع إلى غرفتها فوجدها متكومة في نصف الفراش كما الجنين وتبكي بحرقة. أمسك بها وربت عليها وضمها وصوت نشيجها يتصاعد. احتضنها وهو يهدهدها حتى قل بكاؤها وبدأ تنفسها ينتظم. احتضنته بقوة وعادت للنوم. ظل راقدًا بجوارها محتضنها وهو يرتدي كامل ملابسه وحذاءه. التصقت به واستغرقت في النوم. ظل هكذا ساعة أو أكثر قليلًا، وهو مفتح العينين ينظر إليها. فتحت عينيها ووجدت وجهه بجوار وجهها على

الوسادة. ابتسمت وظلت تنظر إليه، ثم اقتربت من وجهه وقبلته على خده. ارتبك وابتسم ولم يتحرك. اقتربت كلها منه أكثر وقبلته قبلة طويلة وهى تلف ذراعيها حول رقبته وتغمض عينيها. قبلها ولف كفيه حول عنقها وهو يجذبها إليه. التصقت به أكثر ونهداها يستقران على صدره. وجهها في وجهه وعيناها مفتوحتان وشعرها الأسود ينسدل بغزارة عليهما فيغطيهما سويًا. مدت يدها وحررت نفسها من قميصها فبان جسمها الأبيض لعينيه من خلف شعرها. ارتعش حين استقر جيدها على بطنه لكن حرارة جسمها غمرته فأطلق العنان لعشقه المكتوم. أخذته كله لها، وصارت كلها له. ذابا، وتحابا حتى أنهكهما الحب والصباح.

* * *

اتصل به علي ذات ليلة في شقته، وشرح له لأي مدى تدهورت الحالة النفسية للخالة رغم محاولاته ومحاولات حسين وأشرف طمأنتها، وأنها باتت تعتقد أن ولديها قد ماتا وأن الأصدقاء يخفون ذلك عنها. قال علي إنها لا تكاد تأكل، وأن السكر والضغط يزدادان سوءًا، وأصبحت تحتاج لرعاية يومية ومستديمة. كذلك فهم فخر الدين من حديث علي غير المباشر أن الأبواب قد أوصدت في وجه أصدقائه أكثر. أخبره أن أشرف بدأ بالفعل إجراءات دخول سلك الرهبان واجتاز أول الاختبارات ويقبع حاليًا في عزلة بدير بالساحل الشمالي كاختبار لمدى تصميمه. وأن حسين يعمل في مكتب محاماة متخصص في الدفاع عن شباب الجماعات تديره المحامية المشهورة داليا الشناوي، وأنه، علي، لا يفعل شيئًا أكثر من قضاء الوقت في المقهى.

أقلقه حديثه، وود لو استطاع الذهاب لمصر ولو في رحلة قصيرة. لكن المخاطر تجعل ذلك مستحيلًا. لقد سلمت الجرة مرة، وليس من الحكمة أن يعاود الكرة ذهابًا وإيابًا. كما يمكن عند وصوله أن يطلبه الأمن، وساعتها ينكشف كل شيء. لا، لن يمكنه العودة لمصر الآن. قال لعلي أن يرتب له اتصالًا هاتفيًا مع الخالة كي يفهمها بنفسه الوضع. وطلب منه فقط أن يؤكد عليها «مراعاة الظروف أثناء المحادثة». كما طلب منه ترتيب اتصال آخر مع حسين في أي أمسية من أمسيات الأسبوع.

– وانت بتقضي وقتك إزاي؟

– ولا حاجة. باشوف خالتك إذا كانت عاوزة حاجة أعملها لها، وخالتك دي جامدة جوي ما شاء الله. عارفة كويس هي عايزة إيه. بعدين أجرا الجرايد، أنزل أشوف حد من الأصحاب أو أجعد لوحدي على الجهوة. ممكن اجعد كده بالساعات وبعدين ألاجي اليوم خلص أجوم أروح.

– طيب وبتجيب فلوس منين؟

– ربك بيرزج. أما باروح البلد باخد فلوس من أهلي. أي حد معدي ومعاه فلوس يديني. هو كده عندينا. ماتعرفش أصلًا دي فلوس مين. واحد باع أرض. واحد اشترى أرض، واحد باع محصول، أي حاجة يعني، كل ماحد يشوفني يعطيني فلوس. الظاهر هم يأسوا مني. جالك ده واد خربان باين عليه ومفيش أمل فيه فنعطيه احنا فلوس بدل ما يروح يعمل لنا مصيبة. أحيانًا أعمل شغله لحد، يعني تسجيل أرض، بيع مواشي، أي تراب، ويعطيني أي حاجة ما بجولش

لأ. وبعدين باروح آكل عند خالتك عشان هي بتنسى تاكل لما تكون لوحدها، فانا يعني تجريبًا كده باكل عندها كل يوم.

- ما شاء الله. دي حاجة عظيمه يا أخ علي! أبقاك الله ذخرًا.

- بص ما تتريجش عليه. أنا بصراحة كده ما ليش نفس أعمل حاجة. إيه اللي حايحصل يعني لو عملت ولا معملتش؟ ولا حاجة. وهو يعني أشرف ده حايعمل إيه في الدير؟ هو الراهب ده بيعمل حاجة؟ بيزرع زتون. طيب، أنا باخلي بالي من خالتك واونسها. والله ده أفيد من الزتون بتاع سي أشرف. ولا يا سيدي خليني زي أشرف، هو راهب في الدير وأنا راهب على الجهوة.

- ممتاز.

ضحك علي.

- مفيش أحسن من كده. مش هم مش عاجبهم نشتغل؟ خلاص، بلاها. آديني حاجعد لهم كده. ورزج الهبل على المجانين.

- طيب وحسين؟

- حسين ربنا يوفجه. بيشتغل مع الست المحامية المشهورة دي اللي بتطلع في التليفزيون كل يوم. اسمها إيه دي؟ ليلى ولا داليا الشناوي، حاجة كده. وطايحين في الخلايج هم والعيال بتوع الجماعات. عندينا في البلد خلاص أي حد مش لاجي حاجة يعملها يروح يشتغل معاهم. عنديهم شركات ومكاتب ويعطوك فلوس تبدأ مشروعات وحاجة عظيمة. ودلوجت هو بيشتغل في الحماية القانونية للي يتقبض عليهم. وبعدين بيرفعوا جضايا حسبة. يعني تيجى انت تجول حاجة مش

عاجباني - تكتب مقاله ولا تعمل كتاب فيه حاجة مش عاجباني - أجوم أروح لحسين أرفع جضية أطلجك من مرتك عشان الكلام اللي انت جلته يخليك مش مسلم وبالتالي ما ينفعش تبجى متجوزها.

- طيب ولو هي قالت نفس الكلام؟

- تبجوا انتوا الاتنين كفرة ويطلع لكم واحد تاني يطخكم وينتهي الموضوع. حاجة مفتخرة.

- ما شاء الله.

- ماتجولش ما شاء الله وتسكت، لازم تجول ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. انت حاتودي روحك في داهيه يا بن الناس!

* * *

قال دميان وهو يعبث بمفاتيح سيارته:

- إن أردت البقاء في فرنسا، فعليك الخروج من سان دوني.

- لماذا؟ ما عيب سان دوني؟

- سان دوني بلد البنتيرة والمرجيز. هل تريد أن يكون هذا مصيرك هنا؟ إذا أردت أن تصبح محاميًا أو أستاذًا فعليك بالفرار من هناك.

- عليَّ أن أفر وأترك بقية أهلي؟

- بالضبط. إما أن تظل مع أهلك في سان دوني وتصبح واحدًا منهم، أو تفر وتندمج في المجتمع الفرنسي.

- ألا يمكن الجمع بين الاثنين؟

- لا، تعدد الزوجات هنا ممنوع. انظر لي أنا؟ لماذا تم قبولي كفرنسي؟ لأني استطعت بفضل التعليم المتميز الذي منحني إياه السيد الوالد بأمواله أن أثبت للآخرين أني جدير بعضوية النخبة. إن كانت أصولك عربية عليك أن تختار بين محاولة الانضمام للنخبة - بشروط أصعب - وبين بيع اللحم الحلال وأعمال البنتيرة في الضواحي.

- لكني لا أريد أن أهرب من أهلي. هذا لا معنى له. لو كنت أريد حلًا شخصيًا، حلًا لي أنا وحدي، لما تكبدت كل ما تكبدت من مشاق. كان يمكن أن أكون ذلك الشخص منذ زمن، دون سفر ودون غربة!

- لكنك هنا الآن، أليس كذلك؟ وعليك أن تختار. إما أن تظل مع الباقين وتكون مثلهم «عربي سيئ»، أو أن تفر بجلدك وتصبح «عربي جيد» مثلي.

- أنا يا سيدي «عربي غير معتاد» مثلما يقولون لي.

- أترى؟ هذه هي البشارة. ألف مبروك. هذا يعني أن الباب مفتوح لك لتنضم إلى النخبة.

- وحدي؟

- لا أحد يرغمك! تذكرة المترو بستة فرنكات، وستحملك إلى سان دوني في أقل من ساعة!

* * *

لم يصدق فخر الدين نفسه عندما سمع صوت خالته آتيًا من الناحية الأخرى من التليفون. قالت «يا حبيبي يا بني» ثم صمتت،

ولكنه كان يسمع صوت بكائها المكتوم. سألته عن أحواله، وسألها عن أحوالها. تحدثا في كل شيء لكنها لم تذكر ابنها. دار فخر الدين حول الموضوع وشعر بأنها تعرف. تحدث عن حياته بباريس وعن الدراسة وعن الناس، ثم أبدى الأسف أن عيسى لم يكتب له أن يرى كل هذه الأشياء. وهنا صمتت الخالة مرة أخرى وسمع نهنهتها وهي تبكي. بعد صمت آخر قالت في صوت عميق:

– قدر ولطف. أنا كان قلبي حاسس من يومها، بس الحمد لله قدر أخف من قدر. أنا كنت فاكراكم انتو الاتنين رحتم. الحمد لله انك بخير يا بني. قدر ومكتوب؛ حانعمل إيه؟ هو فيه حد بيغير المكتوب؟ انتو كنتوا اخوات. والله كنت باتلخبط فيكم. ربنا عوضني عنه بيك.

– معلش ياخالتي، مسيري أرجع وأدفَّع اللي كان السبب تمن أعماله.

– ويفيد بإيه يابني؟ ماتخليش اللي راح يضيع اللي جاي.

– يعني نسكت يا خاله؟ نقبل ونمشي جنب الحيط؟

– بص يا بني، أنا حاقولك على حاجة واسمعها مني كويس. إنت واخوك ما شاء الله محدش يعرف يغلبكم في الكلام، بس انا برضه أمكم والشعر الشايب ده ليه قيمة برضه، فاسمعني وفكر في اللي حاقوله لك كويس. العيلة دي نص ولادها راحوا لأنهم ما بيعرفوش يشوفوا الظلم ويسكتوا. ده نصيب. هوه فكرك انا ما كنتش فاهمة لما كنتوا تقعدوا بالساعات تتكلموا وتروحوا وتيجوا في مواعيد غريبة مع ناس غريبة؟ وشي ورق طالع وورق نازل وتليفونات ومواعيد وناس

تسأل عليكم. الأم يا ضنايا بتحس. أنا بس كنت بادعي ربنا يجيب العواقب سليمة. قدر ولطف ونشكره ونحمده. أهو أخوك راح. وأنا مش حاقولك تبطّل. كمل يا بني في طريقك وربنا معاك. بس انا عايزاك توعدني ترجعلي سليم. اعمل اللي تعمله، بس ارجع سليم. بكفايه يا بني. فكر في امك وحافظ على نفسك عشان انا ما عادليش غيرك. كله بيروح وبيفضل ملح الأرض؛ بيفضل الفلاح، اللي بيعيش وبيفلح أرضه وبيزرع وبيجني. وحياتك ما تنسى، عشان خاطر امك.

- حاضر، مش حانسى إن شاء الله.

- وليه طلب تاني.

- اللي تقولي عليه.

- عايزاك تبعت تجيب ليلى بنت عمك تقعد معايا.

- ليلى؟

- أيوه. تلاقيها ياحرام قاعده زي الوردة الدبلانة. أكيد أخوها المجرم عمل فيها زي ما أبوه عمل في اخته، ما هو عرق.

- طيب حاضر، حاقول لعلي يتصرف.

* * *

أصبح فخر الدين وشيرين يعيشان سويًا تقريبًا. تذهب البنت الأثيوبية بمريم إلى شريف في صباح الجمعة، ويأتي فخر الدين من الجامعة عند الظهيرة ويظل مقيمًا مع شيرين حتى صباح الاثنين حين يذهب للجامعة وتذهب هي لإحضار مريم. وخلال بقية أيام الأسبوع،

يقيم كل منهما بمنزله ولكنهما يخرجان سويًا وأحيانًا مع مريم. كان فخر الدين قلقًا من غياب اتفاق واضح حول موعد الطلاق أو طريقته. وتناقشا كثيرًا في كيفية التغلب على معارضات شريف المختلفة، وما إذا كان من الحكمة الضغط عليه من خلال الأقارب أو رفع قضية، وقال فخر الدين ذات يوم إنه مستعد أن يذهب إليه ويصارحه بعلاقتهما بالكامل، فقالت شيرين في بساطة إنها فعلت ذلك، وأنه يعرف وما زال مصممًا على عدم الطلاق. لم تعجبه هذه الحالة الثلاثية وما بدا أحيانًا أنه تماشي من جانبها مع هذا الترتيب. غضبت عندما قال لها هذا، وتخاصما أسبوعًا، ثم تصالحا، وتحابا، وعادا كما كانا. ولكن قلق فخر الدين لم يتلاش، وزاده استمرار لجوء شيرين للمهدئات كي تنام. قالت إنها اعتادت عليها، وإن الجميع في فرنسا ينام بالمهدئات، وإنها تأمل أن تتوقف عن المهدئات تمامًا حين تنتهي من حياتها السابقة التي لا تريد أن تغادرها. اقترح أن ترفع قضية طلاق في فرنسا، حيث القانون أقرب لإنصاف النساء، فاستبعدت أن يمكنها القضاء من حضانة مريم، حيث يمكن لشريف إثبات خيانتها له، إضافة لكل الفضيحة التي ستأتي مع ذلك. طلبت منه الانتظار بضعة شهور أخرى كي تحاول معه بهدوء، ووافق، لكنه لم يكن سعيدًا.

ظلا يتخاصمان كثيرًا، وفي كل مرة يبدو كأنهما سيقطعان علاقتهما بعضهما ببعض، وأحيانًا تلوح شيرين بأنها ستعود لحياتها القديمة، فيغضب، ثم تعود وتؤكد أنها لن تستطيع العودة لحياتها القديمة لأنها لم تكن حياة. شيرين في حيرة من أمرها، فهي وإن كانت تعلم جيدًا أنها لن تستطيع العودة لحياتها السابقة، فإنها ليست متأكدة من قدرتها على بناء حياة جديدة مع فخر الدين. سألته:

- هو إيه اللي اتغير؟

- أفندم؟

- قصدي ليه تفتكر دلوقتي حانقدر نبني حياة مع بعض؟

- جايز لأننا عرفنا قد إيه حياتنا من غير بعضنا مش حياة.

- أنا عرفت كده، لكن انت: إيه اللي اتغير فيك؟

- مش عارف. جايز بقيت أقل سذاجة.

- تفتكر؟

- انتي إيه رأيك؟

- مش عارفة. أحيانًا باصدق كده، وبعدين تقوم انت قايل حاجة تخليني افتكر العكس.

- زي حكاية إني أرجع مصر وأكمل اللي كنت باعمله؟

- زي كده، وزي إصرارك إنك تعيش في سان دوني.

- مالها سان دوني؟

- أيوه، ده بالضبط اللي اقصده: «مالها سان دوني؟». فاكر: «مالها بين السرايات؟» نفس الموقف.

- والمرة دي برضه حاتسيبيني؟

- لأ، مش حاقدر أسيبك المرة دي خلاص. بس برضه مش متأكدة إني حاقدر أفضل معاك.

* * *

- آلو. الأستاذ عيسى؟

- أهلًا. أخ حسين. مبروك يا سيدي الشغل الجديد. داليا الشناوي؟ إحنا خلاص بقينا بنشتغل رسمي مع الجماعة؟

- ده مكتب محاماة يا أستاذ. وبعدين يعني أنا لقيت حد تاني بيشتغل وقلت لأ؟ ما هو على يدك. أعمل زي علي واقعد على القهوة مقموص مستني يصالحوني؟ ولا ناصر اللي ما بيفوقش؟ ولا أخش الدير زي سي أشرف؟

- طيب والتزمت، والجنازير بتاعة الجامعة؟ والاغتيالات، تساعد في ده؟

- أنا ما بساعدش في حاجة يا عم انت عايز توديني في داهيه! احنا دورنا حماية الحقوق القانونية للشباب المتهم في قضايا عنف. هو القاتل مش له الحق في محاكمة عادلة؟ مش لازم النيابة تثبت إنه قتل ولا يروحوا يجيبوا أي واحد بدقن ويلبسوه التهمه وخلاص؟

- والعنف؟

- محدش قال لك اشترك فيه. وبعدين هي الدولة - واهم لا مؤاخذه سامعينا - بتبعت لهم ورد؟ العنف حله انك تحتويه. بص، الرأي مش واحد زي مانت متصور، فيه اختلافات وحوارات داخلية كتيرة. الجماعة بتتغير، وفيه جيل جديد بيظهر. داليا نفسها مثال. هوه كان فيه حاجة اسمها ستات في القيادة؟ وبعدين الانغلاق موجود موجود، بس كل ما يكون فيه ناس متفتحة كل ما تواجه الانغلاق ده أفضل. المعركة الحقيقية جوه الجماعات مش براها. الإطار اللي الجماعات بتتحرك

فيه هو الإطار الحضاري اللي حايكسب واللي حايسود، لأن دي هوية المجتمع الحقيقية. فهل تسيب الإطار ده لوجهات النظر المتزمتة ولا تدخل وتدعم وجهات النظر الأكثر تفتحًا؟

- وانت مش شايف إنك بتبرر لنفسك التعاون مع الناس دي؟ مش شايف ان المتطرفين دايمًا بيبلعوا المتفتحين ويستخدموهم؟

- أبدًا. وبعدين زي ما قلت لك؛ لو عندك خيار أفضل دلني عليه.

- لو كان عندي ما كانش ده بقى حالي.

- طيب، خللي بالك من نفسك، وسلم على اللي عندك. سلام يا صاحبي.

- عليكم السلام يا أخي!

* * *

عزيزي ناصر

قرأت خطابك الأخير عشر مرات، والذي أوضحت فيه بما لا يدع أي مجال للشك أنك أصبحت ترى أن الحل الوحيد هو الاستسلام والسقوط فيما تسميه أنت بنفسك الرخاوة والعدم. وفهمت أنك تركت سحر ترحل بعد خلافك معها على هذه النقطة. وأريد أن أسأل: لم لا تكون المشكلة فيك أنت؟ بمعنى أنك تخشى المحاولة، تخشى أن يكون هناك حل، لأنك ساعتها ستضطر للتحرك ولأن تواجه فرص النجاح والفشل؛ إنك خائف من الفشل.

أتخوف الآن من وقع هذا الكلام عليك. أنا مستعد لصفعك إن لزم الأمر كي تفيق، لكنني لا أريدك أن ترفض ما أقول وتتقوقع

على نفسك أو تغرق كلماتي في زجاجة ويسكي أخرى. كن رجلًا، وواجه المشكلة.

أنت لست ضعيفًا. لو كنت ضعيفًا ما ظللت حيًا حتى الآن، ولما خرجت من حياتك القديمة بالمنصورة وتركت العمل بمشروع كهرباء طلخا الذي كان يقتلك، ولما تكبدت العناء الذي تكبدته كي تغير حياتك. لو كنت ضعيفًا لمت في أروقة الوكالة التعيسة التي لا عمل بها، ولو كنت ضعيفًا ما أحبتك كل هؤلاء النساء ولما هجرتهن. ضعفك المزعوم يا صديقي، في ظني، ما هو إلا حجة تسوغ بها لنفسك عدم تحمل المسئولية عن أفعالك.

أعتقد أنك تدين لنفسك على الأقل بأن تصارحها. وأعتقد أن الوقت حان للكف عن هذه الترهات وأن تتحمل مسئولية نفسك. العالم سيئ، والحياة بها من الآلام الكثير - يعلم الله أني أدرك ذلك. لكن كلًا منا عليه أن يسعى، لا أن يسقط على الأرض ويتمدد حتى يموت.

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب لك هذا الخطاب. لكني متأكد أن بيننا ما يسمح لي بأن أكون صريحًا معك في هذا الوقت الحرج. وإن تجاوزت حدي فعذري أني أحبك، وأنك أخي الذي تربطني به محبة بلا شروط، وأنك تعلم ذلك، والسلام.

عيسى

* * *

كانت شيرين في الحمام عندما سمع فخر الدين صوتها تصرخ. دخل فوجدها جالسة على الأرض وشعرها مهوش وفي يدها أنبوبة بيضاء وهي تصرخ:

- أزرق، أزرق. خد بص كده؟ مش ده أزرق؟

نظر حوله فوجد ثلاثة أنابيب أخرى ملقاة على الأرض. ظل يحدق بها في انتظار التفسير. صرخت وعيناها محمرة من بين شعرها الذي يغطي وجهها:

- انت ما بتفهمش؟ انت ما بتفهمش حاجة أبدًا؟ ده أزرق. عارف يعني إيه أزرق؟ كلهم زرق. بص. كلهم زرق، زرق، زرق. سامعني؟ زرق.

فهم. الآن فهم. اقترب منها يحتضنها لكنها أبعدته بيدها وظلت تصرخ وتبدل في الأنابيب وتبحث عن إرشادات الاستخدام المكتوبة على العلب. ثم قامت تجري لتحضر التليفون وطلبت رقمًا لم يرد فألقت بالتليفون في البانيو المليء بالماء. تبكي وتمسك رأسها بيديها وكلما حاول الاقتراب منها انتفضت. أتت البنت الأثيوبية وأعطتها بعض الأدوية وأخذتها من يدها وقادتها للفراش وغطتها. وبعد نصف ساعة من البكاء والنحيب الهادئ نامت.

شيرين حامل.

عندما استيقظت كانت ملامحها جامدة ويبدو عليها التصميم ووضوح الرؤية.

- بس عشان نكون واضحين، الحمل ده مش ممكن يستمر.

- انت بتقولي إيه؟

- بص، مش عايزة شغل مجانين. كفاية كده. سيبك اني ست متجوزة. أنا ما قدرش أكمل الحمل ده. أنا كنت باخد بروزاك من

ساعة ولادة مريم ولسه خارجة منه ما بقاليش كام شهر وجسمي كله مواد كيميائية. ما ينفعش أعرّض أي جنين لحاجة زي كده.

– بروزاك؟ إيه بروزاك ده؟

– بروزاك: مضاد الاكتئاب، ما سمعتش عنه؟

– لأ، بس دي مسألة يحسمها الأطباء مش انتي.

تنفست بعمق وقالت ببطء وهي تضغط على مخارج الكلمات:

– أنا أدمنت البروزاك، مش كنت باخده كده، أدمنته. أنا رحت مصحة عشان أبطله. قعدت ثلاثة شهور في المصحة. الدكتور قال لي بوضوح مش لازم تحملي.

صمت فخر الدين لحظة يفكر، ثم قال:

– بس انتي حامل دلوقت. احنا منعرفش إيه اللي حصل في جسمك من ساعتها.

علا صوتها:

– انا متجوزة راجل تاني، انا ما تطلقتش. ومقدرش أخلّف منك. مفيش حاجة نناقشها. مفيش حمل.

– حبيبتي انتي حامل دلوقت؛ إحنا مش بنناقش حاجة للمستقبل. إنتي حامل. الطلاق لازم حايتم. جايز هي دي الحاجة اللي حاتنهي المسألة.

– هوه إيه اللي الطلاق لازم حايتم؟ ده إيه بالضبط؟ «الغازية لازم تنزل» ولا «جواز عتريس من فؤاده باطل»؟ مفيش حمل حايستمر. مفيش ولاد حاييجوا. أنا مش عايزة طفل يقاسم مريم في ميراثها.

صمت فخر الدين واختلط عليه ما تقول.

- ميراث مين؟

- ميراث مريم؛ الثروة اللي أبويا سابها لي مش دي ميراث مريم؟

- ميراثها منك انتي؟

- أيوه.

- إحنا حانخطط للميراث من دلوقتي؟ هو فيه حاجة اسمها كده؟ طيب ما كان ممكن تجيبي طفل تاني أخ أو أخت لمريم قبل ما نتقابل: فرقت إيه؟

- أهو ما جبتش، ومش عايزاها تقسم ميراثها مع حد.

- ميراث إيه يا شيرين انتي اتجننتي؟ وبعدين ربنا يخليكي لها، تفتكري يعني هي ممكن تبقى محتاجة فلوس؟

- الميراث ده مش فلوس للصرف. هو انت فاكرني ممكن أصرف الملايين اللي أبويا سايبهالي دي؟ ده انا لو قعدت ابعتر فيها كل يوم مش حاتخلص. الميراث ده رأس مال اجتماعي، يحدد مكانتك في المجتمع.

صمت فخر الدين ولم يرد. في الحقيقة أنه لم يكن قد فكر من قبل في المال بهذه الطريقة. المال بالنسبة له وسيلة لشراء أشياء. ربت على كتفها وقال لها أن تستريح فأزاحت يده وقالت إنها ليست مجنونة، وليس معنى أنها أدمنت البروزاك مرة أو حاولت الانتحار مرة أنها مجنونة. ثم صمتت، ولم تتحدث ثانية ذلك اليوم. جاءت

البنت الأثيوبية بالطعام فأشارت لها أن تعود به، وظلت جالسة بلا حراك حتى هبط الليل. استأذن فخر الدين ورحل عائدًا لمنزله.

في الثانية صباحًا دق جرس التليفون في منزله، ورجته البنت الأثيوبية أن يأتي على الفور لأن حالة سيدتها سيئة. عندما وصل وجدها نائمة. قالت البنت الأثيوبية إن شيرين تحدثت مع طبيبها وأخذت بعض المهدئات ونامت. جلس بجانب فراشها طيلة الليل، وفي الصباح استيقظت هادئة. تناولا طعام الإفطار واعتذرت له عن إزعاجه في منتصف الليل ولكنها شعرت بأنها تفقد السيطرة على نفسها فقالت للبنت الأثيوبية أن تطلبه. ربتت على يده وشكرته على المجيء وعلى صبره عليها. قضيا اليوم في هدوء، وخرجت من الفراش وتنزها قليلًا حول المنزل.

- أنا مستعدة أفكر في الاحتفاظ بالجنين في حالة واحدة بس: لو اديتني أمارة إنك ممكن تبقى شخص مسئول.

- انتي محتاجة أمارة؟

- طبعًا!

- زي إيه طيب؟

- مثلًا إنك تقول لي بشكل واضح ناوي تعمل إيه في الدكتوراه وبعدها. ناوي تخلصها إمتى، وتشتغل إيه؟ حاتبقى أستاذ مثلًا في القانون هنا وتستقر في فرنسا ولا حاترجع مصر؟ ولو رجعت، حاترجع عشان تقود الثورة ولا حاترجع وتبقى شخص مسئول؟

- بس انا مش عايز أكدب عليكي أو أوعدك بحاجة مش متأكد منها. مش عارف إن كنت أقدر أقعد في فرنسا ولا لأ.

- ليه؟

- لأني مش فرنساوي، ومقدرش أتحول للنموذج الفرنساوي.

- ده كلام فارغ! إنت عارف انك أقرب ميت مرة للنموذج الفرنسي. ده المصريين بيعاملوك على إنك خواجة.

- حتى لو كلامك صحيح، برضه ما ينفعش. إنتي عارفه ده معناه إيه؟ معناه أمشي بيافطة على صدري بتقول: «مش زي بقية العرب». مش كده؟

- أيوه، وده اللي بيعمله أي عاقل. انت مش زي بقية العرب، مش زي الناس المزعجين في بيوتهم وما بيحترموش خصوصية غيرهم وبيتأخروا في المواعيد وبيوسخوا الدنيا حواليهم، وماشيين بمية عيل بيصرخوا، وفاشلين في الدراسة واتكاليين، وبقية القائمة اللي انت عارفها. إنت مش كده، وانا مش كده، ومفيش مبرر إني الزق فيهم.

- مفيش حل غير إنك تتلزقي فيهم، لأن محاولة إثبات إنك مش منهم فيها تحقير من شأن الواحد. وكمان مفيش فايدة، هم لازقين فيكي كده كده.

- إنت عارف إيه مشكلتك؟ مشكلتك إنك أعمى. بتبقى الفتحات موجودة قدامك عشان تخرج منها وتصمم ما تشوفهاش وترفض تخرج منها، وتفضل تتزنق تتزنق لغاية ما تتخنق وبعدين تشتكي إن الدنيا مسدودة في وشك. الحقيقة إن انت اللي بتسددها في وش نفسك.

- أنا ليه حاسس إن احنا اتناقشنا المناقشات دي قبل كده؟

- ما هو هوه ده بالضبط اللي أنا خايفة منه. ياللا من فضلك وصلني البيت.

عندما اتصل بها في الصباح لم يجدها. ظل يتصل كل ساعة حتى وجدها في التاسعة مساء. كانت تبكي. أخبرت شريف بحملها فأقسم ألا يطلقها إلا إن تخلت عن حضانة مريم وأعطته ضمانات لمستقبلها. حاولت شيرين معه كل الوسائل، من الاستعطاف إلى التهديد بالفضيحة، ولكنه لم يحد عن موقفه. لم تأكل شيئًا طيلة اليوم ورفضت تناول العشاء مع فخر الدين الذي هرع للمنزل. تركته ودخلت تنام وبقي فخر الدين جالسًا في قلق. في حوالي الثالثة صباحًا قامت شيرين وذهبت للحمام وغابت هناك، ثم سمع هرولة في المنزل. دقائق ورآها آتية والمربية تسندها من ذراعها حتى وصلت للأريكة وتمددت عليها. سألها عما بها فأخبرته بين دموعها أنها نزفت وربما تكون قد فقدت الجنين. ارتدى ملابسه بسرعة وحملها إلى المستشفى رغم اعتراضاتها بأن ينتظرا الصباح.

أكد الأطباء أن الجنين بخير، وأن النزيف توقف لكنه قد يعود. وكان رأيهم أن شيرين تعاني من سوء تغذية وانخفاض حاد في نسبة الحديد في الدم، كما أن ضغطها غير منتظم وليس هناك ما يضمن ألا يعود الرحم للتقلصات. أعطوها مزيدًا من المهدئات واحتجزوها عدة أيام للملاحظة. في اليوم التالي جاء طبيبها الخاص وفحصها واطّلع على نتائج التحليلات التي أجروها وتقرير أطباء الليل. وبعد مشاورات بين الأطباء أوصوا بإبقائها تحت الملاحظة المستمرة حتى موعد الوضع. أوضح الطبيب أن الجنين في بداية الشهر الرابع وبخير، وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بتعرضه لأي تشوهات أو عيوب

خلقية نتيجة الأدوية والمهدئات و«الأشياء الأخرى» التي كانت الأم تتعاطاها، ومن الممكن طبيًا استمرار الحمل وأن يخرج الجنين بصحة جيدة. الخطر الحقيقي، كما قال الطبيب، هو أن يحدث للأم شيء مفاجئ ولا يمكن إعطاؤها العناية الطبية اللازمة في الوقت الملائم، أو أن تقوم الأم خلال الحمل بما يضر بها أو بالجنين. ومن ثم ضرورة إبقائها تحت الملاحظة.

لم تبد شيرين مقاومة. كان تأثير الطبيب عليها واضحًا، فهو طبيبها منذ أتت لباريس وهو الذي عاصر مرحلة الاكتئاب العميق وإدمان مضاداته ومحاولة الانتحار، وهي تتصرف في حضوره كما تتصرف الطفلة بحضور أبيها. قبلت بالبقاء في المستشفى دون كثير نقاش، ونقلوها إلى جناح أكثر راحة وأبعد عن الحركة وأكبر بحيث تستطيع أن تحضر أشياءها الخاصة وتقيم الشهور المتبقية في حملها. قبلت بالبقاء في هدوء وإذعان أقرب للاستسلام. وشعر فخر الدين بالقلق من استسلامها هذا، وكان قلقه في موضعه.

* * *

القاهرة في ١٥ أغسطس ١٩٩٣

عزيزي عيسى

وصلني خطابك. وأريد أولًا أن أشكرك كثيرًا على صراحتك وعلى أشياء عديدة. أشكرك على محاولاتك العديدة إنقاذي من السقوط في هاوية العدم. وأشكرك على صداقة طويلة وعميقة، وعلى احتمالك لي ولسخافاتي العديدة ولكل هذا الوقت. خطابك الصريح دفعني للتفكير بقدر ما كان جارحًا: أي كثيرًا.

حان الوقت يا صديقي للصراحة المتبادلة.

أنا لست قاصرًا، وأنت لست أبي. أعترف أني جعلت منك أبًا لي لسنوات طوال، وأن هذا كان خطأ مني وأن هذه مشكلتي الشخصية أكثر مما هو خطؤك أنت. ولكن آن الأوان أن نبتعد عن هذا النموذج.

ربما لا أكون ضعيفًا مثلما تقول، وربما أكون أتحجج بالضعف للتهرب من المسئوليات التي تقول إنها ملقاة على عاتقي، ولكني لا أعرف عن أي مسئوليات تتحدث ومن الذي يلقيها على عاتقي. أنا لي، ويمكنني أن أفعل ما أريد، وإن كان هذا يخيب توقعاتك في، فهذا في الحقيقة شأنك أنت، لا أنا.

نعم تخليت عنك في الماضي، نعم تركتك ترحل وحيدًا وخرقت العهد الذي كان بيننا، لكن ذلك حدث منذ سنوات طويلة، ولقد دفعت ثمن ذلك أنا نفسي، ولن أعيش الدهر أبدي الأسف. خلاص.

وكيلا أتخلى عنك ثانية أقول لك من الآن شكرًا: لا أريد أن آتي للعيش في فرنسا، وأفضل السكر هنا على اللهاث خلف أنباء لا قيمة لها في عاصمة لا أحبها بالضرورة.

لقد عثرت على، أو بالأدق عثرت عليَّ وظيفة مترجم بالأمم المتحدة في نيويورك. وأنا أعلم أنها وظيفة تافهة، ولكني لا آبه. لقد قبلتها، ومعي التذاكر بالفعل وسأرحل إلى نيويورك غدًا، ربما أكون هناك عندما يصلك ذلك الخطاب. ستقول لي ألا أقبلها وألا أضيع وقتي في وظيفة ميتة أخرى ربما تقتل ما تبقي فيَّ من روح، ولكني لا أريد أن أرضخ لكلامك بعد الآن. ولذا يجب أن أعيش في مكان لا أجدك فيه كل يوم.

مع حبي.

ناصر

* * *

في الأسابيع التي تلت، كانت شيرين تذوي في هدوء. استسلمت أولًا لقرار شريف إبقاء مريم معه طول إقامتها بالمستشفى، وأصبحت مريم تأتي لزيارتها مرتين فقط في الأسبوع؛ تبقى ساعة ثم ترحل مع السائق. زاد نحولها وواصلت عدم الأكل بشكل كاف. امتدت فترات صمتها، وأصبحت إيماءاتها أكثر من كلماتها. وفي بداية الشهر السابع نزفت مرة أخرى وتعرضت حياتها وحياة الجنين للخطر. ومع أنها اجتازت الأزمة بسلام، إلا أن نظراتها تاهت ولم تعد بالتركيز الذي كانت عليه. أبدى طبيبها القلق من أن تكون شيرين تعود للاكتئاب العميق الذي كانت تعاني منه عندما التقاها أول مرة. سأل فخر الدين عن أحوالها خلال الشهور التي مضت وفوجئ عندما علم أن شيرين كانت لا تزال تلجأ للمهدئات؛ فقد كان يظن أنها شفيت من إدمان هذه الأقراص. ومع كل أسبوع يمر، تنسحب شيرين أكثر وتذوي نظرتها أكثر، حتى إنها أحيانًا لا تلاحظ ابنتها عندما تأتي لتزورها. قال الطبيب إنه لا يوجد الكثير مما يمكن عمله في هذه المرحلة؛ حتى الإجهاض أصبح يشكل خطرًا على حياتها. وتركزت العناية الطبية على إطعامها وتغذيتها وتقوية جسدها لمساعدتها على اجتياز الأسابيع الأخيرة بسلام. كان فخر الدين مقيمًا بالمستشفى معظم الوقت؛ يغادرها في آخر الليل إلى المنزل ويعود إليها في الصباح. توقف عن حضور الدروس بالجامعة، واعتذر عن لقاء أستاذه عندما حل الموعد.

لكن شيرين كانت قد استسلمت بالكامل، وعندما نزفت للمرة الثالثة والأخيرة في بداية الشهر الثامن ودخلت فيما بدا أنه غيبوبة، قرر الأطباء التدخل الجراحي قبل أن يفوت الأوان. تشاوروا، واستدعوا الزوج ليخبروه وليوقع على الأوراق. جاء شريف، وتنحى فخر الدين

جانبًا، وتناقش مع الأطباء وقرروا، وفخر الدين واقف في غرفة الانتظار لا يتناقش ولا يقرر. وافق الزوج، المالك الرسمي، ومضى الأطباء قدمًا. استغرقت العملية وقتًا قصيرًا نسبيًا، خرجت الممرضة بعدها تدفع عربة صغيرة تحمل المولود. جرى فخر الدين ونظر إلى وجهه الأحمر المغضن الخارج لتوه من رحم حبيبته. حاول أن يلمسه لكن الممرضة أوقفته وأخذت الصبي لحضّانة العناية الخاصة. غادر شريف بعد أن وقع الأوراق اللازمة وظل فخر الدين جالسًا في الممر المؤدي لغرفة العمليات. بعد ساعة أخرى جاء الأطباء من آخر الممر وهم يهزون رؤوسهم أسفًا. انتحى الطبيب الخاص بفخر الدين وأبلغه بأسى حقيقي أنهم فعلوا ما بوسعهم، ولكن شيرين أسلمت الروح.

* * *

حل الصقيع على فخر الدين. كأن الضوء قد ذهب من حياته فجأة. كأن الألوان قد اختفت من حوله مثلما كانت شيرين تقول له: أصبحت الدنيا أبيض وأسود، بل رمادي وأسود. أصبح كالحاضر الغائب. يجلس في وسط الناس ولا يسمع ما يقولونه، وأحيانًا لا يراهم. أحيانًا يقوم من بينهم ويخرج فجأة وكأنه قد رأى شيئًا لم يروه. كان كمن فقد السمع: غابت الأصوات من حوله وحل محلها طنين بعيد. يسمع ضوضاء بعيدة لكنه لا يميز ما يقوله الناس معظم الوقت. ضاعت ملامح الأشياء وخلفت أشكالًا هائمة تعترض طريقه حين يسير، أحيانًا يمر من خلالها وأحيانًا يشعر أنها سترتطم به فينتفض فجأة ويغير من مساره. في تشتيت ذهنه صارت الأشياء في عينيه ومضات مغلفة بطنين وصمت محيط.

وقف فخر الدين وحده في شتاء باريس يحمل طفلًا رضيعًا ولا يعرف أين يذهب به. لا يفهم بعد ما حدث ولا كيف. كيف تموت شيرين؟ كان يفهم حين تتركه، يفهم حين تطغى خلافاتهما وتبعدهما. بل فهم حين تزوجت بآخر وتخلت عنه. آلمه ذلك كثيرًا، أصابه في مقتل، لكنه فهم معنى فعلتها. أما الآن فهو لا يفهم معنى الحدث نفسه. كالطفل الذي فقد أمه: يقول لنفسه إنها سافرت وإنها لا بد عائدة يومًا. ولكنه ليس طفلًا، وهو يعلم أنها لن تعود، ولا يفهم كيف حدث هذا ولا لِمَ.

جاء شريف وحمل جثة شيرين، في تذكرة مُرّة بأنه ما يزال المالك القانوني لهذه المرأة. لم يعارض أن يسجل فخر الدين الصبي باسمه، أي باسم عيسى النجار، بل تساءل متهكمًا إن كان يظن أنه سيربي له ابنه. فخر الدين ينظر إليه ولا يفهم من أين يأتي بالقدرة على التهكم. اشترط شريف في المقابل أن يوقع فخر الدين له على تنازل عن أي ميراث قد يكون للطفل. وقع فخر الدين، لا شيء أحب إليه من أن ينأى بنفسه وبابنه عن هذه الثروة اللعينة التي أكلت حياة حبيبته. أسمى الصبي عمر، وكتب تحت اسم الأب عيسى النجار، والأم شيرين حسن. وفكر أنه ليس مقدرًا لهما أن يقرنا اسميهما، ولا حتى في شهادة ميلاد طفلهما.

ذهبت شيرين، وشعر فخر الدين أنْ قلبه رحل معها. لم يتوقف ليسأل نفسه لِمَ؟ لِمَ أحب هذه المرأة، ولِمَ أصبحت بهذه الأهمية في حياته. لم يسأل نفسه ما الذي جرته عليه هذه العلاقة المعقدة وغير العادلة، التي كان هو فيها دومًا من يدفع ثمن ضعفها وأحيانًا أنانيتها. لم يسأل نفسه هذه الأسئلة، ومتى سأل المحب نفسه.

ذهبت شيرين لكنها ظلت معه. يراها في الليل كثيرًا وأحيانًا في النهار. يصحو من نومه وهو يشعر بوجودها بجواره. ليس طيفها، بل هي. يحدثها أحيانًا، وينظر إليه الناس في شك، لكنه لا يأبه. عاتبها على رحيلها مرة أخرى، واعتذرت. قالت له إن الأمر فاق قدرتها على الاحتمال، وكان عليها أن تترك العنان لأنها لم تعد تحتمل الضغوط. قالت إنها لم تحتمل، فتركت تفاصيل الحياة لهؤلاء الذين يضغطون عليها وبقيت له وحده، هو فقط من يراها. وعدته أن تظل معه ولا تتركه ثانية أبدًا، وعانقها وظل يشعر بها ممدودة بجواره تربت عليه حتى غفا. حين استيقظ في الصباح لم يجدها، لكنه رآها في الليل. كان يحدثها حتى حين لا يراها، ويسمعها ترد عليه. يحكي لها عن عمر وكيف يعتني به ويسألها النصح في أشياء، وتجيبه. سألها عن مريم فغامت نظرتها وأطرقت، وقالت إن شريف يمنعها من رؤيتها. شعر بها تضع يدها على يده وسمعها تطلب منه أن يذهب لرؤيتها، فذهب لمدرستها ورآها من بعيد، لكنه خاف أن يتسبب لها في مشاكل مع أبيها إن حدثها فرحل ولم يعد ليراها ثانية.

رغم الطنين والتهيؤات والأشباح إلا أن فخر الدين قد اعتنى بعمر وحمل حياته بين أصابعه. وجد نفسه وفي يده كتلة من اللحم الطري التي تطالب باحتياجاتها بانتظام لا يدع للحزن فرصة للانفراد به. كان لا بد له من العناية به؛ تعلم كيف وماذا يطعمه، ومتى يطعمه، وصار يعد له وجبة الليل ويضعها بجواره في الفراش في ماء دافئ حتى يطعمه إياها حين يستيقظ في عمق الليل صارخًا. ذهب لأرفف طعام الأطفال في السوبر ماركت وتعلم الفروق بين الخلطات، ثم علمه طبيب الأطفال كيف يعد خلطات أخرى أكثر صحية. تعلم كيف يحمّيه وكيف يغير له ملابسه، وهكذا.

ساعده أبو ياسر وزوجته في العناية بعمر، وكان بيتهما مفتوحًا دائمًا له عندما يريد فخر الدين الذهاب لقضاء حاجة. إلا أن البقاء في باريس أصبح جلي العبث. كان فخر الدين قد توقف عن الدراسة منذ شهور طويلة، وهي دراسة لم يكن قد بدأها فعليًا، ولديه شكوك قوية حول جدواها. تحدث مطولًا مع دميان الذي عارض رحيله بشدة. لكنه كان يريد الرحيل من ذلك المكان الذي أرخى الموت عليه جناحيه. لم يعد يرى سببًا واحدًا للبقاء. المكان موصد الأبواب من الأصل، ولا مكان له به. موت شيرين كان القشة الأخيرة لكنه كان يعلم منذ فترة أن رحيله مسألة وقت ليس إلا. ولكن إلى أين؟ لا يستطيع العودة لمصر ولا يعرف إلى أين يذهب غير مصر. تحدث مع أبي ياسر فقال له إن لديه أصدقاء في دول عربية وربما يستطيع أن يجد له عملًا كمحام أو محاسب قانوني، وأومأ فخر الدين بالموافقة.

بعدها بأسبوع عاد أبو ياسر وهو يبشره بأنه وجد له عملًا مع شركة استثمار خليجية تريد محاميًا يتولى الجوانب القانونية لاستثماراتها في السودان، وأنهم سيدفعون مرتبًا مجزيًا ويتولون ترتيب الإقامة وسائر النواحي العملية، بما فيها مربية للطفل. وافق فخر الدين سريعًا، وبعدها بأسبوعين، بدأ هو وعمر رحلتهما الأولى سويًا.

* * *

الفصل الرابع

العمـارات

وصل فخر الدين الخرطوم ليلًا بعد رحلة طويلة. عمر في شهره الرابع، وإطعام رضيع وتغيير لفائفه وإلهاؤه في رحلة بهذا الطول ليس سهلًا. كما آلم تغير الضغط داخل الطائرة أذنيه بما جعل مزاجه العام سيئًا، فقضى الرحلة بين أنين متكدر وصراخ، وفخر الدين يحاول أن يهدئ من روعه دون جدوى. حطت الطائرة أخيرًا على أرض المطار. خرج من باب الطائرة فلفحه هواء دافئ؛ رطب وأثقل من الهواء العادي. لم يجد حافلة في الانتظار وإنما أشار له رجل أمن يرتدي ملابس زرقاء بأن يسير على الممر في اتجاه مبنى المطار. سار مع المسافرين وهو يحمل عمر. فاجأه حجم مبنى المطار؛ مبنى صغير من طابق واحد، وبرج قصير للمراقبة، وباب من الألمونيوم. المبنى كله في حجم محطة السكة الحديد بالمنصورة، وهناك الكثير من الناموس. فتح الباب ودخل: مصابيح النيون تزن، عساكر منتشرون في المكان، سور من الألمونيوم في وسطه كشك

صغير من الألمونيوم أيضًا ويمتد أمامه صف طويل من المسافرين. في السور فتحات أخرى بجوارها أكشاك مماثلة مغلقة ومعلق عليها يافطات تقول: سودانيون، عرب، أجانب. وقف جميع الركاب في الصف الوحيد، وبعد نصف ساعة وصل فخر الدين إلى الكشك. نظر له العسكري من النافذة وتناول جواز سفره ثم أعاده له طالبًا منه ملء استمارة دخول. خرج من الصف وظل يبحث عن مكان الاستمارة حتى دلّه أحد قدامى الركاب على مكانها. ملأ البيانات وعاد إلى الصف من جديد. بعد نصف ساعة أخرى ختم جواز سفره وعبر الحاجز الألمونيوم.

عمر مقطب الجبين ولا يزال مزاجه متكدرًا. فخر الدين يبحث عن الحقائب ويحاول إبعاد الناموس عن بشرة عمر الناعمة. «سير الحقائب» لا يعمل. تجمع الركاب بجوار السير وبعد فترة دخل عاملان يدفعان عربة حديدية تكومت فوقها الحقائب وبدأوا في تفريغها على السير الثابت ثم ذهبا وعادا بعدها بربع ساعة بحمولة أخرى وهكذا. وجد فخر الدين حقائبه بعد فترة، ثم توجه لباب الخروج. أوقفه عسكري ووجهه إلى باب آخر. عند الباب الآخر وجد عددًا من العساكر من السيدات والرجال على صدورهم ما يفيد أنهم من الجمارك. سأله واحد عما بحقائبه ثم أشار بريبة إلى إحدى الحقائب وطلب منه فتحها. فتحها فخر الدين لكن الرجل كان قد ذهب. عندما عاد أشار له بالرحيل دون أن ينظر للحقيبة المفتوحة. خرج فوجد نفسه في ساحة ضخمة تتناثر فيها السيارات والناس والتراب. اقترب منه رجل وسأله إن كان الدكتور عيسى النجار. قال نعم، فحمد الله على سلامته وقال إنه من الشركة. حمل الرجل عنه

بعض الحقائب، وسارا معًا وبعد دقائق كان جالسًا في سيارة نصف نقل تخرج من منطقة المطار.

الشوارع هادئة، نصف مضاءة وتكاد تكون خالية في هذا الوقت المتأخر. الشوارع ترابية لونها مائل للحمرة. أوقفتهم نقطة تفتيش. تبادل الجندي التحية مع السائق وسأله عمن معه والجهة التابع لها. توقف للحظة يفكر في شيء ما ثم نادى على زميله أن يرفع الحاجز ويدعه يمضي. مضت السيارة في الليل الهادئ ثم أوقفتهم نقطة تفتيش أخرى. لا أحد في الشوارع سوى هؤلاء الجنود. بعد حوالي عشر دقائق وصلت السيارة إلى الكورنيش.

الساعة تقارب الثالثة صباحًا، والنيل يشق طريقه بجلال مهيب ومياهه الحمراء الداكنة تشي بما تحمله من طمي نحو الشمال. وفخر الدين يتحرق شوقًا لهذه اللحظة. ينظر لمياه النهر الداكنة السريعة ويسرح: «هذا هو سر الحياة. هذا التراب الصغير الذي تحمله مياه هذا النهر القوي المعطاء. هذا الذي سيذهب ويترسب على ضفتين ويصبح مصرًا، يكونها ويعيد تكوينها كل يوم. هذه المياه التي روت حضارة كاملة على مر آلاف السنين. أي نهر آخر، أي نهر غيرك يحمل هذا الشرف؟ أي نهر غيرك حمل في طياته الحياة التي حملتها؟». قطع أفكاره انحراف السيارة وتوقفها المفاجئ. أشار السائق لمبنى أصفر اللون مكون من ثلاثة طوابق وبدأ في تنزيل الحقائب. ترك فخر الدين عمر في السيارة ودخل لإتمام الإجراءات، لكنه لم يجد أحدًا في بهو الفندق. على مكتب الاستقبال وجد يافطة كبيرة تقول باللغتين العربية والإنجليزية: «الفندق لا يقبل كل بطاقات الائتمان الرئيسية». ابتسم واستبشر خيرًا. بحث عن الموظفين فلم

يجد أحدًا. بدأ ينادي، وبعد قليل ظهر فتى أسود اللون، نحيف وشديد الطول، ويبدو أنه قد استيقظ لتوه. ألقى عليه فخر الدين التحية فلم يرد بل مد يده دون حديث لفخر الدين. ناوله جواز السفر فأخذه ووضعه جانبًا دون أن ينظر فيه وأخرج مفتاحًا وسأله عن الحقائب. دون كلمة أخرى توجه لحمل الحقائب. سأله فخر الدين عن رقم الغرفة لكن الفتى اكتفى بالإشارة في الاتجاه الذي سيسير فيه. أتى فخر الدين بعمر من السيارة ولحق بالفتى الصامت في ممر طويل. عبرا فناء به بعض الزرع، ولفت نظر فخر الدين مرة أخرى اللون الأحمر للتربة ورائحة المطر الذي يغمس الأرض. يحب هذا. وصلا غرفة في الطابق الأرضي فتحها الفتى ووضع الحقائب أمامها وانصرف. وضع فخر الدين عمر على الفراش وخرج ليشكر السائق لكنه كان قد مضى أيضًا. عاد بسرعة لعمر ولاحظ في استياء أن هناك ناموسًا داخل الغرفة. اتصل بالاستقبال لكن أحدًا لم يرد.

لمح جهازًا كهربائيًا صغيرًا طارد للناموس موضوعًا بجوار الفراش، «آه. إذن فالناموس مقيم بالغرفة!» وضع طارد الناموس في فتحة الكهرباء. أدار التكييف فأتى بضوضاء كبيرة جدًا. بدأ يخرج ملابسهما من الحقائب. فتح الدولاب فوجد أرففه ممتلئة ترابًا. نظر للفراش والمقاعد فوجد عليهم بقعًا ظاهرة. حرك الستارة الثقيلة فأز حاملها الخشبي ولم تتحرك. بان من خلف النافذة ضوء أصفر وجندي واقف عبر الشارع فأعاد فخر الدين الستارة كما كانت. درجة الحرارة لا تتغير في الغرفة رغم ضجة التكييف. دخل الحمام. مصباح نيون يزن، ولا مياه ساخنة. جلس على الفراش يفكر فيم كانت شيرين ستفعله لو كانت معه. ستكون حقائبها كثيرة ومتناثرة على

أرضية الغرفة. سترفض بلا شك أن تضع ملابسها في هذه الخزانة وستبقيها بالحقائب. هل كانت ستصر على الرحيل لمكان آخر في نفس الليلة – ربما خارج السودان كله؟ وماذا كانت ستفعل مع عمر؟ لم يرها كثيرًا وهي تعتني بمريم؛ كانت البنت الأثيوبية هي التي تفعل ذلك. ترى كيف حال مريم الآن؟ وماذا قال لها أبوها المنزوع العاطفة؟ هل دخل عليها البيت وقال لها إن أمها ماتت أم ادعى أن «ماما مسافرة؟» مريم متقدة الذكاء، وستفهم ولا ريب. هل ترى مريم أمها مثلما يراها هو؟ هل تذهب شيرين لزيارتها مثلما تأتي لرؤيته؟ يراها الآن؛ جالسة، هناك، في آخر الغرفة على هذا المقعد المتهالك وهي متبرمة في دلال. الوقت متأخر، وعمر نام أخيرًا، وفخر الدين منهك. عاد بظهره إلى مسند الفراش وغلبه الإعياء فنام بملابسه فوق الغطاء الثقيل الذي يخفي اتساخ الفراش.

عندما مر عليه السائق في الصباح ليأخذه لمكان العمل استغرب شكوى فخر الدين:

– يا أستاذ، هذا أفضل فندق في الخرطوم.

– جايز الغرفة هي اللي مش كويسة.

– أكيد يا أستاذ، هذا أفضل فندق في الخرطوم.

– مفيش مشكلة إن شاء الله.

– لا، لا مشكلة. كل شيء يحل بإذن الله.

لكن شيئًا – بالطبع – لم يحل. أمضى فخر الدين أسبوعين في هذه الغرفة بينما يحاول كل يوم مع إدارة الفندق إصلاح التكييف

أو المياه الساخنة أو طرد الناموس أو الحصول على أغطية نظيفة، وفي كل مرة يعده موظف مختلف بكل ذلك ثم يعود في الليل فلا يجد شيئًا، حتى أقلع عن السؤال. بعد أسبوعين كانت شقته في حي «العمارات» قد أصبحت جاهزة فانتقل إليها غير آسف. الشقة صغيرة وباردة وشبه خالية من الأثاث، والكهرباء تنقطع معظم ساعات اليوم. قال له مالك العمارة إنهم سيركبون مولد كهرباء قريبًا، لكن ذلك لم يحدث. «العمارات» أفخم أحياء الخرطوم، ولكن شوارعه الترابية تغمرها مياه المطر في هذا الوقت من السنة. يوجد بقال في آخر الشارع لديه كل ما يمكن أن يجده المرء في الخرطوم، وهناك مطعم صغير يعد أطباقًا متنوعة غير مؤكدة المكونات. بجواره مقهى عبارة عن محل صغير به صبي غير راغب في الخدمة وأمامه عدد من الكراسي المبعثرة على تراب الشارع. تمر السيارات فتثير التراب على الجالسين القلائل، ولا أحد يبدو مكترثًا. بعد المقهى يوجد بائع للخضر والفاكهة، ثم لا شيء. بقية الحي عبارة عن بيوت مشابهة لذلك الذي يسكنه، وطرق ترابية مغمورة بماء المطر، وبعض الصبية والأولاد يتسكعون، وعدة سيارات معظمها نصف نقل.

لم يغامر فخر الدين بالذهاب بعيدًا خارج الحي، وقال له زملاؤه ألا شيء يستحق الرؤية في بقية الأحياء، والمكان الوحيد الذي يمكن قصده للترفيه هو شاطئ النيل. وفخر الدين يعشق النيل؛ يتمشى على الرصيف الضيق الممتد بجواره، ويمر من أمام القنصلية المصرية التي كانت في الأصل مقر مفتش الري المصري. يواصل السير حتى يصل لمدخل القصر الرئاسي، والذي كان في الأصل مقر الحاكم الإنجليزي، فيعترضه الحرس، ثم يعود من نفس الطريق

مرة أخرى. وفي كل مرة يمر أمام مبنى الفندق الأصفر الذي نزل به تنتابه غصة.

يترك فخر الدين طفله الرضيع في الصباح مع أم فاطمة، ثم يمر عليها في المساء ليستعيده. بعد فترة اتفقت معه أم فاطمة على التفرغ للعمل في خدمته، فأصبحت تأتي للمنزل في الصباح وتهتم بعمر حتى عودة فخر الدين، وتنصرف في نهاية المساء. أم فاطمة طيبة القلب، من قبيلة الفور، لا تتحدث كثيرًا ولا يفهمها فخر الدين تمامًا عندما تتحدث لكنها تفهم بالإشارة وأحيانًا بدونها، وعمر يحبها.

ثم ظهر سلطان. ذات يوم، بينما كان فخر الدين جالسًا يقرأ في الشرفة، رأى قطًا يحدق فيه. كان قطًا فارسيًا، غزير الشعر، حديث السن وضئيل لكن شعره يظهره أكبر. أتى ووقف على مقربة منه وأخذ يحدق به. بدأ فخر الدين يداعبه، هو المغرم القديم بالقطط، لكن القط لم يستجب. تجاهله فخر الدين لحظات فتحرك ناحيته وبدأ يخربش ملابسه. رده عنه لكن القط استمر. تجاهله على أمل أن يكف لكن شراسة القط زادت. زعق فيه، فسكن، وبعد ثوان قليلة عاود خربشته. قام فخر الدين من كرسيه وهشه فتراجع، ثم عاد واقترب منه ببطء ومد مخلبه وخربشه. بعد لحظات قفز فوق المنضدة المجاورة لفخر الدين ومد رأسه نحو طبق الجبن الموضوع عليها. هشه فخر الدين وألقى له بقطعة من الجبن على الأرض فلم يتحرك القط، وبدأ يموء. تجاهله فخر الدين لكن القط واصل المواء برتابة ودون انقطاع. بعد ربع ساعة قام فخر الدين وغادر الشرفة؛ «هذا ما كان ينقصني: قط غبي وعنيد. من أين أتت به هذه المرأة!». نادى أم فاطمة وسألها عنه، فقالت إنه قط يتردد على المنزل منذ أيام ولا تعرف له أصحابًا.

وإنها تطعمه وتسقيه، وإنه كان يذهب ويجيء على هواه، ثم جعلت له مأوى صغيرًا في ركن من الشرفة الفسيحة واستقر به.

- وده هايعيش معانا إن شاء الله؟

- أمال! ده سلطان؛ ده بيتصرف كأنه ملك الدار!

كان سلطان مزعجًا بحق، فهو دائمًا في المكان الخطأ، يفتح فخر الدين باب الثلاجة فيجري سلطان ويدس رأسه فيها دون أن يلحظه، وعندما ينغلق الباب عليه يصرخ من الألم. ثم يعاود الكرة وكأن شيئًا لم يحدث له. كلما فتحت أم فاطمة بابًا دخل منه وظل مختبئًا بالمكان؛ غرفة كانت أم خزانة أم حمَّامًا. وعندما تغادر المكان ينغلق الباب عليه دون أن يدري أحد أنه محبوس، ويظل يموء بالساعات في رتابة حتى يفطن أحد لمكانه ويخرجه، وهكذا. أكثر ما يضايق فخر الدين منه هو مواؤه المستمر في الليل، والذي لم يكن له سبب مفهوم. في البداية ظن أنه يشعر بالوحدة، فأتى به إلى غرفته، لكن سلطان ظل يركض بعرض الغرفة طيلة الليل، تارة يسحب الغطاء من فوق فخر الدين، وتارة يجذب ملاءة الفراش أو يهاجم الناموسية المثبتة فوقه، فلم يتمكن فخر الدين من النوم وأخرجه واضطر لإغلاق باب غرفته عليه. لكن سلطان كان يأتي ويقف بباب الغرفة ويموء.

احتمله فخر الدين مع ذلك حتى أقدم على مهاجمة عمر. لم ير فخر الدين في حياته قطًا يهاجم رضيعًا، لكن سلطان فيما يبدو اعتقد أن عمر قط كبير وأنه يلعب معه. دخل فخر الدين الغرفة فوجد سلطانًا واقفًا فوق عمر بعد أن جرده من أغطيته ويتأهب لمهاجمته.

كاد فخر الدين ساعتها أن يلقي بسلطان من النافذة، لكنه تمالك نفسه وأخرجه في هدوء ونبه على أم فاطمة ألا تدع عمر أبدًا مع هذا القط في مكان واحد.

* * *

بدأ فخر الدين العمل فور وصوله، فقد كانت المجموعة في حاجة ماسة لمحاسب قانوني بسبب الرحيل المفاجئ للمحاسب السابق. سأل فخر الدين عن أسباب رحيل سلفه بشكل فجائي هكذا فلم يتلق إجابة واضحة، ولم يلح. كانت وظيفته هي المراجعة القانونية لحسابات الشركات التابعة لمجموعة «الوادي» الاستثمارية المملوكة لعدد من أثرياء الخليج. هذه الشركات متنوعة في نشاطها، فهناك شركة عقارية تمتلك بيوتًا وعقارات مختلفة في الخرطوم وبورسودان والفاشر وأماكن أخرى من السودان، وهناك شركة متخصصة في المزارع، لديها مزرعة كبيرة في شمال الخرطوم ومزرعة أخرى في الدمازين على الحدود مع أثيوبيا وثالثة في بورسودان ورابعة في نيالا جنوب دارفور. ثم شركة للاستيراد والتصدير، وشركة سياحة وسفريات، وشركة مقاولات تبني الطرق والجسور والمواني ومباني المطارات، وشركة لتوزيع المواد الغذائية، وشركة للنقل بكافة أنواعه: من الشحن الجوي، للشحن البحري، إلى نقل المواشي ومواد البناء عبر مناطق السودان الشاسعة بالسيارات والطوافات النهرية وأحيانًا قوافل الإبل. كل شركة من هذه لها إدارتها المستقلة وموظفوها الذين لم يكونوا بالضرورة يعرفون بعضهم بعضًا، لكن حسابات هذه الشركات تأتي كلها للمجموعة الاستثمارية الأم – الوادي – للمراجعة المحاسبية والقانونية، وهو أمر له علاقة بالرقابة على

أعمالها، وبعلاقة هذه الاستثمارات بالحكومة السودانية والضرائب وغير ذلك، وأيضًا بالمستثمرين الخليجيين أصحاب المجموعة الذين لا يقيمون بالبلاد.

أما رئيس مجلس إدارة المجموعة فقد انتقل للإقامة بالسودان قبل وصول فخر الدين بعام أو أكثر قليلًا، وهو شيخ وقور هادئ وقليل الكلام. التقى بفخر الدين عند بداية عمله وأوصاه بمراعاة الأصول القانونية وعدم التهاون ولو في هفوة صغيرة لأن هذه أموال ناس وهو لا يقبل مليمًا حرامًا، وحضه على التقوى مؤكدًا على اهتمامه بالالتزام الخلقي لمن يعمل معه، وأنه لولا توصية أبو ياسر ما وظف أحدًا لا يعرفه شخصيًا في هذا المكان الحساس. حذره الشيخ من أنه سيكون تحت المراقبة لمدة ثلاثة أشهر، فإن أبدى كفاءة وحسن سلوك سيعطيه مهلة أخرى، لكن عليه أن يدرك أنه تحت الملاحظة والاختبار الدائمين. وعده فخر الدين خيرًا، وطمأنه بأنه قام بأعمال مماثلة من قبل ولا يخشى من المهمة، وأن همّه الوحيد هو عمله وابنه ومن ثم فلا داعي للقلق. ترك الشيخ أثرًا على فخر الدين؛ كان من هؤلاء الناس الذين تشعر بنظرتهم تتغلغل في روحك، ويتحدث بهدوء ونغمة قريبة إلى النفس وبوضوح وثقة شديدين يجعلانك لا ترغب في الاختلاف بل في الاستماع للمزيد. ألقى الشيخ عليه السلام وتركه وخرج وهو يتساءل عن هوية هذا الرجل النحيل الذي لم يتجاوز منتصف الأربعينيات والذي يدير إمبراطورية بهذا الحجم، وسر تركه لوطنه واستقراره بهذه البلاد.

نجح فخر الدين في عمله بسرعة أبهرت الجميع. أنهى المراجعة بعد وصوله بقليل، وبذلك تجنبت المجموعة الأزمة الناتجة عن الرحيل

المفاجئ لسلفه، وذلك دون أن يخطئ أو يترك خلفه ثغرة. يسرت طريقته في العمل الأمر على الجميع وجعلته أكثر سلاسة. واحتفظ بعلاقة طيبة بالمحاسبين والمراجعين في كل شركات المجموعة، وحتى هؤلاء الذين عاملوه بتشكك - باعتباره غريبًا عن المجموعة - سلموا بعد فترة قصيرة بأنه مخلص وذكي وأمين. بعد عدة أسابيع من دراسة عمل الشركات والأطر القانونية التي تحكم المجموعة، اقترح على الشيخ تعديلات توفر الملايين من أموال الشركة. تشكك الشيخ، ونصح فخر الدين بعدم اقتراح أفكار جديدة قبل أن يفهم جيدًا واقع عمل هذه الشركات. لكنه أرسل التعديلات المقترحة لمقر المجموعة في الخليج للنظر فيها. وقد قبلها مقر المجموعة وأثنى على فرع السودان. وشيئًا فشيئًا، نمت ثقة الشيخ والعاملين بالمجموعة في فخر الدين؛ في علمه وأخلاقه على حد سواء.

استغرق فخر الدين في الأمر. ودون تفكير كبير أصبح يقضي كل وقته في العمل، في حين ترك عمر لعناية أم فاطمة التي تفرغت للرضيع. دقق أكثر في ميزانيات الشركات وكيفية عملها. راقت له فكرة الاستثمار في السودان. فهو بلد عزيز عليه، على الأقل بحكم العاطفة التي تربط أبناء النيل. وهو بلد فقير مزقته الحروب رغم ثرواته وإمكانياته الهائلة. لم يفهم تفاصيل الصراعات التي تعتري السودان وأهله، لكنه قدر أن شيئًا من التنمية الاقتصادية لا بد أنه سيقلل حدة هذه الصراعات. وزاد من تحمسه لعمل المجموعة ما لمسه من إخلاص الشيخ وأمانة القائمين على هذه الاستثمارات، فمن الواضح أن هدفهم ليس الربح، وكثيرًا ما أعادوا استثمار أرباحهم في البلد بدلًا من تحويلها للخارج، أو قاموا بمشروعات خيرية تساوي

ما حققوه من أرباح، كأن يشقوا طريقًا جديدًا أو يوزعوا غذاءً على النازحين، وهكذا.

لم يكن بموظفي الشركة ما يميزهم عن غيرهم. فهم من جنسيات شتى شأن الشركات الخليجية؛ الكثير من المصريين والفلسطينيين، بعض الشوام والمغاربة واليمنيين، وكثير من السودانيين والإرتريين وعدد من الهنود والباكستانيين. أما حراس الأمن فكان لهم شأن آخر؛ فهم أشداء بحق، في أجسادهم وتحملهم للظروف القاسية. وهم صامتون لا يتحدثون مع أحد غير رؤساهم، وكلهم متدينون بشكل صارم، ويعيشون سويًا في مزرعة شمال الخرطوم مع ذويهم ولا يغادرونها إلا للعمل. عندما استفسر فخر الدين عن هذا الوضع قيل له إن «سلمان أحمد»، مدير أمن المجموعة، ضابط سابق في العمليات الخاصة بالجيش الباكستاني وقد طبق على حراس الأمن النظم التي تطبقها وحدات العمليات الخاصة، وأن ذلك ضروري لحماية استثمارات المجموعة من أي مخاطر، خاصة وأن الأمن السوداني لا يمكن الاعتماد عليه بالكامل لما به من فساد وصراعات سياسية ومن ثم طلبت المجموعة من الحكومة عند بدء نشاطها أن يكون لها جهاز أمني مستقل ووافقت الأخيرة على ذلك، مع وجود تنسيق قوي بين سلمان أحمد وأجهزة الأمن المحلية.

الشيء الذي استغربه فخر الدين أثناء التدقيق في الميزانيات هو التباين الشديد في أسعار شحنات المواشي. يعرف فخر الدين أنه ليس خبيرًا في تجارة المواشي، لكن تقلب أسعار الشحنات بدا غريبًا: مرة تكون شحنة الأبقار بسعر، ومرة تكون بعشرين ضعف هذا السعر. سأل المدير المالي عن تلك التقلبات:

- والله حسب أسعار السوق؛ السوق متقلب.

- ولكن هذه تقلبات عالية جدًا؛ عشرون ضعف السعر وأحيانًا أكثر.

- آه، هذه التقلبات بسبب اختلاف النوع.

- أي نوع؟ هذه كلها أبقار.

- نعم ولكن البقر أنواع.

- لدرجة أن تكون بقرة بمائة دولار وبقرة بألفين دولار؟

- طبعًا، وأكثر. ألا تعرف أن البقر ماركات؟ مثل الملابس بالضبط. هناك بقر أسترالي، إنجليزي وهكذا، ولكل ثمنه.

- في الحقيقة كي تبلغ هذا السعر يجب أن تكون هذه أبقار «فرساتشي»!

- فرساتشي؟

وقهقه المدير المالي ضاحكًا حتى دمعت عيناه. ولاحظ فخر الدين سعادته الطفولية بهذه النكتة؛ على رغم خشونته الواضحة فإن ضحكته صافية كالأطفال. أصبحت هذه النكتة متداولة في المجموعة لوصف مثل هذه الشحنات، فيقول الواحد منهم إن هناك شحنة فرساتشي في الميناء وتحتاج عناية خاصة في النقل، وهكذا.

أما الشيخ فمعتدل في كل ما يفعله ويقوله. يقضي وقته بين مراجعة الأعمال وتفقد الشركات ومواقع استثماراتها على الأرض. وفي وقت الفراغ يركب الخيل في مزرعة شمال الخرطوم. له ثلاث زوجات

وعدد من الأبناء لا يعرفه فخر الدين على وجه الدقة، ولكن عائلته منزوية ولا تخالط بقية العائلات. لا يحب المبالغات لا في إظهار المشاعر ولا في الذم أو الثناء. يوصي دائمًا بالتمهل، ودراسة الأمر جيدًا قبل التنفيذ، وتجنب التعجل الذي هو علامة غرور الإنسان وثقته المفرطة بنفسه. ورغم تدين الشيخ الشديد فإنه يوصي من حوله بحساب الأمر جيدًا بالعقل، مكررًا على مسامع من حوله دون ملل أن التوكل على الله لا يعني التواكل وعدم التخطيط، وأن الله أمرنا بأن نعقل الأمور ونتدبرها، وأن المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وأبقى. ورغم إعجابه بفخر الدين وثقته المتزايدة فيه إلا أنه لم يصرح له بذلك أو يبالغ في إظهار تقديره له، بل ظل يختبره طيلة الوقت، ويلقي أمامه بعقبات من وقت لآخر ليرى كيف سيتصرف، ويكافئه من وقت لآخر ليرى أيضًا ما سيكون عليه رد فعله. أوعز إلى المدير المالي للمجموعة فزاد من راتبه، ونقله من شقته البسيطة إلى شقة أكثر راحة في نفس الحي، وأعطاه مسئولية إشرافية مباشرة على محاسبي كل الشركات التابعة للمجموعة، ثم ظل يرقبه. لم يتغير شيء واحد في سلوك فخر الدين، لا تعالى على أحد، ولا تغيرت نبرته في الحديث مع زملائه الذين أصبحوا مرءوسيه، ولا زاد إنفاقه أو قلت ساعات عمله أو تقلص اهتمامه بإتقان ما يفعله. قال له المدير المالي إنه لن يراجع عمله بعد اليوم، بل سيرسله مباشرة إلى المقر الرئيسي، ولكنه ظل يراجعه في الخفاء، فلم يلحظ فارقًا واحدًا في دقة العمل، بل على العكس، أصبح فخر الدين أكثر تدقيقًا فيما يفعله ويراجعه بنفسه عدة مرات قبل أن يرسله للمقر. اصطحبه الشيخ عدة مرات في جولاته على شركات المجموعة في أماكن متفرقة

من البلاد، وكان السفر معه فرصة لاختباره أكثر ومتابعته عن قرب. قال له ذات مرة وهما يشربان شايًا في استراحة في الليل في طريقهم إلى مزرعة الدمازين:

- هل وجدت لك زوجة بعد؟

فوجئ فخر الدين بالسؤال، وأجاب في بطء.

- لكني متزوج.

- من هي زوجتك؟

- أم عمر.

- وأين هي؟

- في رحاب الله.

- يتغمدها برحمته. ولكنك هنا، ولبدنك عليك حق ولنفسك عليك حق، ولن يضير أم عمر أو ينفعها الآن غير عملها.

ثم صمت، وصمت فخر الدين. في رحلة أخرى، وهما في طريقهما لنيالا جنوب دارفور، اقترب الشيخ بفرسه من فخر الدين الجالس على صخرة يستريح. وقف أمامه وسأله؟

- أتعرف الركوب؟

- لا.

- والله لا أفهمكم أيها المصريون، كيف يكون الرجل رجلًا ولا يركب الخيل!

ثم نادى على حرسه وأمرهم أن يأتوه بفرس سلس القياد ودعاه للركوب. امتطى فخر الدين الحصان وسار به قليلًا ثم بدأ الحصان في الركض وفخر الدين لا يعرف كيف يوقفه. يعلو جسده في الهواء وينهبد وهو يجتهد في البقاء على ظهر الفرس. تسارعت أنفاسه حتى لم يعد قادرًا على التنفس. أسرع الحارس بفرسه حتى حاذى فخر الدين وأمسك حصانه وأوقفه. عاد الحارس بالفرسين وفخر الدين جالس فوق الفرس المسحوب يحاول استجماع أنفاسه. ابتسم الشيخ وهز رأسه في أسى:

- يا بني عليك ببعض الرياضة؛ عليك بالركض والتمارين العادية لفترة حتى يستعيد جسمك لياقته، وإياك وأن تحاول الركوب قبل ذلك.

ثم ضرب بطن فرسه بكعبه وأرخى له العنان فانطلق يعدو تاركًا وراءه سحابة من الغبار.

عرفت هذه الأسفار فخر الدين على الشيخ أكثر. لكنه لم يبدأ الحديث معه قط، على العكس. يظل صامتًا، يرقب ما يحدث ويحاول فهمه دون أن يسأل. والشيخ يلاحظ ذلك ويعجبه. قال له ذات مرة إن ما يذهب الرجال هو كثرة الكلام. ذات ليلة قام فخر الدين ليشعل نارًا قرب الخيمة التي كانوا يبيتون فيها في صحراء الشرق. نظر إليه الشيخ وهو يشعل النار ثم ناداه وسأله أين تعلم ذلك. أوضح له فخر الدين أنه تربى وهو صبي في ريف الشرقية قرب الصحراء وكان يخرج مع مربيته كثيرًا لرعي الغنم، فتهلل وجه الشيخ وقال له إن هذه مهنة الرسول الكريم، فاحمر وجه فخر الدين من الخجل وقال ﷺ

ولاذ بالصمت. هز الشيخ رأسه ولم يقل شيئًا. في اليوم التالي عنفه الشيخ على أمر تعنيفًا شديدًا، ولم يكن الأمر يستحق ولا كان الخطأ خطأه، لكنه صمت ووعد بإصلاح الأمر، ثم اتصل بالشخص المعني وطلب منه إصلاح الأمر وتم ذلك في اليوم التالي، لكن الشيخ ظل متباعدًا لا يبادله الحديث طيلة تلك الرحلة. وهكذا، ظل الشيخ يداعبه حينًا ويقسو عليه حينًا، يقول أمامه أشياء أو يأتي أفعالًا تثير التساؤل، ويرقب رد فعله. وكل مرة يطمئن قلب الشيخ أكثر لما يراه من نبل وأمانة واستقامة هذا الوافد.

كانت هذه الرحلات أفضل أوقات عمل فخر الدين بالسودان. وكانت شيرين تكثر من زياراتها له في هذه الرحلات؛ ذات مرة قالت له إنها لم تكن تعلم أنها ستحب الخلاء والصحراء لهذه الدرجة، وأنها التي عاشت حياتها كلها في المدن الكبرى لم تتصور أبدًا أن تضم الصحراء كل هذا الجمال والسلام. ابتسم فخر الدين وقال إن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها لأننا لم نخبرها، وإن معظم الأشياء الجميلة لا تكلف الكثير سوى القدرة على أن نحاولها، وأن هذا ما كان يحاول شرحه لها طول الوقت. غضبت من كلامه، وقالت له إنه عجول بشكل لا يطاق، وبدلًا من أن يتركها تكتشف الأمر بنفسها يحاول كعادته دفعها باتجاه موقفه بشدة لا تحتمل. غضبت وقالت له إنه لم يفهم شيئًا مما قالته كل هذه السنين، ولا حتى عندما ماتت، وذهبت وتركته.

رحل فخر الدين مع الشيخ في كل أراضي دارفور، وتعرف على جبالها ووديانها وناسها بأعراقهم وقبائلهم وعاداتهم المتباينة. ذهب مع الشيخ إلى «كتم» و«كُلبس» شمالًا، وإلى «الجنينة» غربًا حتى

حدود تشاد، وإلى «الفاشر» و«الطويلة» و«نيالا» وغيرها؛ عشرات من القرى والمدن الصغيرة المبعثرة في أرض، تارة تكون صحراء جرداء وتارة أحراشًا وتارة جبالًا لا يدخلها غير ساكنيها. وكان يلحظ إجلال القبائل للشيخ واستقبالهم الحافل له ويستغرب؛ فهذا الاستقبال لا يحظى عادة به المستثمرون. صلات الشيخ مع أهل القبائل عميقة، ودائمًا يترك لهم هدايا من مواش وسلع أخرى من الشحنات التي يحملونها معهم. حتى الشحنات «الفرساتشي» كان يترك منها حاويات للبعض، خاصة للقبائل العربية. وفي الشرق، كانت قبائل البجة التي تعود بأصولها إلى الجزيرة العربية تكرم وفاده كأنه منهم، والشيخ يتصرف كأنه بالفعل واحد منهم، ويعرف هذه المناطق ككف يده. ولكن أقرب الأماكن لقلب فخر الدين كانت الدمازين قرب الحدود مع أثيوبيا، حيث يشعر أنه قرب منابع النيل الكبرى؛ كأن مياه هذا النهر تولد طاقة تجتذبه.

خلال هذه الأسفار كانت أم فاطمة تأتي بابنتها الوحيدة للبيت وتقيم به مع عمر حتى يعود فخر الدين. وعندما يذهب لدارفور ترسل معه بعض الهدايا والمال لأهلها بمدينة الفاشر. أم فاطمة هادئة وتحسن العناية بعمر وبالمنزل، وبالقط المزعج سلطان. سألت أم فاطمة فخر الدين أكثر من مرة أن يأذن لها بالتخلص من سلطان المشاكس الذي «فاته قطر الذكاء» مثلما تقول. كان سلوكه يضيق عليها حركتها في المنزل ويحملها أعباءً إضافية؛ فلا تستطيع أن تتركه في نفس المكان مع عمر خوفًا عليه من القط، ولا تستطيع تركه في نفس المكان مع الطعام لأنه يهاجمه، وإذا حبسته فإنه يموء برتابة تثير أعصاب الملائكة على حد قولها. يبتسم فخر الدين ويبدي

تفهمًا لكنه يوصيها به خيرًا، فهو يحب القطط عامة، ورغم المشاكل التي يخلقها وجود سلطان فإن فخر الدين يكره أن يطرد كائنًا ضعيفًا التجأ لبيته. كما أن شيرين تحب شكله وأوصته ألا يسيء معاملته، قائلة إن احتماله لغباء سلطان وسخافاته ستكون تدريبًا جيدًا له على احتمال نقائص الآخرين وعدم دفعهم أبعد من قدرتهم على الاحتمال، وضحكت ومضت. فكان فخر الدين يشجع أم فاطمة على احتمال سلطان معه.

بدأ في التريض تنفيذًا لوصية الشيخ. بدأ بالركض في شوارع الحي عند أول المساء. ثم قال له سلمان أحمد مدير الأمن إن بعض السكان قد اشتكوا من ذلك، حيث إن النسوة يجلسن أمام الدور في المساء، ونصحه بأن يذهب للتريض في مزرعة شمال الخرطوم. فلما قال فخر الدين إن المزرعة بعيدة ولا يعرف شيئًا فيها قال له سلمان إنه استأذن من الشيخ وعين له أحد الحراس ليكون دليله ويمكن أيضًا أن يدربه. اختار له شابًا من دارفور فارع الطول قوي البنية شديد السواد اسمه عبد الله، من أبناء الزغاوة. تولى عبد الله تدريبه بالتدريج، فكان يأخذه للمزرعة ساعتين في اليوم عند القيلولة حين تغلق الخرطوم أبوابها، ويعيده بعد صلاة العصر. وبعد أسابيع من الركض والتمارين استعاد فخر الدين بعض لياقته، وبدأ تمارين السباحة. وبعد عدة أسابيع بدأ ركوب الخيل.

أفادته ممارسة الرياضة كثيرًا؛ بدأ يشعر بجسمه من جديد بعد أن نسيه. يشعر بساقيه ووسطه وذراعيه، ويشعر بخفة أكبر وهو يسير مع استيقاظ عضلات ساقيه من نومها الطويل الذي فرضته حياة المواصلات والجلوس الطويل على المقاعد. تحسن تنفسه، وشعر

بصفة عامة بالقوة تتسلل إليه، وحسن ذلك من مزاجه العام وقلل من حالة الانقباض التي تسيطر عليه. وشيئًا فشيئًا بدأ الحاجز الزجاجي بينه وبين العالم من حوله في الخفة، وبدأ الغمام الذي يفصل بينه وبين الحياة في الانقشاع قليلاً.

لازمه عبد الله حتى في الأوقات التي لم يكن يتدرب فيها، وقال له سلمان إن الشيخ قد طلب توفير حراسة له باعتباره عنصرًا هامًا لعمل المجموعة. استغرب قليلًا ولكنه لم يهتم. عبد الله لا يحب أم فاطمة ولا هي تطيقه، فكانا يقصران تعاملهما إلى أدنى حد ممكن؛ تناوله الشاي والطعام عندما يكون بالدار مع فخر الدين، وترد على سؤاله في الصباح أقصر رد ممكن، وهو يتفاداها ما استطاع. تعجب فخر الدين من ذلك، فهما بلديات وظن أنهما سيكونان قريبين بعضهما من بعض. ابتسم عبد الله عندما سأله وقال له:

- أم فاطمة من الفور، وأنا زغاوة.

- وبعد؟

- هناك مشاكل.

- بينكما؟

- بين القبائل.

- فعلًا؟ ولكني كنت أظن أن المشاكل هي بين القبائل ذات الأصل العربي والقبائل ذات الأصل الإفريقي، هكذا قالوا لي؛ العرب و«الزرقة».

- لا والله المشاكل بين الكل.

- كيف؟

- يعني ناس الخرطوم لا يريدون ناس دارفور؛ بعربهم وزرقتهم. وناس دارفور بينهم جميعًا مشاكل.

- لكنك تتعامل مع ناس الخرطوم؟

- الكل يتعامل مع الكل، لكن لا أحد يحب أحدًا في هذا البلد.

- يا ساتر!

- هي الأمور طول عمرها هكذا عندنا، وربنا بييسرها.

* * *

في أول يوليو، وبينما كان فخر الدين جالسًا إلى مكتبه يراجع ملف الحساب الختامي لإحدى الشركات، سمع صوتًا يقول له:

- انت مش حاتبطل حساب؟ يا بني حساباتك كلها بتطلع غلط!

رفع عينيه من شاشة الكمبيوتر فوجد أبو ياسر البحيري واقفًا يبتسم فاتحًا ذراعيه. تعانقا. وشعر فخر الدين براحة عميقة وهو يضم رفيق أيام باريس مرة أخرى؛ وغمرته مشاعره، وعادت شيرين بقوة. اختنق صوته وهو يرحب به. كان البحيري في مزاج جيد ويضحك ويلقي بالنكات. سأله فخر الدين عن أحواله وعن باريس وعن عائلته وعن عمله هناك:

- الحمد لله، أم ياسر بخير وياسر زي الفل وكل العيال بخير. ما هم معايا هنا.

نظر إليه فخر الدين مندهشًا.

– ماحنا إن شاء الله حانستقر هنا. أنا صفيت أعمالي في فرنسا وجبت العيال وجيت.

– هنا؟ صفيت أعمالك في فرنسا وحاتستقروا هنا في السودان؟

– أصل فرنسا ما عادتش تلذ.

نظر إليه فخر الدين في تساؤل. فأضاف البحيري:

– أصل بصراحة ضيّقوها علينا زيادة عن اللزوم. ما اعرفش إيه اللي حصل، بس فجأةِ الشرطة طلعت لنا. الأول قعدوا يقفلوا علينا الشغل، أقاموا في المترو في سان دوني وفي الشوارع وبدأوا يلموا الشباب اللي معندوش إقامة ويرحلوهم قبل ما حد يلحق يعمل حاجة. وبعدين بدأوا يكبسوا علينا في أماكن الشغل ويلموا اللي بيشتغل في الأسود ويغرمونا. قطعوا رزقنا، مين اللي حايديك مقاولة إن كان حايجيله من وراك البوليس؟ وبعدين أشتغل إزاي من غير العيال اللي شغالة في الأسود؟ انا لو باشغل ناس عندها تصاريح عمل وادفع لها ضرايب وتأمينات حايبقى إيه الفرق بيني وبين الشركات الفرنساوية؟ ولا أقدر أدي الزباين الأسعار اللي باديها لهم ولا حاكسب مليم احمر. بس تعال نخرج من هنا نتمشى شوية، إنت وراك حاجة؟

لملم فخر الدين أوراقه وأغلق الكمبيوتر وخرج معه. سارا قليلًا إلى مقهى قريب وجلسا هناك. جاء ولد جنوبي صغير السن وسألهما عما يريدان فطلبا كركديه باردًا. ذهب، فاستكمل البحيري.

- وبعد كده دخلوا على الجماعة بتوع المسجد. قال لك الإمام ده متطرف وطلعوا له أمر ترحيل. ماحنا عارفين إنه متطرف وبنقول كده من سنين، كنتم ساكتين ليه؟ استنيتم لما جند نص الشباب وبعدين خدتوا بالكم؟ المهم أبعدوا الراجل، وجه واحد أسخم منه. مرة والتانية، وبعدين قبضوا على شوية شباب ورحّلوهم. اللي اترحلوا كانوا جزائريين. عرفنا بعد كده إنهم اتعذبوا وواحد منهم أعدم. بدأ الباقيين يكشوا ورجلهم خفت من على المسجد. بقوا يتقابلوا في حتت تانية. وبعدين حصلت شوية أحداث وبدأوا يلموا الكل ويسلموا اللي يلموه لأجهزة الأمن في بلادهم. كله خش الشق، واللي عنده حته يروح فيها راح. وادينى جيت هنا. بس انا اهو وانت اهو، وبكره تشوف، العمايل اللي عملوها دي مش هاتعدي، وبكره حايدفعوا التمن. الناس اللي اترحلت لبلادها دي مقضي عليها، ودمها مش حايروح كده. اللي قدروا عليهم دول الغلابة اللي زيي. اللي بيساعد ناس تسافر واللي بيساعد في التوظيف واللي بيحضر دروس في المسجد وكده. الناس التقيلة لسه موجوده، ودول اللي حايوجعوهم إن شاء الله.

- وانت حاتشتغل هنا مع الجماعة ولا حاتفتح حاجة لوحدك؟

- لأ طبعًا مع الجماعة، وانت فاكر الفلوس اللي كنت باشتغل بيها هناك دي كنت جايبها منين؟ من عند أمي؟

- وحاتشتغل إيه؟ بنتيرة برضه؟

- بنتيرة إيه يا بو بنتيرة؟ إنت ناسي اني مهندس ولا إيه؟ أنا حاشتغل في مزرعة شمال الخرطوم.

لم ينس فخر الدين قط أن البحيري مهندس، حتى في وسط أعمال الدهانات وترميم الشقق في ضواحي باريس كان ينظر إليه ويشعر بالأسى على حال الدنيا وعلى الخسارة التي يمثلها تحول مهندس الصواريخ إلى الدهانات. كان البحيري، بالإضافة لذكائه الحاد، حلو المعشر ويكره الخلافات والصراعات، وقادرًا دومًا على التوفيق وإنهاء الخصومات ومصالحة الناس، وكان فخر الدين يحبه لهذا. سأل عن أم ياسر، فقال له البحيري إنها سألت عليه أول ما عرفت أنهم ذاهبون للسودان، وأنها ستبقى مع الأولاد في «العمارات» لحين ثم يقرر ما إذا كانوا سينتقلون إلى المزرعة معه. أخذه البحيري للقائها بعد أن مرا على منزل فخر الدين لاصطحاب عمر. لم يكن عمر قد أكمل عامه الأول بعد، ولم يتغير شكله كثيرًا عن أيام باريس، وقد سرت به أم ياسر وكأنما التقت رضيعها الذي أخذوه منها وهو صغير. وحلّفت فخر الدين بكل ما هو عزيز لديه أن يترك عمر في رعايتها.

- يا خويا مانت قاعد لوحدك؛ ولا عندك زوجة تاخد بالها منه ولا انت فاضي له. ولا هي الست اللي عندك دي حاتخلي بالها منه أحسن مني؟ ده انا أمه. بذمتك هو شاف أم غيري ساعة ما تولد؟ ده طلع على وش الدنيا لاقاني في وشه. شوف.. شوف هدي وسكت إزاي معايا؟ طيب خليه، وابقى تعال شوفه لما تحب والبيت بيتك.

يحب فخر الدين أن يستمع إليها وهي تقلد اللهجة المصرية. شكرها على عرضها الكريم واعتذر. فرغم منطقية كلامها، إلا أنه لا يستطيع الافتراق عن عمر. عمر هو حلقة الوصل بينه وبين العالم، ويشعر أنه لو تركه لرعاية أحد آخر فسوف يتوقف عن متابعة حياته.

سيجلس ثم يظل جالسًا، ولن يفعل شيئًا سوى التفكير في غياب شيرين، وفي حياته التي غابت معها، ثم يذوي في هدوء. الآن، يشعر أن عليه أن يمضي للأمام لأن عليه أن يفعل أشياء ضرورية لعمر. هذا هو الخيط الباقي بينه وبين الدنيا، وهو لا يريد إفلاته. شكرها ووعدها بأن يمر عليهم مرة في الأسبوع ويترك لها عمر نهارًا أو يومًا بليله. وقد كان.

* * *

قضى فخر الدين الشهور التالية في التعلم والتدرب والترحال. اشتد عوده وزادت صلابته، بدنيًا وروحيًا، واكتسب خشونة كانت حياة المدينة قد حالت دون ظهورها. جعلته الأسفار الكثيرة في الصحراء والأحراش يعود للأشياء الأساسية، ويكتشف من جديد كم هي قليلة احتياجات الإنسان؛ شربة ماء، كسرة خبز، كسوة من البرد، مكان يستلقي فيه عندما يغالبه النوم، ومكان يتغوط به. لا أكثر من ذلك كثيرًا. جعلته ممارسة الرياضة أقدر على احتمال المشاق. كأن راعي الغنم القديم الذي أرضعته «أم إبراهيم» وعلمته رعي الغنم في صباه قد عاد فجأة. وفي هدأة الليل في الصحراء والتئام الروح على رمالها تحت وبر الجمال وهو ينظر لسماء عامرة بالنجوم، وفي مسيرة الأيام الطويلة في الرمال وعبر الأحراش وممرات الجبال، زارته شيرين كثيرًا واحتضنته طويلًا ومسحت عنه أحزانًا وباعدت أحزانًا أخرى. قالت له إنه لم يكن يومًا شكّاءً بكّاءً، وذكرته بما يردده دومًا من أن الله قد خلقنا نسعى؛ جعل كل شيء في حياتنا سعيًا وحركة. العقبات والتساهيل، التحديات والمصائب مثلما الجوع والعطش. كلها تدفعنا كي نقوم ونأخذ زمام أمرنا في يدنا. فلماذا نترك الزمام

لغيرنا ثم نندب حظنا؟ قالت له شيرين إنها تحب متابعته وهو يركب الخيل الذي أتقنه أخيرًا، بل وبرع فيه. وصار الشيخ يباريه أحيانًا في أيام الجمعة بمزرعة شمال الخرطوم، ويكسبه بالقطع دائمًا ويبتسم لفخر الدين أن «عليك بذل المزيد من الجهد».

صار فخر الدين أخف. يتكلم أقل من القليل الذي كان يتكلمه في الأصل، ويتحرك أكثر، بخفة وحسم، وينجز أسرع. وصارت أعمال المحاسبة أمرًا هامشيًا ينجزه في ساعة أو بعض ساعة في اليوم، ويتوق إلى الرحلة القادمة لدارفور أو الدمازين أو سواكن وبورسودان. أحب كردفان كثيرًا وكانوا يعبرون منها للجنوب ويدخلون في أدغال ومياه أنهار ومستنقعات. لم تصبه الملاريا رغم رفضه تناول أقراص الدواء التي أعطوها له في باريس لأن ضررها على المدى الطويل قد يكون أكبر من نفعها، وأعطته أم فاطمة أعشابًا تقيه من شر بعوض الملاريا، وصار يأكل من طعام الناس ويشرب مشربهم، وبنى جسمه المناعة الطبيعية التي تأتي من المنتجات المحلية.

عندما دخل جوبا أول مرة وقف عند نهاية الشارع الرئيسي فيها يرقب النيل وهو يتهادى ويلتف عند نهاية البيوت حيث لا شيء سوى خضرة زاهية تملأ الأفق واغرورقت عيناه بالدمع لأول مرة منذ شهور، هكذا يذكر النيل في المنصورة وهو صغير. مجراه يلتف بنفس هذه الانحناءة وكانت الخضرة تسود شاطئيه بنفس الطريقة. تحمرّ الأرض الطينية أكثر كلما اتجهت جنوبًا، وتقل الطرق، وتزداد المياه، وتزهى الخضرة أكثر ويستطيل الشجر. تصادق فخر الدين والإبل وعرفها وتعلم طباعها ومسايستها والسيطرة عليها. فهم خوفها وشجاعتها ومواطن الضعف فيها. تعلم ركوب النهر وقيادة الطوف

في الأحراش، وتعلم الاستهداء بالنجوم في الليل الموحش. تعلم التمييز بين الريح التي يعقبها المطر وتلك التي تشي بعاصفة رملية تسد البصر والأفق. وتعلم طباع البشر وفهم اختلافهم؛ أدرك أخيرًا أن الله قد خلقهم فعلًا شعوبًا وقبائل وطباعًا متباينة، وعبثًا أن تنتظر منهم غير ذلك. وأصبح يسأل نفسه أين كان من كل هذا وكيف مر بجانب كل هذا العالم ولم يره.

تدريجيًا، كشفت له تدريبات مزرعة شمال الخرطوم، والرحلات، والثقة المتزايدة التي يحظى بها من الجميع، الجانب الآخر لنشاط المجموعة. ومع وصول البحيري واستقراره بمزرعة شمال الخرطوم رأى أخيرًا ما كان يشعر بوجوده ويخشى أن يسأل عنه. فهم أن شحنات الفرساتشي ما هي إلا تغطية بالمواشي لحاويات من السلاح والذخائر، وأن المزارع الكبيرة تضم معسكرات لتدريب المقاتلين. قابلهم وخالطهم وعرفهم وعرفوه، وضحك أبو ياسر البحيري وهو يشرح له العمل الذي يقوم به من تدريب المقاتلين على استخدام الصواريخ المحمولة على الكتف إلى تصنيع بعض الصواريخ البسيطة قصيرة المدى، وفهم سر الحراس الأشداء والأمن الخاص وسر المكانة الرفيعة التي يتمتع بها الشيخ لدى القبائل العربية في شتى أرجاء البلاد، وعلاقات المجموعة الوثيقة بالحكومة، والمعاملات المالية المجهولة التي كان المدير المالي يخرجها من الميزانية الرسمية تحت بند «تسهيلات». فهم وعرف طبيعة العمل الميداني الذي تموله المجموعة، أطلعه مدير العمليات على الخبايا المتعلقة بتمويل تدريب الشباب وتسفيرهم لأفغانستان وباكستان وليبيا والجزائر واليمن وإرتريا والصومال والبوسنة والشيشان وأندونيسيا والفلبين.

لم يتصور فخر الدين في يوم من الأيام أن يجد نفسه في وسط هذه الشبكة الكبرى. لكن الأبواب التي أغلقت في وجهه واحدًا بعد الآخر أتت به هنا. أعطته المجموعة إطارًا مريحًا لحياته، ولم يطلب منه أحد الانخراط في أي من أنشطتها الخفية. اقتصر دوره على المحاسبة القانونية ومرافقة الشحنات الهامة مندوبًا عن الشيخ. وكانت الجماعة في عملها الاستثماري مثالًا للشركة المسئولة الأمينة، ولم ير في عمله معهم بهذا الشكل ما يشين، بل على العكس. وساهم مجيء البحيري في توطيد أواصر هذه المودة. ورغم عدم انخراط فخر الدين في الأنشطة الأخرى للجماعة، إلا أنه واظب على تدريباته الرياضية اليومية وركوب الخيل، والتي أعانته كثيرًا على تنقية ذهنه ونفسه مما يعتريها من غمام.

* * *

ثم تحطم هذا الإطار فجأة. أبلغ سلمان أحمد فخر الدين بأن حسين موجود بالخرطوم ويريد لقاءه. سر فخر الدين بالخبر لكنه سرعان ما أدرك أن هناك مصيبة ولا ريب وراء هذه الزيارة. ما الذي أتى بحسين من القاهرة إلى السودان؟ لم يجب سلمان أحمد غير أنه ذكر عرضًا أن حسين سيمكث بالخرطوم بعض الوقت. وطوال الطريق إلى بيته ظل فخر الدين متوجسًا.

عندما دخل فخر الدين فناء الدار ورأى حسين جالسًا لم يتعرف عليه. كان يجلس في آخر الفناء على كرسي قديم وينظر أمامه دون تركيز. رفع رأسه ونظر لفخر الدين وهز رأسه فاجتهد فخر الدين بالابتسام من باب الأدب، لكنه لم يتعرف عليه. حسين الطويل

النحيف ذو الشعر الأسود الأكرت كان أصلع تمامًا، بدون شارب، وقد تجمدت ملامح وجهه الأسمر على تعبير متجهم. اجتهد في الابتسام دون نجاح. تقدم فخر الدين إلى الشخص الجالس وهو يحاول التعرف على حسين في ملامحه. قام حسين واقفًا وهنا فقط أدرك فخر الدين أن طويل القامة النحيف هذا هو هو صديقه من كرداسة. تعانقا، وارتعش بدن حسين بين ذراعي صديقه القديم للحظات ثم تماسك واستعاد جفافه مرة أخرى. جلسا، وطلب فخر الدين لهما شايًا من أم فاطمة وقال لها أن تبعد سلطان الذي كان يموء في رتابة في إحدى زوايا الفناء.

حسين متجهم ومقتضب رغم اجتهاده في التبسط. وفخر الدين لديه ألف سؤال: القاهرة، الأصدقاء، خالته مريم، الأحوال، كل شيء. قال حسين إنه سيقص عليه كل شيء ولكن هناك أشياء كثيرة جدًا حدثت منذ تكاتبا آخر مرة وهو في باريس. عزّاه في وفاة شيرين وبارك له على مولد عمر الذي رآه هذا الصباح عند أم ياسر والذي يشبهه كثيرًا. سأله عن حياته فأجاب فخر الدين أنه يعيش من يوم ليوم حتى تهدأ روحه ويستطيع التفكير في المستقبل مرة أخرى. شرح له فخر الدين أنه لا يشعر حقيقة بما يدور من حوله، وأنه يسير في حياته بشكل آلي وكأنها حياة شخص آخر يشاهدها من علٍ، كأن هناك حاجزًا من الزجاج بينه وبين هذه الحياة والناس الذين يقابلهم والأشياء التي يراها وأنه ينتظر أن يصحو ذات يوم ويجد أن هذا الحاجز قد تهشم أو راح من حيث أتى، وحتى يحدث ذلك لن يتخذ أي قرار ولن يفعل شيئًا أكثر من المحاسبة القانونية لشركات مجموعة الوادي. أومأ حسين وقال إن ذلك كلام منطقي وعاقل.

جاءت أم فاطمة بالشاي ووضعته على منضدة خلفهما فصمتا ثم عادت داخل الدار. استأنفا الحديث فسأله فخر الدين عن أخباره وأخبار مصر فتنفس حسين بعمق وحذره من أن الأخبار سيئة جدًا، وسأله إذا ما كان مستعدًا لسماعها. رد فخر الدين بسرعة:

- خالتي مريم كويسة؟

- الحمد لله بخير وتهديك السلام.

- طيب إيه اللي حصل؟

بدأ حسين يحكي:

- ناصر الخضري تعيش انت.

- إيه؟

- ناصر، حصل له حادثة في نيويورك، المترو...

- ناصر؟

- الحقيقه إنه.. التقرير بتاع شرطة نيويورك بيقول انه.. انتحر. كمان كان بعت رسالة لصاحبه الصحفي المشهور ده بتاع المنصورة اسمه إيه..

- أشرف فهمي؟

- أيوه، ناصر كان بعت له من نيويورك وقاله حاجة عن نيته الانتحار أو حاجة زي كده. راح أشرف مسافر له لكن لما وصل نيويورك لقى ناصر تعيش انت، فجاب الجثة ورجع.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع فخر الدين وجهه بين يديه وظل صامتًا لحظات والأفكار التي تعتمل في رأسه أكثر من أن تسمح له بالكلام. واصل حسين الحكي.

- دي للأسف مش آخر الأحزان.

نظر له فخر الدين متسائلًا، فواصل حسين الحديث:

- آخر السنة اللي فاتت، في أكتوبر كده، يونس رجع لمصر. فاكر يونس؟ كان معاك انت وعلي في الجيش. يونس كان تدين بعد الجيش وانضم لمجموعة من الأقصر وسافر أفغانستان مع المجاهدين. لما الجهاد خلص وبدأت فصائل المجاهدين تحارب بعضها ساب أفغانستان ورجع مصر مع اللي رجعوا. المهم نزل عند علي، انت عارف هم يعرفوا بعض كويس من قبل الجيش. فضل عند علي حوالي شهر وشوية، حلق دقنه وغير مظهره طبعًا، لكن انت عارف بين السرايات. الكلام اتنطور فقرر انه يشوف حته تانية يقعد فيها. جه قعد عندي في كرداسة ولقيت له شغل هناك وبدأت أموره تستقر. شوية كمان، يمكن شهرين، جه مخبر يسأل عليه عند علي. قال له أي كلام. بعد يومين الأمن استدعى علي. قلت له ما يروحش بس هو راح. سألوه وقال لهم ده صاحبي ده بلدياتي ده دفعتي ده كان بيزورني ومشي ومعرفش هو فين. طبعًا ما دخلش عليهم الكلام ده. سابوه يمشي وفضلوا راصدينه لغاية ما قابله عندي وعرفوا طريقه. فضلوا برضه ساكتين وبيتابعوه في هدوء. شوية شوية رصدوا الكل. على آخر يناير بدأوا يلموا الناس كلها. قبضوا على ناس كتير في كرداسة والجيزة، وجم يقبضوا علينا معاهم. إحنا مالناش دعوه، بس بما إنهم

رصدونا معاهم قرروا ياخدونا، احتياطي يعني. أنا وعلي استخبينا لما بدأوا يلموا الناس، كل واحد في حته. فضلنا مستخبيين وفضلوا هم يروحوا البيت يسألوا علينا ويسيبوا لنا رسايل ما نخافش ونروح نسلم نفسنا وإن ده مجرد تحقيق والكلام ده. لكن اللي حصل إنهم كانوا بيلموا الناس ومفيش ولا واحد من اللي اتمسكوا رجع بيته ولا حد عرف عنه حاجة بعدها. لموا حوالي ألف واحد، معظمهم من اللي رجعوا من أفغانستان. كان مستحيل نسلم نفسنا، إزاي حانثبت إن مالناش دعوه بيهم؟ واللي سمعناه عن طرق التحقيق يخلي الواحد يفضل الموت على تسليم نفسه. على ما تثبت انك بريء يا عالم يكون جرى لك إيه. فضلنا نستخبى ونتنقل من مكان لمكان. وبعدين بدأت الأمور تتدهور.

- كمان؟

- قبضوا على خالتك وعلى ليلى بنت عمك.

وجم فخر الدين. أبطأ حسين من حديثه وتمهل في نطق الكلمات.

- قبضوا عليهم وسابوا رسالة لعلي يروح ياخدهم. احنا معلوماتنا، من الحالات السابقة يعني، انهم بيضغطوا على الأهالي علشان المطلوبين يسلموا نفسهم. فيه ناس بيتبهدلوا في الحبس لغاية ما المطلوبين يظهروا. أحيانا البهدلة بتكون جامدة. وكل ما المطلوب يطول في الاختفاء كل ما الضغط يزيد. خالتك وبنت عمك بخير والحمد لله؛ بيقولوا انهم عاملوهم كويس، ليلى بتقول كده. الخالة ما بتتكلمش؛ ساكتة وبتقول كله مقدر ومكتوب. ليلى بتقول يعني الحكاية كلها كام قلم وكام شتيمة وزقتين وسوء معاملة بس مفيش

حاجة كبيرة. الله أعلم طبعًا. لما كنت باشتغل في مكتب الشناوي كنت بشوف حاجات فظيعة، لكن الأمر يختلف من مكان للتاني، حسب الظروف. احنا ما كنّاش عارفين إيه الوضع، بس علي اتجنن لما قبضوا على الخالة مريم وليلى وصمم يسلم نفسه. حاولت أقنعه ما يعملش كده. انت عارف قد إيه خالتي مريم غالية علينا كلنا لكن ما هو اللي حصل حصل وخلاص. علي ما سمعش الكلام وراح فعلًا سلم نفسه وسابوا الخالة مريم وليلى يروحوا في نفس اليوم.

- وعلي؟

- سمعت من زملاء كانوا معاه إن التحقيق كان شديد. وإن علي كان بيعند معاهم. معرفش التفاصيل بالضبط، يعني سمعت حاجات متعارضة. واضح إنه حصل حاجة غلط، وعلي ما استحملش. مسكين، الله يرحمه.

اختنق نفس فخر الدين وشعر بأن أحدا يضغط عليه من وسطه حتى يكاد يهصره. رأسه تثقل والهواء يختفي. ملامح حسين تتباعد، وصوته يخفت.

- الأمن قال إنه أصيب بأزمه قلبية، وقال أزمة سكر، وقال حاجات من اللي بيقولوها في الحالات دي. عملوا التقرير الطبي في نفس اليوم وخدوا الجثة لأسوان في عربية شرطة مع حراسة ودفنوه بحضور أبوه واخواته فقط وحطوا حراسة على المقابر حوالي شهر وضغطوا على أبوه ما يفتحش بقه مع مخلوق. أهله خدوا العزاء تحت إشراف المأمور وكله تم في الساكت. الله يرحمه.

فخر الدين لا يتحرك؛ تحجرت ملامح وجهه، لا تختلج به عضلة واحدة.

– جه الدور عليه أنا. لموا خلق الله اللي في كرداسة كلهم وقالوا دي «خلية كرداسة». ولا خلية ولا يحزنون، كل اللي نعرفهم انقبض عليهم سواء كان لهم علاقة بتنظيم أو لأ، والجهاديين اللي قبضوا عليهم بعضهم نشط فعلًا وكان بيدبر عمليات وبعضهم مالوش أي نشاط وراجع تعبان من اللي شافه ومش عايز غير انه يعيش بعيد عن المشاكل. يعني لموا العاطل في الباطل على أساس يفرزوهم بعدين بطريقتهم. أنا اختفيت عند جماعة أعرفهم في الجبل في الأقصر، ولا مين يعرف يجيبني هناك. ناس كتير من اللي مسكوهم يعرفوني، انت عارف أنا شيخ عرب وفاتح بيتي للكل. كل اللي يمسكوه يقولهم رحت عند حسين، حسين جاب لي سفريه للسودان، حسين وصلني بواحد في اليمن، حسين عرفني على واحد في لندن، افتكروا حسين ده مدير عمليات التنظيم. ركزوا عليّ. قبضوا على أخويا اللي في سوهاج وعلى البيت كله في أسيوط: أخويا، ومراته، وأبويا، وأمي. مش عايز اقولك عملوا فيهم إيه. أنا ابويا راجل مريض لو تفتكره. كفاية أقولك انك لو شفت أي واحد منهم النهارده مش حاتعرفه. أنا معرفتوش لما شفته. ومش حاقولك على النسوان واللي اتعمل فيهم. وده الصعيد يا بويا؛ عارف يعني إيه تقبض على مَره في الصعيد؟ ولا امك يتقبض عليها وتتبهدل في الحبس؟ فضلوا ماسكينهم شهر، وماكفاهمش؛ بعتوا البلدوزر هد البيت. فاكر البيت اللي انت قعدت فيه؟ بعتوا البلدوزر واستنوا أسبوع ولما ما ظهرتش بعتوا قوة من البوليس وبالبلدوزر هدوا الدار. في ساعة كانوا سووه بالأرض.

بعديها أفرجوا عن النسوان وبعدين أبويا واخويا بتاع سوهاج. بس اخويا التاني لسه في الحبس. كده من غير تهمة ولا يحزنون. مخليينه عندهم لغاية ما اظهر. وعملوا قضية وحطوني فيها وحكموا علي بالإعدام غيابي.

- الإعدام؟

- آه. الإعدام. قمت لميت حاجتي وجيت من الجبل على هنا.

صمت فخر الدين وبقي جالسًا لا يتحرك. كأنه شاخ وهو جالس. صمت حسين. وظلا هكذا جالسين بلا حراك في ذلك الفناء الطيني بالخرطوم، وحاجز من القماش السميك يحجب الشمس الساطعة فوق الفناء عن رأسيهما، وحاجز آخر ينغرس في قلب فخر الدين.

- نسيت أقولك: البقيه في حياتك.

- مين تاني؟

- عمر فارس.

- وكيل النيابة؟

- آه. اللي كان بيعمل تحقيق في قضيتك؛ صاحب الدكتور نشأت. فاكره؟

- مات؟

- حادثة عربية. خبطته عربية في شارع فرعي جنب بيته في القصر العيني. خبطته واختفت. مع إنه شارع ضيق ومفيش فيه عربيات مسرعة. بس سبحان الله دي كانت مسرعة؛ خبطته وما وقفتش واختفت بقدرة قادر في شارع القصر العيني.

- الله يرحمه.

- الله يرحمنا جميعًا.

عادا للصمت. مر وقت طويل وهما هكذا ثم جاءت أم فاطمة تدعوهما لتناول طعام الغداء. غمغما أنهما لن يأكلا. قام حسين وذهب وقام فخر الدين إلى غرفته. جلس على طرف فراشه صامتًا. جاءته شيرين وجلست بجواره. كانت صامتة أيضًا وعيناها حزينتان. تطل عليه ولا تقول شيئًا، وهو لا يقول لها شيئًا. يود أن يبكي. يود أن يرتمي في حضنها وينفجر في البكاء. لكنه لا يقوى، لا يستطيع أن يأتي بالقوة اللازمة للبكاء. لا شيء بقي غير حزن خشن ومتجمد كصخر قبيح الشكل. ينظر إلى شيرين ولا يرى ملامحها جيدًا. عيناه تحتقنان لكنه لا يبكي. حاول أن يعتصر الدمع من عينيه. يريد أن يبكي على صديقه علي، وناصر، وكل هؤلاء القتلى، وعلى ليلى وخالته وكل من تعرضوا للأذى. لكنه يجلس واجمًا، لا يبكي ولا يتحرك، ولا تتبدل ملامح وجهه. سلطان يموء على باب غرفته، وفخر الدين لا يتحرك. لا يسمع غير طنين بعيد ومواء. صمت كامل لا يقطعه سوى هذا المواء الرتيب. حل المساء تدريجيًا على فخر الدين في جلسته هذه ورأسه تكاد تنفجر. سلطان ما زال يموء. جاءت أم فاطمة وحملت القط بعيدًا وسألت فخر الدين إن كان يريد شيئًا قبل أن تعود لبيتها، واستأذنت أن تأخذ عمر ليبيت معها فلما لم يرد حملت عمر وذهبت.

حل صمت كامل على البيت. هبط الليل وهو جالس على الفراش، ثم سقط من الإجهاد ونام. نام ساعة حلم فيها بعلي وناصر

وعمر فارس وأمه وخالته وليلى وأهل حسين. كانوا جميعًا في منزل كبير موصد الأبواب والنوافذ والجرافات تهدم جدرانه وهم يصرخون ويحاولون الخروج لكنهم لا يستطيعون فتح الأبواب. استيقظ مذعورًا. يسمع صوت حفر آت من الباب. أرهف السمع، سلطان يحفر باب الغرفه بمخلبه. يرفع مخلبه ويرشقه في خشب الباب ثم يحفره إلى أسفل. يعيد الكرة مرة تلو المرة، وبين كل مرة وأخرى يموء. انتفض فخر الدين من الفراش وقفز ناحية الباب وفتحه وقد فقد السيطرة على نفسه تمامًا. فتح الباب وأمسك بالقط من ظهره وأخذ يضرب به الباب. أخذ يضرب رأسه بالباب وغضب مكبوت يتفجر منه حتى تهشمت رأس القط الغبي تمامًا. نظر للرأس المهشمة فوجد عيني القط فيهما نفس النظرة البلهاء، فاستشاط غضبًا من جديد وجذب ما تبقى من رأسه نازعًا إياها عن جسد القط، لكن الرأس رفضت الانخلاع وظلت عالقة بالجسد عند الجلد. أمسك فخر الدين بالقط من رأسه بيد ومزع جلده باليد الأخرى، ثم بدأ يمزق جسد القط بيديه. انغمست يده في دماء القط وهي ما زالت ساخنة تسيل من لحمه وأخذ يمزق الجسد الضئيل قطعًا ويلقي بها خارج الغرفة. وحين تفتت جسد القط كله جلس فخر الدين على الفراش ومن حوله بقع من الدماء وقطع من اللحم والفرو والعظم المهشم وشعر ببداية راحة تغمره. كأن ماردًا خرج من بين يديه. «كل هؤلاء القتلى ماتوا بخيط واحد، وأنا هنا أحسب الحسابات وأزن الأشياء، وأقول نعم وأقول لا. الجرافات تمر فوقي وأنا ما زلت أتساءل عما ينبغي فعله». خرج من البيت. مشى قليلًا في الشارع. لمح قطًا يأكل في كوم من القمامة فأمسك به من رقبته وعاد به للمنزل. القط يموء

ويحاول التملص من يد فخر الدين وهو قابض عليه كالموت الذي ينتظره. سار به للمطبخ وملامح وجهه متحجرة واستل سكينًا وغرزها في صدر القط المجهول وأدار السكين يمينًا ويسارًا يوسع من فتحة الهواء الداخلة في الجرح. جحظت عينا القط وأخذ في الانتفاض، لكن قبضة فخر الدين لم تتزعزع. ظل ينظر في عيني القط اللتين تجحظان حتى انطفأتا تمامًا، ثم ألقى بجثته في الصالة بجوار قطع سلطان.

جاءت أم فاطمة في الصباح ومعها عمر فأخذه فخر الدين من يدها عند الباب وقال لها أن ترحل. أعطاها مالًا وطلب منها ألا تعود ولم يرد على أسئلتها بل أغلق الباب في صمت. عند الظهر، أودع عمر لدى أم ياسر وأوصاها به خيرًا. ثم رحل إلى مزرعة شمال الخرطوم.

* * *

كان حسين من اقترح تفجير القنصلية المصرية بالخرطوم، لكن فخر الدين اعترض على قتل موظفين أبرياء مشككًا في جدوى هذه الأعمال أصلًا.

– أبرياء؟ بتقول أبرياء؟ العميد أحمد كمال مسئول مكافحة النشاط الديني أبرياء؟ العملاء والجواسيس أبرياء؟ أمال أمي اللي اعتدوا عليها تبقى إيه: مجرمة؟ هي أمي اللي قتلت عيسى وعلي وحاولت قتلك وحكمت عليَّ بالإعدام وطاحت في أهالينا؟ ولا أبويا كان هو اللي لغى القانون ومنع التحقيق ووأد حياتنا وقتل عمر فارس لما ما سمعش الكلام؟ أمي وابويا وخالتك اللي قبضوا على

ألف واحد وعذبوهم ورموهم في السجون؟ أبرياء إيه؟ مش أحمد كمال ده اللي حاول يجند داليا الشناوي ويخليها تودينا كلنا في داهيه؟ مش هو اللي جه ورانا هنا حتى بعد ما سبناله البلد ومشينا؟

حاول فخر الدين إثناءه عن هذا المنحى؛ ذكره أنه لا يجب اختزال المشكلة في شخص، وأنه حتى لو كان أحمد كمال مسئولًا عن بعض هذه الجرائم فإن تفجير القنصلية لن يعود على أحد بفائدة. سيقتل الكثير ممن لا علاقة لهم بالموضوع، وسيفتح باب جهنم ويدخلهم في سلسلة لا تنتهي من القتل والانتقام، ولن يعالج شيئًا. اقترح فخر الدين أحد أمرين: إما التخطيط لعمل كبير في مصر يمكنهم من تغيير الأوضاع المسئولة عن كل هذا الظلم وكل ذلك القتل، أو – إن كانوا يريدون الانتقام – استهداف الذين ألحقوا الأذى بهم مباشرة؛ الذين نفذوا والذين أعطوا الأمر، ليس قتل ناس بشكل عشوائي.

لكن حسين كان قد تجاوز مرحلة التشاور. أخبر فخر الدين أنه أعد العدة للتنفيذ وأقنع أبا ياسر البحيري وشاور بقية الإخوة وحصل على موافقة الجميع، وأن هناك فتوى بجواز قتل عمال الحكومة حتى ولو لم يشتركوا مباشرة في جرائمها لأنهم يسوغون لها هذه الجرائم وييسرونها. احتج فخر الدين على استخدام هذه الفتاوى، وحذر حسين والبحيري من خطر الدخول في هذا الطريق، وظل يحاول إقناعهما والباقين طيلة شهري يناير وفبراير من ذلك العام. ولكن بحلول شهر مارس طلب منه حسين أن يكف عن ذلك لأن التنفيذ قد بدأ بالفعل، وأخبره أنهم اتفقوا مع مجموعة باكستانية على تنفيذ العملية لحسابهم في حين يقدمون هم المساندة وأعمال التمويه والتغطية في السودان. سأل فخر الدين إن كان الشيخ على علم

بذلك فقال له حسين إنهم لم يتحدثوا معه صراحة في ذلك، وأنهم قرروا الاستقلال عن مجموعة الشيخ، ولكن سلمان أحمد هو حلقة الوصل مع الجماعة الباكستانية وهم يتركون له تقدير مدى ضرورة إخطار الشيخ. صمت فخر الدين. يعرف أنه من المستحيل لشخص واحد أن يسيطر على هذه الأمور، هذه مجموعة كبيرة، والقرار فيها بالتشاور لا يملك واحد فيها حق الاستئثار به.

كان أبو ياسر البحيري قد تولى قيادة مزرعة شمال الخرطوم منذ وصوله، وحولها مع الوقت إلى مقر للشباب الآتي من مصر. أنفق حسين وقته بين دروس الدين والتدريبات البدنية، وتلقى الكثير من التدريبات العسكرية وتفوق فيها كلها، وما هي إلا شهور قليلة حتى صار من أبرع المقاتلين في المزرعة، وأشاد به مدربوه جميعًا: يؤدي التدريبات وكأنه يقاتل بالفعل، بتصميم وإرادة من فولاذ. لا شيء يوقفه أو يعترض طريقه؛ يدوس العقبات كلها ويمر من خلالها بلا أي مشاعر ويخرج منها دون أن يصيبه أذى.

أما فخر الدين فكان يتدرب بشراهة فاجأته هو نفسه. أتقن الرماية بسرعة، وتعرف على مختلف صنوف الأسلحة من المسدسات الصغيرة إلى البنادق الآلية التي يمكن تثبيتها على السيارات. وبعد وقت قصير أصبح قادرًا على إصابة الهدف مهما صغر، أو بعد، أو تحرك، سواء كان سلاحه مزودًا بعدسة قنص أم لا. وكان يفعل ذلك دون مجهود ظاهر؛ يجلس في مكانه والسلاح في يده، وحين يظهر الهدف يرفع سلاحه ويصيبه - في أقل من ثانية - دون أن يتحرك من مكانه أو تختلج في وجهه عضلة، ثم يواصل جلوسه الساكن. فقد ما كان قد تبقى لديه من بشاشة، وانغلق وجهه على تعبير جامد لا يتغير.

في أول يونيو أخبره البحيري أن عناصر العملية قد اكتملت، وبقيت بعض التفاصيل واختيار توقيت التنفيذ. استقر الرأي على شهر أغسطس للتنفيذ حيث ينعقد في الخرطوم مؤتمر للأمم المتحدة حول حقوق الإنسان وستمتلئ المدينة بأجانب من كل صنف بما يسهل على مجموعة التنفيذ الدخول والخروج والحركة. كانوا يراقبون القنصلية ومن فيها منذ شهور، وتعرفوا على عادات العاملين فيها ومواعيدهم وتنقلاتهم، وتحققوا من هوياتهم الأصلية. كان هناك بعض الدبلوماسيين وهؤلاء ليسوا جزءًا من الهدف، وهناك العاملون بأجهزة الأمن وعلى رأسهم أحمد كمال، وهؤلاء يتخذون من مبنى القنصلية مقرًا لهم. ومن ثم اختاروا قوة العبوة الناسفة بحيث تدمر القنصلية دون أن تهدم المباني المجاورة. جهزوا أماكن لإقامة فريق التنفيذ الذي سيعد الشكل النهائي للعبوة، وهي حقيبة أوراق مملوءة بمادة التي إن تي شديدة الانفجار، وسيكون المفجر مفتاح هذه الحقيبة. كما سيأتي مع الفريق الشخص الذي سيحملها ويدخل بها المبنى ويفجرها، وهو مدرب وحريص على الشهادة.

بقي عنصران: كيفية تقليل عدد المدنيين المترددين على القنصلية ذلك اليوم، وتضليل رجال الأمن في حالة تسرب أي خبر عن هذه العملية قبل التنفيذ. شرح لهم البحيري أهمية ذلك، فدائمًا ما يتسرب شيء لأجهزة الأمن مهما كان إخلاص المشتركين في العملية؛ هناك دائمًا عميل لأحد الأجهزة يطّلع على جزء من الخطة أو شخص يتعرف على أحد المنفذين، أو كلمة تتسرب أو خطأ من أحد المنفذين تحت الضغط النفسي للعملية. ومن هنا الحاجة لـ«خطة إشغال» لإرسال أجهزة الأمن في اتجاهات خاطئة تستغرق وقتهم واهتمامهم وتضللهم إن تسرب خبر عن العملية.

- يعني بالبلدي كده مطلوب خيال مآته.

فكروا للحظات ثم قال فخر الدين ببطء:

- أنا خيال المآته.

نظروا إليه غير فاهمين، فأخذ يشرح لهم تصوره.

* * *

كان الدكتور نشأت غالب هو الوسيط. اتصل به فخر الدين مدعيًا أنه مهندس بترول يعمل في الولايات المتحدة وصديق قديم لأشرف وأن لديه أشياء يريد إبلاغها لمسئول أمني مصري بسرعة ودون ضجة، فاقترح نشأت أن يقابل القنصل ورتب له موعدًا مع أحمد كمال في الهيلتون بعد صلاة العصر حسب طلبه. مقهى الهيلتون خال في هذا الوقت، والكورنيش أمامه أيضًا خال. لا شيء سوى بعض السيارات المارة باتجاه جسر أم درمان وبعض المتسكعين.

دخل فخر الدين من باب جانبي وهبط السلم للطابق السفلي حيث بعض المحلات ثم أخذ المصعد للطابق الرابع ومنه أخذ مصعدًا آخر وهبط إلى البهو. خرج من المصعد وتبين على الفور الضابط المصري الجالس في المقهى يتلفت حوله وابتسم لنفسه: «يكاد المريب يقول خذوني». كان فخر الدين قد أطلق لحيته قليلًا وهذبها وصبغ شعره بلون كستنائي، ووضع عدسات لاصقة خضراء وبدا كأستاذ جامعة أمريكي. اقترب من أحمد كمال ومد يده مصافحًا:

- أحمد بيه كمال؟

جلس في ثقة وطلب لنفسه قهوة إسبرسو بينما طلب أحمد قهوة سادة. تحدث فخر الدين ببطء وبتردد مطعمًا كلماته بالإنجليزية. قال له إنه يعمل بشركة بترول أمريكية وإنه أتى إلى الخرطوم في عمل للشركة. سأله عن هويته فقال الرجل باندهاش إنه القنصل. نظر إليه فخر الدين في عينيه وقال:

- عارف، أنا قصدي إنت من الأمن ولا من الخارجية؟

نظر إليه أحمد كمال نظرة طويلة، وقال ببساطة:

- من الأمن يا سيدي. مش انت طالبني عشان كده؟

ابتسم فخر الدين. ها هو يجلس على بعد خطوتين من أحد المسئولين عن دم أحبابه، وهو الذي يناور، هو الذي يلعب به. استطرد:

- كويس برضه، كده حتلاقي ملفي عندكم.

- أنا ما باشتغلش في مباحث أمن الدولة، إذا كان ده الهدف من تلقيح الكلام.

- أنا ما بالقّحش كلام، الظاهر حضرتك مش فاهم! إحنا مش في مصر، ولو عايز أضربك دلوقت مفيش عساكر حتنده عليهم يحطوني في الحجز ويوضبوني!

- أنا عارف.

- المهم، أحكي لك الحكاية لأن الوقت بيعدي وأنا لازم أمشي. أنا أحوالي مستقرة في أمريكا، متجوز أمريكية مسلمة وعشت حياتي في هدوء بعيد عن مصر. المهم، علشان أختصر، أنا وصلت الخرطوم من شهر وكان المفروض العائلة تحصلني على أساس يقضوا فترة

الإجازة الدراسية معايا. وفعلًا وصلوا من ثلاثة أيام، وبالصدفة، مراتي لقت في شنطة ابننا حاجة غريبة. قوالب من مادة غريبة زي الشمع ملفوفة بعناية وأوراق يبدو أنها دليل لصنع عبوات ناسفة. قالتلى. أنا طبعا اتجننت. ما سبتش الواد غير لما أقر. قاللي دي «أمانة» لازم يسلمها لبعض الإخوة في الخرطوم. هم اللي بيتصلوا بيه، وهو ما يعرفش لا كنه الأمانة ولا الغاية من نقلها. قوللي انت أعمل إيه؟ أرمي الحاجات دي في النيل وأقفل على الموضوع؟ طيب والناس اللي حايتصلوا بيه هنا، نقول لهم ايه؟ الولد قال مش ممكن يرمي الحاجات لأنه أقسم لهم إنه «سيسلم الأمانة إلى أهلها» وخيانة الأمانة عقوبتها الموت. طيب أبلغ القنصلية الأمريكية؟ العقل والمنطق والواجب يقول إني أبلغ. دي حياة ناس أبرياء. بس حاجة جوايه بتمنعني. معقولة أبلغ البوليس الأمريكي عن أهلي وأبناء ديني؟ طيب أبلغ البوليس السوداني؟ بس دول معندهمش لا حقوق إنسان ولا ياَمّه ارحميني وممكن يموتونا كلنا فيها. طيب أعمل إيه؟ لقيت إن الحل الوحيد هو إني أسلم الأمانة بنفسي وأبلغهم إن الولد بره الموضوع من هنا ورايح. كوني نقلت الأمانة علامة على حسن نيتي وبالتالي رد فعلهم حيكون هادي. في نفس الوقت قررت أبلغكم. لما قابلت الدكتور نشأت سألته إن كان يعرف حد وقال لي عليك.

- كويس والله، والحاجة دي بقى فين؟

- وصلتها للجماعة، من ساعة.

- حضرتك بتقول إنك وصلت الحاجات؟

- ده كان الحل الوحيد أمامي علشان أحافظ على بيتى. إنت ما تتصورش الحالة الهستيرية اللي هم فيها. دول مش زينا كده

واخدين الأمور على الهادي، دول باكستانيين وأفغان من اللي جايين من الحرب مع الروس إحساسهم ميت، ويا ويله اللي يبان عليه شبه ضعف.

- أيوه أيوه، والبلاوي دي مين اللي استلمها؟

- ده بقى شغلك انت، أمال انت هنا بتعمل إيه؟ ولا فالحين بس تتشطروا على الغلابة في مصر؟ على رأي عادل إمام، مش انتوا الحكومة وعارفين كل حاجة؟

- عادل إمام؟ حضرتك بتهزر؟ نقلت متفجرات لإرهابيين وجاي تهزر؟

- اسمع يا حضرة الضابط، أنا كان ممكن ما اوركش وشي من أصله وأقول لك ده بالتليفون، وكان ممكن ماقولش حاجة خالص وأروح من مطرح ما جيت، فيا ريت تهدا كده وتخلينا في المفيد.

- أيوه... وإيه بقى المفيد سيادتك؟

- أقول لك على الجهة اللي سلمت لها الحاجة - بدون ذكر أشخاص بالاسم، وفي المقابل تكتب لي تعهد إنه لو حصل حاجة إني هكون شاهد في القضية.

- أكتبلك.

- بيني وبينك أنا ما عنديش ثقه في كلام الأمن بتاعنا، ماتآخذنيش أنا ما قصدش حضرتك أنا باتكلم عموما، لكن الورقة ممكن تفيد قدام المحاكم الأمريكية لو المسألة وصلت لكده.

- قلت لك حاكتبلك الورقة فمفيش داعي للكلام الزيادة والغلط.

أخرج فخر الدين ورقة مكتوبة وأعطاها له. قرأها الضابط بدون تمعن ثم وقعها وأعادها له. دسها فخر الدين في جيبه وهو يبتسم في سره، وقام واقفًا وهو يقول بصوت خفيض:

- التسليم كان لشيخ الجامع الكبير في أم درمان. السلام عليكم.

ثم مضى.

* * *

جلسوا ثلاثتهم عند النافذة يرقبون مدخل القنصلية. الجو حار والساعة تقترب من العاشرة صباحًا. حسين أكثرهم توترًا ولا يكاد يستقر في جلسة أو وقفة. عندما علم سلمان بلقاء فخر الدين مع العميد أحمد كمال ثار وهاج وماج. قال لهم إنهم هواة ولا يعرفون ما يفعلون. وعندما نظروا إليه في غير فهم اهتاج أكثر. سألهم سلمان أحمد في نفاد صبر كيف يمكن أن يحمل شخص متفجرات في طائرة عبر المحيط دون أن تكتشفها أجهزة الفحص في المطار الأمريكي ودون أن تنفجر بتأثير الضغط الجوي خلال الرحلة. وقفوا ثلاثتهم واجمين، واستغرب سلمان ألا يلاحظ العميد أحمد كمال هذا الأمر. قلل حسين من الخطر، مؤكدًا على عدم كفاءة عناصر الأمن واعتمادهم على الصدفة أكثر من اهتمامهم بالتفاصيل. لم يعجب سلمان أحمد الكلام، ورد هازئًا أنهم هم الذين يعتمدون الآن على الصدفة: إن انتبه أحمد كمال للأمر فسيعرف أن فخر الدين كاذب، وسيكون هذا أول الخيط الذي يقوده لوقف العملية.

وقف فخر الدين يرقب مدخل القنصلية وهو صامت. في أعماقه يتمنى أن يحدث شيء ما يمنع التنفيذ. البحيري واجم وحذر. حسين قلق ومتوتر ويجتهد في السيطرة على نفسه. في تمام العاشرة إلا الربع ظهر المنفذ. كان البحيري أول من رآه، فتوقف عن الكلام والحركة وثبت نظره في اتجاهه. لاحظه الآخران فنظروا في اتجاه نظرته. زفر حسين:

- أخيرًا!

سأل فخر الدين بقلق:

- هو ده؟

أومأ البحيري في صمت. المنفذ باكستاني، ويرتدي الملابس المميزة للباكستان، له لحية طويلة، ويحمل حقيبة رحلات صغيرة على ظهره. استغرب فخر الدين أن يكون المنفذ واضح الهوية بهذا الشكل. سأل في قلق:

- تفتكر مش حايفتشوه؟ ده شكله واضح قوي.

- فات أوان الأسئلة دي خلاص.

رد حسين بتلقائية وهم جامدون في وقفتهم وعيونهم لا تفارق خطوات الرجل. سار الانتحاري باتجاه باب القنصلية. مر بسيارة الجنود السودانيين القابعة على أول الشارع ولم يوقفه أحد. وصل لباب القنصلية وأومأ للحارس. أوقفه الحارس وتبادل معه بضع كلمات. حبس الثلاثة أنفاسهم. دخل الحارس إلى كشك صغير وأجرى محادثة قصيرة بالهاتف ثم عاد وأشار للمنفذ باتجاه صالة

الانتظار. أومأ له الرجل ومضى نحو المبنى العتيق. تنفس حسين الصعداء وربت على كتفي زميليه. مضى المنفذ داخل المبنى في العاشرة إلا سبع دقائق بالضبط.

- حسين.. مش ممكن نوقفه؟

ربت حسين بحنان على كتف فخر الدين:

- إن شاء الله كله حايبقى تمام. ما تقلقش. من دلوقت القواعد حاتتغير، دلوقتي حايفهموا إن جرايمهم مش حاتعدي بدون عقاب.

صمت وصمتوا. اكتملت دورة عقارب الساعة وأشارت إلى العاشرة بالضبط عندما وقع الانفجار. في البداية جاء الضوء. ضوء أصفر كبير وبداخله كرة من الضوء الأزرق، ثم ارتجاج خفيف في الأرض والهواء كأن الدنيا صورة تهتز، وصوت يشبه الطنين يصم الآذان. ثم علا الغبار، كرة ضخمة من الغبار ارتفعت في الهواء وظلت عالقة. وقف الثلاثة يحاولون تبين ما حدث لمبنى القنصلية لكن سحابة الغبار حالت دون رؤية ما يجري. ساد صمت عميق على المنطقة كلها. كأن الجميع ما زال تحت صدمة المفاجأة. سيارة نقل الجنود لم تتحرك، لكن بعد دقائق خرج منها جنديان وذهبا بحذر باتجاه المبنى. الشارع قفر إلا من هذين الجنديين اللذين يسيران نحو سحابة من الغبار. الثلاثة ينظرون من مكمنهم عبر النافذة. فخر الدين واجم، وحسين تعتريه النشوة ويحاول منع نفسه من القفز في الشارع كي يقول للجميع إنه الفاعل، والبحيري ينظر لمباني القنصلية والشارع بقلق. تمتم:

- لازم نمشي دلوقت.

رد حسين وعيناه مثبتتان على سحابة الغبار:

- استنى شوية. مش حايجرى حاجة. الأمن مش حايوصل للعمارة قبل ساعة.

بدأت أصوات سيارة الإسعاف تأتي من بعيد، ثم وصلت سيارة شرطة، ثم سيارة أخرى بعدها بدقائق. سحابة الغبار ما زالت عالقة، لكن ملامح المبنى بدأت في الظهور. انهار الطابق الأعلى بالكامل فوق الطابق الأرضي، وسقط السقف في بعض المواضع. انهارت جدران بالكامل، وأخرى تصدعت. ركام. هذا ما تحول إليه المبنى؛ ركام. بعد ربع ساعة وصلت أولى سيارات الإطفاء، لكن أحدًا لم يغامر بعد بالدخول في الأنقاض. لم يكن هناك حريق، بل ركام وغبار وصمت مطبق. كان الثلاثة يفكرون الآن في الضحايا: أين من كانوا في المبنى؟ وماذا جرى لهم؟ كم عددهم؟ وماذا سيحدث الآن. كرر البحيري في تصميم هذه المرة:

- لازم نمشي دلوقت.

أذعن حسين، وجر البحيري فخر الدين من ذراعه وهو يتبعه كالنائم. خرج الثلاثة من الشقة. كانت مؤجرة باسم أحد المعارف ولا شيء بها يدل عليهم. هبطوا الدرج إلى الشارع. عند التقاطع المؤدي إلى كورنيش النيل، قال حسين:

- أنا رايح عند القنصلية.

- إنت مجنون؟

- أنا جاي معاك يا حسين.

نظر إليهما البحيري مندهشًا:

- إيه يا جماعة ده؟ انتوا بتهزروا؟

رد حسين وعيناه مثبتتان على موقع الانفجار:

- ما تقلقش يا بحيري قوي كده. شيء طبيعي إن مصريين يتجمعوا عند القنصلية ويتفرجوا على الحادثة. ده أكتر سلوك طبيعي.

- انتوا غلطانين، ماينفعش كده.

- روح انت واحنا حانحصلك.

- ده غلط يا حسين، احنا مجموعة واللي بيعمله واحد بيأثر على الكل. بس معلش، المرة دي وتعدي إن شاء الله. ياللا، ماتطولش هناك، مش عايز صوركم تطلع في التليفزيون!

عاد البحيري للمزرعة في حين ذهب حسين وفخر الدين لموقع الانفجار. كان الجنود قد بدأوا في التوافد ولكن ما زالوا في سياراتهم ينتظرون الأوامر. وقف فخر الدين عند سور القنصلية في حين تخطى حسين الحاجز إلى الداخل. حاول فخر الدين أن يمنعه لكن حسين نحاه جانبًا ومضى داخلًا. لم يكن من الممكن إيقافه. وقف فخر الدين ورائحة التراب العالق حوله تملأ أنفه. لكن كانت هناك رائحة أخرى قوية، رائحة شواء. استغرب؛ لا يذكر أن هناك كبابجيًا بالشارع. ثم إن الوقت مبكر على الشواء. فجأة، أدرك ما يحدث. كانت رائحة اللحم المشوي آتية من الداخل، من الركام.

* * *

جن جنون السلطات السودانية وطلبوا من الجماعة مغادرة البلاد على الفور. لم يكن عدد الضحايا كبيرًا؛ قتل ثلاثة من حراس الأمن ودبلوماسي صغير تصادف وجوده في القنصلية ساعة الانفجار، إضافة لمنفذ العملية الباكستاني. أما القنصل أحمد كمال فقد أصيب ونقل بطائرة طبية في نفس اليوم إلى القاهرة هو وثلاثة زوار مصريين آخرين تصادف وجودهم بالقنصلية لحظة الانفجار وتم وضع الأربعة بغرفة العناية المركزة. لكن الذي أطار صواب السلطات السودانية هو قيام جماعة صغيرة الحجم وحديثة التكوين بتدبير عملية بهذا الحجم على أراضيها دون علمها ودون أن تستشعر أجهزتها شيئًا. قالوا للجماعة إنهم تجاوزوا الخطوط الحمراء، وأقاموا دولة داخل الدولة، وأحرجوهم مع الحكومة المصرية وأمام المجتمع الدولي. حاولت الجماعة توسيط الشيخ لكنه رفض التوسط في شيء لم يستشر فيه. قالوا له إنهم شاوروا سلمان أحمد فقال لهم أن يلجأوا لمن شاوروا. ولم يعد أمامهم سوى الرحيل.

كان فخر الدين حزينًا ومنزعجًا، وكذلك البحيري، أما حسين فبدا مزهوًا بقدرته على التخطيط والتنفيذ المحكم، ومنتشيًا بانتقامه. وكان هذا مصدرًا لقلق فخر الدين؛ يراقب انفكاك غضب حسين من عقاله ويخشى مما يمكن أن يقود له هذا. في نظر فخر الدين، فشلت العملية في تحقيق هدفها الأساسي وهو عقاب أحمد كمال، الذي نجا بالرغم من إصابته الخطيرة. كما أوقعت العملية ضحايا أبرياء لا ذنب لهم، مثل الدكتور نشأت غالب الذي طالما قدم لهم يد العون، وأشرف فهمي وهو صحفي لا علاقة له بهم، وداليا الشناوي صاحبة مكتب الدفاع القانوني الذي عمل به حسين نفسه قبل هروبه من مصر. لكن

حسين قال إن إصابتها ليست خطيرة، وإنها تتعافى، وإنها لو سئلت لفضلت الشهادة. أما نشأت فهو منتفع، ولم تكن معونته المزعومة يومًا ذات فائدة. وأشرف فهمي أفّاق. وقف البحيري في المنتصف، إذ شارك فخر الدين الانزعاج على ما لقيته داليا ووصف ذلك بالخطأ، مشيرًا إلى أنه لم يتوقع إطلاقًا أن تذهب هي بالذات للقنصلية، وأنهم فعلوا ما استطاعوا لدفع المصريين لتشديد إجراءات الأمن وتقليل عدد الزوار، وربما كان يجب تحذيرها هي بالذات، ولكن الحذر لا يمنع قدر. قال البحيري إن المهم مواجهة الأزمة الحالية وتدبير أمر رحيل الجماعة، والتعلم من هذه الأخطاء للمستقبل، وتدبير شئون العائلات وتحديد من سيبقى ومن سيرحل.

لكن السلطات السودانية أصرت على رحيل جميع رجال الجماعة بل والصبية ممن تخطوا الرابعة عشرة، وأن يتم ذلك خلال أسبوع على الأكثر. الشيء الوحيد الذي وافقت عليه السلطات هو بقاء النساء والأطفال الذين يتعهد الشيخ بتحمل مسئوليتهم. قبل الشيخ تحمل مسئولية الكثير من العائلات ومنهم أم ياسر وأطفالها وعمر. وبدأ الرجال في الرحيل بسرعة. ذهبت مجموعات منهم إلى اليمن، وأخرى إلى الصومال، وتفرق عدد محدود في البلقان. واستقر الرأي بفخر الدين والبحيري وحسين على الذهاب لأفغانستان حيث وعدهم سلمان أحمد بترتيب الأمر لهم هناك. لكن ذلك كان سيستغرق وقتًا والسلطات السودانية تلح على مغادرتهم هم بالذات على الفور. فترك فخر الدين عمر في رعاية أم ياسر ورحل مع رفيقيه إلى دارفور، حيث رتب لهم حارسه عبد الله السفر من دارفور إلى الجنوب عبر كردفان مع رجال من أبناء قبيلته، ومنها عبروا إلى

أراضي جيش تحرير الجنوب ثم إلى كينيا ليختبئوا لدى معارف لهم هناك لحين يرتب لهم سلمان أحمد الانتقال إلى أفغانستان.

ظل فخر الدين واجمًا طوال الرحلة. قضوا أسابيع في مخبئهم بكينيا ينتظرون إشارة من سلمان، وبدأ الملل ينتابهم، هم الذين اعتادوا الحركة. ثم جاءت الإشارة أخيرًا، لكن كان عليهم أن يسافروا إلى تنزانيا وهناك يلتقون بشخص سيعطيهم الأوراق التي تسهل لهم السفر ويشرح لهم بقية الترتيبات الخاصة بالرحلة. تناقشوا وقرروا الذهاب إلى هناك عبر بحيرة فيكتوريا تفاديًا للعبور من المطارات، ووجدوا بالفعل عبّارة تحمل المسافرين والعربات والبضائع كل يومين من كينيا إلى تنزانيا عبر بحيرة فيكتوريا، فاشتروا تذاكر وركبوا.

سرّت الرحلة قليلًا عن فخر الدين الذي يرتاح لكل ما يقربه من مياه النيل. قضوا اليوم على سطح الباخرة يرقبون صنوف المسافرين الذين تجاوز عددهم الألف. تمازحوا حول قدرة هذه العبّارة المتهالكة على حمل كل هؤلاء الناس إضافة للدواب والسيارات، ثم ذهبوا للنوم في مقصورتهم الصغيرة.

وفي السابعة صباحًا، وبينما كانت الباخرة تقترب من الشاطئ التنزاني مالت فجأة على جانبها. سقط حسين وفخر الدين من على سريريهما فوق البحيري النائم على الناحية الأخرى. واصلت السفينة جنوحها بسرعة بينما كان ثلاثتهم لا يزالون يفيقون من النوم والصدمة. في دقائق أصبح باب المقصورة سقفًا لها. كان البحيري أسرعهم؛ قفز لأعلى وفتح الباب، فانهمرت المياه داخل المقصورة.

صعد بجسمه من فتحة الباب وانحنى مادًا يده نحو حسين الذي التقطها. سحبه البحيري نحوه، لكن المياه انهمرت بعنف وبدأت تملأ المقصورة. حاول فخر الدين فتح النافذة أو كسرها لكنه لم يستطع. مستوى الماء يعلو في المقصورة وفخر الدين يحاول الطفو برأسه فوق الماء. حشر حسين نفسه في فتحة الباب المعلق بالهواء وخرج من المقصورة. دفعه البحيري في الممر وأشار له باتجاه الخروج. سبح حسين حتى وصل ناحية باب العبّارة وألقى بنفسه نحو البحيرة في حين استمر البحيري في محاولة إنقاذ فخر الدين. علت المياه في الممر نفسه بعد أن ملأت المقصورات بالكامل. أمسك البحيري بشعر فخر الدين وجذبه لأعلى ليخرجه من المقصورة الممتلئة. سحبه من المقصورة إلى الممر وبدءا يسبحان سويًا في الممر الذي أخذ يمتلئ بالماء بسرعة. وصلا للفتحة المؤدية لطريق الخروج لكنها كانت ضيقة ولا تسمح إلا بمرور شخص واحد. قفز البحيري إلى الفتحة وجلس عليها مادًا يده نحو فخر الدين، لكن الهواء كان قد نفذ من صدر فخر الدين وبدأ يسقط على أرضية الممر وتسحبه المياه بعيدًا. نادى عليه البحيري فلم يرد. نادى عليه ثانية لكن المياه واصلت سحب فخر الدين في الاتجاه العكسي وهو فاقد الوعي لا يتحرك. نظر البحيري إلى البحيرة في الخارج وإلى فخر الدين الذي يرحل بعيدًا داخل مياه الممر. كانت السفينة تغرق بسرعة. أخذ نفسًا عميقًا وقفز ثانية داخل الممر وسبح حتى أمسك بفخر الدين المستسلم للغرق وسحبه معه حتى وصلا من جديد إلى الفتحة بينما واصلت السفينة الغرق بسرعة متزايدة. حمل البحيري فخر الدين على كتفيه ورفعه نحو الفتحة حتى أصبحت رأسه خارج السفينة وأخذ يدفع به

إلى أعلى حتى ألقى بنصف جسمه خارج الفتحة في الهواء. أفاق فخر الدين والأكسجين يعود لرئتيه ليجد نفسه ينزلق من على سطح السفينة نحو مياه البحيرة. أمسك بباب الفتحة فتوقف عن الانزلاق. انتظر البحيري وهو معلق بالباب في الهواء على سطح السفينة المائل نحو سطح الماء، لكن البحيري لم يظهر. أخذ نفسًا عميقًا ودس رأسه داخل الفتحة وهو ملتصق بسطح السفينة من الخارج بحثًا عن البحيري لكن كمية ضخمة من الماء اندفعت من الممر عبر الفتحة نحو وجهه وألقت به في الهواء نحو سطح البحيرة. في نفس اللحظة غرقت السفينة بالكامل وداخلها البحيري وبقية الركاب.

* * *

الفصل الخامس

وادي بانجشير

أطبقت الوحدة على فخر الدين وهصرت روحه. أفرغت المسافة بينه وبين الأشياء والناس. تجمد وجهه، وبدلًا من أن يكون نافذة لمشاعره أصبح قفصًا من عضلات يابسة. لم يعد لديه ما يقوله. ماذا يقول؟ أيواسي صديقه؟ وفيم الفائدة؟ لا، لا شيء خير من الصمت. وطيلة الشهر الذي استغرقته الرحلة لم ينبس ببنت شفة. يسافر في عربات القطارات المكتظة بالبشر، في الحافلات المتهاوية، في سيارات الأجرة المبهمة الهوية، على الطرقات الإفريقية المعبدة حينًا والمكسوة طينًا أحمر أحيانًا، في الموانئ التي تسيطر عليها الميليشيات، وعند نقاط التفتيش التي يتحكم فيها جنود بؤساء وموظفون مرتشون، في الطرق الجبلية الخضراء في باكستان، داخل سيارات النقل والحافلات المكسوة ألوانًا صاخبة، وفي الدروب الجبلية المقفرة الوعرة، يسافر في كل هذا دون أن ينطق.

حدث كل شيء بسرعة فائقة. كأنه سقط من أعلى جبل وفي تدحرجه نحو السفح أتى بحركات لا إرادية ليستعيد توازنه وينقذ

نفسه من الارتطام بصخر السفح دون تفكير. والآن يصل للسفح، ويتوقف عن التدحرج للحظة، ويحاول مراجعة ما حدث له فلا يصدق ما جرى: كل هؤلاء القتلى؟ لم يبق له أحد. حتى هو نفسه كاد أن يذهب غرقًا. يعرف أنه لولا البحيري لكان الآن جثة تطفو في بحيرة فكتوريا أو لحمًا محشورًا في مقصورة ضيقة تأكله الأسماك التي تستطيع النفاذ إليها. أهكذا يموت الرجال؟ في دقائق معدودة، كان البحيري، ثم لم يعد. كانوا ثلاثة، ثم صاروا اثنين! وكادوا أن يذهبوا جميعًا، سدى. يجلس في عربات السفر ويفكر في أحبائه الذين رحلوا في شهور معدودات، وفي البحيري الذي رحل في دقائق. يجلس في العربات ويرى من حوله جثثًا تطفو. يسند وجهه لزجاج نافذة السيارة المتسخ ويشعر بطعم ماء البحيرة في فمه لا يزال. يرى وجه البحيري وهو يدفعه لأعلى في تلك الفتحة اللعينة، وصفوف من الموتى واقفون ينظرون إليه عبر الزجاج. يراهم كأنهم جالسون في العربة بجانبه ويرى انعكاس وجوههم في زجاج النافذة. يلتفت من وقت لآخر، رغمًا عنه، إلى مقاعد العربة كأنه سيراهم فيها، ثم يعود وينظر للطريق. لكنه لا يزال يرى وجوههم في الزجاج، ويتساءل إن كان عقله قد ذهب. يتساءل إن كان كل هذا قد حدث فعلًا.

يسأل نفسه مرارًا وتكرارًا عن كيفية حدوث كل هذا. فجأة بدأ من حوله في السقوط. قتلوا كل من يعرفه، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر. قتلوا يحيى إبراهيم في سجن أمن الدولة وهو في الجامعة، وقتلوا الكثير من رفاقه في حرب الخليج – هكذا دون تمييز. أرسلوا إلى ميدان معركة لم يختاروها فمات من مات وعاد من عاد. ثم حاولوا قتله هو عدة مرات وقتلوا عيسى. ثم قتلوا علي. وعمر فارس. وأفلت منهم حسين بثمن باهظ. هؤلاء هم ضحايا القتل المباشر،

لكنهم أيضًا قتلوا شيرين، وناصر، والبحيري، وغيرهم كثيرين. سدوا عليهم النوافذ والأبواب والسبل فذبلوا، وظلت أعوادهم تجف حتى سقطت من تلقاء نفسها.

اقتنع فخر الدين أخيرًا بما كان رفاقه وزملاؤه يرددونه منذ أيام الجامعة «الظالمون لا يفهمون غير القوة»؛ هذه هي اللغة الوحيدة التي تلتقطها أجهزة استقبالهم. الباقي سدى. لا القانون ولا العقل ولا حتى الرحمة. القوة. خمسة حروف: ألف لام قاف واو تاء مربوطة. لا شيء آخر. واجتاحه شعور طاغ بأنه أضاع سنوات طوالًا في عبث، مع العقيد سمير، وإدارة الجامعة، وهيئة المحكمة العسكرية، ومجلس النقابة، وحتى المهندس حسن أبو شيرين. لم يفهم أحد منهم شيئًا من كلامه، وكأنه يحدثهم باللغة الصينية. وكلما جرب طريقًا آخر كي يشرح لهم تمادوا في غيّهم. يسأل نفسه في مرارة لم يكن يعرفها، ماذا فعل كي يأتوا بكل هذه القوة ويقتلوه؟ ما جريمته وجريمة رفاقه؟ ومن هؤلاء الذين يطيحون قتلًا وقهرًا في خلق الله؟ من أعطاهم الحق في ذلك سوى شعورهم بالقوة – القوة المحضة. دبابات، سيارات مصفحة، أسلحة، زنازين وزبانية؟

يجلس في العربات المسافرة ويسأل نفسه ما العمل أمام هذه القوة الغاشمة. أيكون رجلًا ويقف كي يرد هذا الجبروت أم يستسلم بينما يستمرون في مسلسل القتل؟ قال دميان إن العنف يرتد على صاحبه ويحوله إلى وحش، ورد عليه فخر الدين يومها أن الاستسلام يجعل صاحبه مخنثًا. يجلس في العربات ويتذكر هذه المناقشات، وعشرات غيرها. والآن، بعد كل المحاججات واللغط، إن لم يكن من الخيار بد، أيكون وحشًا أم مخنثًا؟

هذه المرة كانت الإجابة حاضرة في قلبه وفي كل جوانحه وتكاد تتفجر من صدره. قاوم السير خلف منطق القوة طويلًا، لكن كل طريق آخر فشل. قال إنه سيعلق موته في رقابهم ويذهب صوتًا مدويًا يوقظ الغافلين. لكن طابور الضحايا يكبر ولا فداء. كان حسين على حق منذ البداية؛ لن يتبعك الناس إن لم تكن قادرًا على حماية نفسك وحمايتهم. فالصامتون ليسوا غافلين عن حقوقهم، لكنهم يدركون عجزهم عن المقاومة وعن دفع ثمنها. هم لا يحتاجون من يذكرهم بحقوقهم، بل لمن يعطيهم القوة على استردادها.

والقوة ها هي، في متناول يده. القوة هي أن تطوع الأشياء لإرادتك. وهو يشعر الآن بها، هو وبقية الشباب في هذه الجموع لديهم من الإرادة أضعاف ما لدى رجال نظام يرزح تحت وطأة جبروته. عناصر القوة متاحة للجميع، ولكن أي الإرادات ستنتصر. يعرف أن تفجير القنصلية لم يكن عملًا نبيلًا، لكنه رسالة قوة. رسالة أنهم قادرون على الرد وعلى الوصول لعقر دار الباطشين. يعلم أن الضحايا أبرياء، وينتفض قلبه من التفكير في ذلك. لكنه لم يعد يرى خيارًا آخر. حين تكون الجرافة آتية لتهدم بيتك على من فيه، أتنتحي جانبًا لتفكر في مدى نبل حلفائك أم تمد يدك لأقرب سلاح وتقبل المعونة من جارك حتى وإن لم توافقه على أفعاله؟

لم يعد فخر الدين يحتمل المزيد من المناقشات، فلم يعد أمامه سوى هذا الطريق. قاوم السير فيه طويلًا، لكنهم كانوا كأنما يدفعونه إليه دفعًا. مات الحالم المثالي، مات فخر الدين أخيرًا، ويولد الآن، في هذه اللحظات، من بين أنياب الموت الذي يطارده ومن وسط

الجثث الطافية، يولد أبو عمر المصري، القوي لا الباكي، الفاعل لا الشاكي، المنتصر والعائد ولو بعد حين.

هكذا قال لنفسه وهو سائر في الطريق القفر إلى بيشاور. وهكذا قال لنفسه وهو جالس مع حسين في مطعم المشويات فوق أحد أسطح بيشاور يستمعان إلى الوسيط الباكستاني يتباهى بأن الأرض من هنا وإلى ما لا تراه العين تحت سيطرة المجاهدين. هكذا قال لنفسه وهما يركبان سيارة باهتة الملامح ويختفون في شوارع بيشاور ويتوغلون في دروب بين الجبال. هكذا قال لنفسه وهم يمتطون الحمير ويسلكون دروبًا ضيقة ووعرة تتسلق جبلًا غير مُطمئِن. هكذا قال لنفسه وهما يدخلان «بيت المهاجرين» ويمضيان الليل في خيامه مع مقاتلين مجهولي الهوية والمقصد. هكذا قال لنفسه وهما يبدلان ملابسهما ويرتديان «الشاورقميص» ويستأنفان رحلتهما نحو الحدود. هكذا قال لنفسه وهما يعبران ممر «خيبر» إلى أفغانستان مع دليل لا يعرفان هويته يرشو الجنود دون تورية. هكذا قال لنفسه خلال الأيام الثلاثة التي قضياها بعد ذلك في جبال وعرة ثم جبال خضراء مدهشة بزروعها وأشجارها. وهكذا قال لنفسه حين وصلا «مضافة أبي حفص». وهناك، لم يعد بحاجة لأن يقول لنفسه شيئًا.

* * *

وصلا قرابة الليل، وسلمهما الدليل لشخص بشوش الوجه لكنه لا يتكلم، ليس اختيارًا لكنه الخرس. قادهما عبر ساحة تحيطها التلال من كل جانب إلى عنبر صغير به ثماني مراتب ممدودة على الأرض وحصر. هنا سيبيتون الليل. على بعد دقائق من العنبر يوجد

مبنى آخر به دورات المياه ومكان للاستحمام وبجواره مطبخ صغير. الأرض صخرية بنية اللون يكسوها حصى صغير متناثر. أشار لهما البشوش بأن يأكلا وأراهما مكانًا به خبز وبعض العسل والجبن. في آخر الساحة يوجد مسجد صغير، ثم بعض العنابر الأخرى. أشار لهما ألا يذهبا لتلك المباني وشدد على ذلك مجهمًا وجهه. التلال المحيطة تبدو قفرًا وخاوية، لكنه يعلم أن وراءها بقية المضافة ومراكز التدريب. أشار لهما البشوش بأنه سيأتي في الصباح، أو هكذا استنتجا من حركات يده. وذهب الرفيقان إلى النوم مباشرة.

استيقظا عند الفجر على أصوات الحركة في المضافة، وعندما هما بالخروج أوقفهما البشوش بحركة من يده. ظلا في العنبر وصوت صلاة الفجر يأتيهما. كان صوت الإمام خافتًا وخاشعًا. رق قلب فخر الدين وهو يستمع لتلاوة قرآن الفجر في وسط هذه الجبال الموحشة. وبقدر ما شعر بالغربة بقدر ما شعر بالامتنان لهؤلاء الرجال الذين تركوا حياتهم وديارهم سعيًا خلف الصواب الذي يمليه عليهم ضميرهم، وبقدر ما كان قلبه يلوم وطنه الذي هان عليه شبابه حتى لفظهم إلى أقاصي الأرض. بعد الصلاة اقترب منهما البشوش وحياهما ثم قادهما عبر طريق ملتو يصعد بين تلّين حتى وصلا خيمة كبيرة نسبيًا. لم يسألا البشوش أي سؤال انتظارًا لما سيجيء. الخيمة كبيرة خاوية إلا من حصر على الأرض. أشار لهما فجلسا. بعد حوالي نصف ساعة دخل رجلان يتقدمهما من يبدو أنه قائدهما. ألقى السلام وجلس قبالتهما.

- حمدًا لله على سلامتكما. كيف كانت رحلتكما؟

رد حسين:

- الحمد لله على كل شيء، فقدنا زميلنا الثالث في البحيرة.

- نعم أعلمني الإخوة، رحمة الله عليه، كان البحيري قائدًا وعالمًا، وفقدانه خسارة كبيرة، ولكن إن شاء الله يعوضنا بكما خيرًا. لقد أرسل لي سلمان أحمد بخصوصكما كلامًا عظيمًا وحدثني عن عملكما بالسودان. ولولا حديثه وثناؤه وضمان الشيخ لكما ما قبلت استقبالكما هنا. أنت فخر الدين أليس كذلك؟

- نعم.

- وأنت حسين؟

- نعم، أنا حسين.

- إليكما ما سيحدث إن أردتما المكوث معنا، وإن لم تحبا يمكن أن نساعدكما على الرحيل لمكان آخر أو العودة إن شئتما.

رد حسين بسرعة:

- إن شاء الله نحن باقون.

- بإذن الله. نحن هنا كلنا من مصر. هناك بعض العرب الذين يأتون للتدريب لكنهم يرحلون لمضافات أخرى بعد ذلك. الإخوة هنا مُجَمَّعون حسب بلادهم، وإن كانت هناك استثناءات، فنحن نرحب بالجميع. هناك اثنان من الليبيين وثلاثة فلسطينيين وجزائري وتونسي وسعوديان اختاروا البقاء معنا بعد التدريب، لكن القاعدة أن يذهب كل مع أبناء بلده. لأن هناك أمورًا تتعلق بالجهاد في بلادهم يجب أن يتداولوا فيها فيما بينهم دون تدخل. إذا بقيتم معنا ستتلقون تدريبًا تصاعديًا، ومدة التدريب تعتمد عليكم وعلى سرعة تعلمكم،

لكنها لن تقل عن عدة شهور. بعد التدريب يمكنكم أن ترحلوا لمكان آخر إن شئتم، فنحن نقوم بعملنا لوجه الله والجهاد. وإذا اخترتم أن تظلوا معنا يمكن أن تختاروا الانخراط في العمليات معنا أو أن تصبحوا مدربين، لكن إن اخترتم الانخراط ستقسمون ولاء الطاعة لأمير الجهاد وساعتها عليكما الالتزام بالسمع والطاعة له، ولكما منه حق الشورى. إذا اخترتما البقاء كمدربين فلا قسم منكما إلا لقائد المضافة، وهذا ما ستفعلانه غدًا إن قررتما البقاء.

قال حسين:

- سنبقى إن شاء الله.

- لا تتعجل يا أخي. إن بقيتما ستقسمون الولاء لأمير المضافة، هذا هو محدثكم. ونبدأ التدريب. سيكون التدريب صعبًا وطويلًا، وإذا لم تتمكنا من المواصلة سأعطيكما فرصة أو اثنتين للمحاولة مرة أخرى، لكن الثالثة ستكون الأخيرة، وعندها إما ترحلان أو تبقيان للعمل في صيانة وإدارة المضافة دون تدريب أو قتال. يمكنكما التركيز على الأمور الشرعية حينئذ إن كان تحصيلكما العلمي يسمح، لكن هذا ليس اختصاصي. سيكون لكما من اليوم أسماء أخرى، هي أسماؤكما في الجهاد بإذن الله، ولا تطلعوا أحدًا على أسمائكم الأصلية أو تاريخ حياتكم، فالحرص خير. كلنا هنا إخوة ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى وبأس الجهاد والإخلاص. كلنا سواسية، ومثلما قلت عليكما السمع والطاعة لأميركما وعليه المشورة. أما إذا قررتما الرحيل في أي وقت، فينبغي عليكما الاتفاق معنا على ذلك وهذه أمور تستغرق وقتًا واحتياطات أمنية، فنحن لا نستطيع أن نفتح المضافة لأناس يأتون ثم يرحلون ويتحدثون عنا وعما نفعله.

هذا ليس تخوينًا ولكنه احتياط، ومن ثم عليكما من الآن أن تقررا ما إذا كنتما على استعداد للالتزام. إن بقيتما فأنتما معنا في هذا الأمر، ولا تخرجان إلا بالمشورة والاتفاق والترتيب. سأعطيكما حتى صلاة الفجر غدًا. تفكرا في الأمر سويًا وسألقاكما في الغد. لكن لا تتجولا في المضافة، عليكما بالعنبر الذي تقيمون به، وبدورات المياه والمطبخ والمسجد والساحة بينهم، ولا تذهبا لمكان آخر.

لم يكن هناك حاجة للانتظار وللمهلة التي منحهما إياها. لم يكن فخر الدين أصوليًا في يوم من الأيام، بل إن في قلبه من الأسئلة أكثر مما فيه من الإيمان. يذكر قصة قرأها وهو شاب عن قس فقد إيمانه بالله، لكنه ظل يقوم بمهامه، يسمع الاعترافات ويمنح البركات ويعمّد الأطفال لأنه سأل نفسه من يكون هو كي يخذل الرعية التي تعتمد عليه لتسيير حياتها؟ وماذا لديه ليمنحهم إياه إن هو أحجم عن أداء واجبه الكنسي؟ هذا الإيمان الأصولي الذي يرفضه أصبح مصدر الحماية الوحيد الباقي الذي يحمي هؤلاء الشباب من التخاذل والاستسلام، فمن يكون هو كي يثنيهم عن ذلك أو يزرع الشك في قلوبهم؟ وماذا لديه كي يعطيهم بدلًا منه؟ لا شيء سوى أسئلة. ولا يستطيع أن يسلبهم مصدر الأمان والحماية مقابل أسئلة. كلما فكر في الأمر أكثر اقتنع أن حسين كان محقًا منذ البداية، لا شيء سوى الإيمان المطلق يقدر على حشد هذه الآلاف من الشباب خلف رسالة للتغيير. أما المتشككون، المنطقيون، المثقفون حتى الثمالة، فعليهم أن يحمدوا الله على نعمة الإيمان التي منحها لهؤلاء المقاتلين وأن يعملوا معهم وأن يشكروهم على إيوائهم وقبولهم في وسطهم. ليس هناك حاجة للانتظار والمهلة.

عند العصر أتى البشوش وأخذهما إلى المطبخ حيث تناولا الطعام وحدهما، ثم عادا للعنبر. وتكرر نفس الشيء في المساء، ثم خلدا للنوم لكنهما لم يناما جيدًا ترقبًا للغد. وبعد انتهاء صلاة الفجر، ظهر البشوش على بابهما وقادهما مرة أخرى إلى الخيمة. دخلا وانتظرا حتى ظهر أمير المضافة يتبعه الرجلان الصامتان. ألقى السلام وجلس قبالتهما وسألهما عن قرارهما. أجاب كلاهما في نفس واحد أنهما باقيان. تهلل وجه الرجل وابتسم لأول مرة. مد يده لهما بالسلام وجذب كل منهما وعانقه مرحبًا. قال لهما أن يذهبا مع البشوش للوضوء ثم يعودا. تبعا البشوش الذي أخذهما لمكان آخر للاستحمام وأعطاهما ملابس جديدة ووقف ينتظر في الخارج. كانا قد أطلقا لحيتيهما منذ كانا بتنزانيا، ولوحّت الشمس بشرتيهما فزادتهما سمارًا، وصارا يشبهان رجلين من أهل البلاد. وضعا ملابسهما الجديدة واعتمرا عمّة الرأس المميزة للمقاتلين العرب. حين خرجا كان البشوش قد اختفى بملابسهما القديمة. تقدم إليهما أحد الرجلين اللذين يسيران خلف أمير المضافة وقال لهما أن يتبعاه. سارا في طريق غير الذي أتيا منه ودخلا خيمة أخرى وجدا بها الأمير وعشرة شباب آخرين. ألقوا السلام وقام الشباب وحيّوهما. قرأ الأمير بعض آيات القرآن ثم سأل فخر الدين إن كان قد عقد العزم على الانضمام لصفوف المجاهدين بالمضافة فأجاب بالإيجاب. وضع المصحف في يده وقرأ عليه قسم الولاء.

– أقسم بالله العظيم، أنا أبو عمر النسر، على السمع والطاعة لأمير المضافة، أبي حفص المصري، له مني السمع والطاعة ولي عليه المشورة، وذلك فيما لا يخالف شرع الله عز وجل.

ردد فخر الدين القسم.

- أقسم بالله العظيم، أنا حمزة السبع، على السمع والطاعة لأمير المضافة، أبي حفص المصري، له مني السمع والطاعة ولي عليه المشورة، وذلك فيما لا يخالف شرع الله عز وجل.

ردد حسين القسم.

شدّ الشباب على أيديهما وعانقهما البعض وهنأوهما، ثم تركوهما مع أبي حفص وخرجا. قال أبوحفص إن الشيخ هو الذي اختار أسماءهما الجديدة، وهذه هي الأسماء التي كانا يستخدمانها في الاتصالات التي تمت بين سلمان أحمد وبينه خلال ترتيب سفرهم. قال إن الشيخ أسمى فخر الدين بكنيته وبالنسر لما أظهره في مزرعة شمال الخرطوم من دقة في القنص والتصويب عن بعد، ولميله للصمت والعزلة، وإنه أسمى حسين بحمزة السبع لما لمسه فيه من بأس وشدة وقدرة على منازلة الخصم وجهًا لوجه والقضاء عليه. راجع معهما التعليمات والإجراءات الخاصة بالمضافة، وطلب منهما قضاء اليوم في الصلاة وقراءة القرآن وتناول بعض الطعام، وعين لهما البشوش ليرافقهما في بعض أنحاء المضافة، انتظارًا لبدء التدريبات.

أيقظهما البشوش قبل صلاة الفجر، حيث انضما لجموع أخرى وتناول الجميع إفطارًا خفيفًا من خبز وعسل وتمر وبعض الجبن، ثم صلوا في المسجد خلف أبي حفص، وبعد الصلاة قادهما البشوش لمكان أبعد من الساحة وقال لهما أن ينتظرا. ثم بدأ التدريب.

* * *

في البدء كان المشي. طلب مدربهم - أبو عزام الليبي - من الجميع خلع الأحذية والمشي حفاة الأقدام. الحصى الصغير ينهش الأقدام ويفتح فيها جروحًا صغيرة ما تلبث أن تتعمق وتكبر. يسيل الدم طيلة الطريق والشباب يسرعون خلف أبي عزام. ساروا في درب متعرج صاعدًا التل، ثم تحول الدرب لالتواءات حادة على جانب الجبل. لا طريق، بل تسلق لصخور بعدها صخور، وبدا الأمر بلا نهاية، لكن لا أحد يقول كلمة واحدة. كانت لياقة فخر الدين وحسين - أبو عمر وحمزة - عالية، وأثبتت تدريبات مزرعة شمال الخرطوم جدواها، لكن أقدامهما كانت تنزف. ساعات من التسلق بلا توقف سوى لشربة ماء قصيرة ثم يواصلان. مع الوقت فقدا الشعور بأقدامهما. في المساء، جاءهما البشوش ببعض المطهرات ونظف جراح قدميهما بمهارة. أعطاهما شرابًا من الأعشاب المحلية وبعض الخبز الجاف والعسل وبصلتين. في اليوم التالي تكرر الأمر، وهكذا، وبعد أسابيع، كانت أقدامهم قد تصادقت على حصى وصخور الجبل، وصار المشي نزهة.

ثم جاء الركض. فجأة، شرع أبو عزام في الركض، وقال لهما ألا يفقداه لأنهما لن يستطيعا العودة بمفردهما، وقد كان. ركضا حتى شعرا أن روحيهما ستخرج من حلوقهما. توقف حسين أولًا، وبعده مباشرة فخر الدين. فقدا أبا عزام، وبعد أن استراحا لدقائق التقطا فيها أنفاسهما عاودا الركض محاولين اللحاق به لكنه كان قد اختفى. عادا من حيث أتيا لكن التلال الصخرية تشابهت عليهما وقضيا اليوم في الجبل دون أن يجدا الطريق. مع حلول المساء ضربهما الجوع والإنهاك وأصوات الذئاب، لكنهما صمدا. وجدا كهفًا تحصنا به.

وعند الشروق، أطل عليهما البشوش ومعه بعض الماء والطعام. دقائق ووصل أبو عزام الراكض. لم ينظر إليهما ولم يقل شيئًا، وكأنهما ما زالا بالأمس. واصلا الركض خلفه، ولم يفقداه هذه المرة. في الأيام التالية ركضوا طيلة الطريق حتى قمة الجبل. وبعد عدة أسابيع صاروا يصعدون الجبل حتى قمته حفاة شبه عراة، وهم لا يكادون يشعرون بأجسادهم الخشنة القوية. كأن أجسادهم مطية يسيرونها وفقًا لإرادتهم، ولم تعد هذه الأجساد تعصي لهم أمرًا.

لم يتحدث فخر الدين وحسين كثيرًا منذ ألقت بهما مياه البحيرة الغادرة على الشاطئ. شيء ما بينهما غرق مع البحيري. شعر فخر الدين أن حسين يلومه سرًا لأنه تسبب في غرق صديقهم وفقدانه، وكان البحيري شديد القرب منه. لم يقل حسين شيئًا، وسأله فخر الدين فنفى، لكن قلبه كان يحدثه بأن هذا هو شعور صديقه. وجال بخاطره أن حسين لم يكن ليعرِّض نفسه للخطر من أجل إنقاذه مثلما فعل البحيري. لقد كان أول القافزين في البحيرة على أية حال. لكنهما كانا صامتين لأسباب أخرى. فخر الدين الذي عافت نفسه الكلام غارق في تأمله معظم الوقت، وحسين غارق في غضبه وفي التخطيط للانتقام. ذات يوم، قال له فخر الدين:

- تعرف إني باشوفهم؟

- مين دول؟

- البحيري، علي، ناصر، عيسى، حتى عمر فارس.

- الله يرحمهم جميعًا. هم دايمًا على بالي. هم وأهلي.

- باشوفهم كأنهم قدامي.

ربت حسين على كتفه ولم يرد. شعر فخر الدين أن حسين لم يفهمه تمامًا، فكف. لم يكونا يتحدثان كثيرًا، لكنهما مرة تحدثا على مقربة من أبي حفص وسمعهما الأخير وغضب؛ ذكّرهما بضرورة اقتصار التخاطب في المضافة على اللغة العربية الفصحى، حتى لو كان كل الحضور من المصريين، كما نهاهما عن استخدام أسمائهما الأصلية:

- هذه ليست لعبة.. هذه إجراءات أمن!

ومن يومها صارا يتحدثان بعضهما مع بعض - حين يتحدثان - مستخدمين أسماءهما الجديدة وبالعربية الفصحى. وقد أسهم ذلك في إحلال مزيد من الصمت بينهما، كأنهما أصبحا شخصين جديدين. كأنهما يتقابلان لأول مرة هنا في الجبال الأفغانية، أسماء جديدة، ملابس جديدة، لغة جديدة، علاقات جديدة، عادات جديدة، حياة جديدة.

ثم بدأت تدريبات السلاح. تسلم أبو عمر مسدسًا صغيرًا وبندقية قناص، وتسلم حمزة مسدسًا مشابهًا وبندقية آلية صار يعلقها على صدره طول الوقت. وبالإضافة لتدريبات المشي والركض والوثب والتسلق التي استمرت، بدأ تدريبات إطلاق النار، من مواقع ثابتة أولًا ثم أثناء الركض والتسلق. عند هذه المرحلة انفصل الرفيقان، تسلم مدرب خاص أبا عمر وركز على تقوية مهارات القنص لديه. علمه الاستفادة من اتجاه الريح ومن صدى الصوت في الجبال بحيث لا يعرف خصمه من أين تأتيه الطلقات. وتولى مدرب آخر تعليم حمزة استخدام أسلحة أخرى أكثر تطورًا، خاصة الصواريخ المحمولة كتفًا والمضادة للمدرعات وللطائرات.

كان المقاتلون العرب مسلحين تسليحًا جيدًا ووفيرًا. يشترون هذه الأسلحة من دول مجاورة، بأموال الشيخ وغيره من أهل الخير، ولكن معظم أسلحتهم غنموها من الجيش السوفييتي الذي اندحر، حيث كان معظم المقاتلين الذين شاركوا في تلك الحرب يحملون سلاحًا أو آخر غنموه من معارك مع الروس، كشارة. يقع معسكرهم في منطقة قريبة من «جلال آباد»، لا يعلم موقعه بالضبط غير من زاروه، لكن لا أبو عمر ولا حمزة يستطيعان مغادرته أو العودة إليه من شدة تعقد الطريق وتشابه التلال والدروب المحيطة به. فيما مضى كانت هذه المنطقة تحت سيطرة الحزب الإسلامي الأفغاني بقيادة «رباني»، ثم انفصل جناح من الحزب في خضم الصراعات التي وقعت بين الفصائل المجاهدة عقب دحر السوفيت. وكان ذلك الفصيل قريبًا من الشيخ فسمح لجماعته بالعمل في المنطقة، وقرر الشيخ أن يركز جهده في التدريب، ونأى بالجماعة عن القتال الذي دار بين الفصائل الأفغانية بعد ذلك.

انخرط أبو عمر وحمزة في تدريبات جماعية، لكن كان لكل منهما برنامج إضافي مستقل. في المساء كانا يتلقيان دروسًا في الفقه والشريعة والحديث والقرآن، كان فخر الدين يتلهف لهذه الدروس ويجد فيها غذاء للتفكير. فقد درس الديانات كثيرًا في الماضي وكان يحلم بالتعمق في دراسة الشريعة والفقه، لكن أبواب جامعة الأزهر كانت مسدودة في وجهه. قيل له عندما سأل أن الجامعة لا تقبل إلا خريجي المؤسسات الأزهرية. من كان يتصور أن يدرس هذه الأمور هنا!

أعرب حسين عن امتعاضه من هذه الدروس، لكنه واظب عليها حتى أتم حفظ القرآن وصاروا يلقبونه بالشيخ حمزة. أما فخر الدين فركّز على علوم الفقه والشريعة، واستمر في حضور بعض الجلسات حتى بعد انتهاء الفترة الإجبارية لذلك. في أوقات الفراغ القليلة، كان الشيخ حمزة يتدرب على فك وتنظيف السلاح، في حين يخرج أبو عمر في نزهات ليلية في الجبل. لم يكن مسموحًا لهما في البداية بالتجول وحدهما، ثم شيئًا فشيئًا أصبح أبو حفص يتركهما. المضافة كبيرة، وتحوي غير عنابر النوم والطعام والمسجد والساحة خيامًا بها بعض العائلات، وبعض قاعات الدرس، ومكانًا لاجتماع مجلس شورى المضافة، ومخازن للسلاح مقامة تحت الأرض، وأماكن أخرى لا يعرفان الغرض منها، وتمتد حدودها في الجبل إلى ما لا يريان. وهناك نظام لحراسة المضافة ينفق فيه أبو حفص جل وقته. ويتوزع المقيمون حسب أقدمية تواجدهم بالمضافة وما إذا كانوا متزوجين أم لا. لم يحدث مرة واحدة أن رأى أبو عمر امرأة في المضافة، حيث لزمت النساء مربعهن الخاص بهن، وقمن على شئون أنيطت بهن من بينها تعليم الأطفال. كان أبو حفص يدير كل ذلك باقتدار ودون أن يشعر أحدًا بأنه يمارس الإمارة عليه، لكنه كان صارمًا في هدوء بما ذكر فخر الدين كثيرًا بالشيخ، وقد علم فيما بعد أنه كان تلميذ الشيخ وتدرب على يده.

تحسن مستوى الرفيقين في استخدام السلاح عن بعد، ثم جاء أوان الاشتباك المباشر. وهنا ظهرت القطط. دخل الرفيقان مع مدربيهما إلى صالة صغيرة وكانا يسمعان مواءً شديدًا. تذكر فخر الدين على الفور سلطان وذلك القط المجهول الذي ذبحه في ذروة غضبه. داخل العنبر، وجدا خمسة شباب آخرين، وسبعة أجولة معلقة على الحائط

يأتي منها مواء وحركة. حيوا بعضهم بعضًا ووضعوا أسلحتهم بجوار الباب مثلما أمرهم أبو عزام. ثم جيء لهم ببنادق قديمة ذات نصل في مقدماتها. وقفوا صفًا واحدًا على اليمين. وشرح لهم أبو عزام التعليمات. أصدر أمره لهم بالتقدم فاندفعوا جميعًا نحو الأجولة المعبأة بالقطط وأخذ كل منهم يغرز نصل سلاحه في الجوال المعلق أمامه. ضرب أبو عمر نصله في الجوال وشعر بالنصل ينغرز في شيء لين، سحب النصل الذي يقطر دمًا وغرزه من جديد لكن الجوال تحرك بعنف في هذه المرة ولم يصب شيئًا، غرز النصل مرة أخرى وشعر من جديد بهذا الشعور المرضي للنصل المنغرز في اللحم المرن. يرتفع المواء بشكل متزايد مع تواصل الضربات. كان حمزة أول من أنهى المهمة وأسكت جواله، وعندها أصدر أبو عزام أمره فتوقف الجميع. أشار لحسين فتوجه إلى الجوال ورفعه من على الحائط وأنزله. فتحه وأخرج القطط الصريعة وعدها: جثة، اثنتان، ثلاث... سبع. صفق له أبو عزام وحياه الآخرون. طلب أبو عزام من الجميع وضع أسلحتهم بجوار الباب وأعطى كل منهم مدية. ثم أمرهم فأنزلوا بقية الأجولة من على الحائط وأفرغوها، فخرجت القطط الناجية مذعورة تجري في جنون على أرض العنبر. أمرهم أبو عزام فتعقبوا القطط يمسكون بها الواحدة تلو الأخرى ويذبحونها بالمدى القصيرة.

- لا تعذب القط بكثرة الطعن أو بطء الذبح. عليك أن تمسك به من خلف رأسه بيد لا تهتز، وتجز رقبته بالسكين بسرعة وعمق بحيث تقطع العرق تمامًا. استمر في الإمساك برأس القط حتى لا يؤذيك وهو ينتفض في نزعة روحه الأخيرة حتى تصفي دمه تمامًا، ثم ضع الرأس في جيبك وابحث عن قط آخر بسرعة.

عندما يذبح آخر قط، يعد كل رجل الرؤوس التي جمعها في جيبه، ويتولى الخاسر الذي حصّل أقل عدد من الرؤوس بتنظيف العنبر من الدماء وقطع اللحم تحت إشراف البشوش.

استمرت تدريبات القطط عدة أسابيع حتى تحسن مستوى المشاركين، وصاروا لا يحتاجون أكثر من دقائق معدودات لقتل القطط وهي في الأجولة، وأصبح البشوش يأتي بأجولة إضافية من أجل تدريبات الذبح اليدوي. ذات يوم سأل فخر الدين أبا عزام عن مصدر كل هذه القطط، فقال له أبو عزام إن الجبل ملآن، كما أن بعض العائلات تربي القطط لهذا الغرض، فهي وسيلة جيدة لشغل وقت الأطفال بعد الدرس.

بعد حوالي شهرين، صار المتدربون ينهون تدريبات القطط في أقل من ساعة، ومن ثم انتقل أبو عزام إلى المرحلة التالية. أصبحوا يرتاحون في النهار؛ يقومون ببعض التمرينات الرياضية، ويكثرون من الدرس. وفي الليل يبدأون التدريب الجديد. يأخذهم أبو عزام أو أحد معاونيه إلى الجبل كل اثنين على حدة، ويقضون الليل سائرين حفاة بملابس خفيفة، وكل متدرب يحمل مدية. يستقرون في منطقة ما بالجبل ويشعلون نارًا خفيفة. ثم يذبح أبو عزام قطة أو قطتين ويتركهما على باب الكهف كي يجتذب الذئاب. وعلى حسب عددهم تتطور الأمور، إن كانوا ثلاثة ذئاب أو أقل، يقف أبو عزام على مبعدة ويترك المتدربين يواجهان الذئاب وحدهما بالمدى. الهدف ليس طرد الذئاب وإنما اجتذابها ثم الإمساك بها واحدًا بعد الآخر وذبحها بالمدى. وكلما تقدم المتدرب في المستوى، نجح في اجتذاب الذئب نحو مصيره المشئوم وجز رقبته دون طعنه في جسده طعنة واحدة. لكن لم يصل لذلك المستوى سوى أبي عزام نفسه، وحمزة السبع.

أصيب المتدربون في هذه التدريبات كثيرًا، من جروح سطحية إلى انغراس أنياب ذئب جريح في الكتف. كما اضطر أبو عزام مرة لإطلاق النار على رأس ذئب كان على وشك الفتك بمتدرب، وتم بتر ذراع ذلك المتدرب في الفجر عند عودته. إلا أن الباقين اجتازوا التدريب بسلام.

* * *

في تلك الفترة اختفت شيرين. ورغم مناجاته المستمرة لها فقد رفضت الظهور له، ولا حتى في المنام. يفتقدها بشدة، ويشتكيها لأطياف أصدقائه القدامى علي وعيسى والبحيري. يسألهم أي زوجة تلك التي تهجر زوجها كل هذا الوقت؟ لكنهم ينظرون إليه ولا يجيبون.

في تلك الفترة بدأ الطالبان في الظهور. لم يكونوا في البداية سوى مجموعة من طلبة الشريعة والفقه قاموا بعملية إنقاذ لفتاتين تم اختطافهما واغتصابهما، لكنهم أظهروا من الحسم والعدل ما جعل الناس يؤيدونهم، خاصة مع انغماس فريقي المجاهدين الرئيسيين - بقيادة رباني وحكمتيار - في الصراعات وقتال بعضهما بعضًا. وبقرب نهاية العام، بينما كان أبو عمر وحمزة يتمّان تدريبات القتال، كان الطالبان يتقدمون نحو العاصمة كابول، ثم دخلوها في سبتمبر. ذهب حمزة إلى أبي حفص وقال له إنه سأم من قتل القطط والذئاب ويريد التطوع للقتال في صفوف الطالبان، فنهاه أبو حفص عن ذلك قائلًا إنه لم يتم تدريبه، وأن علاقة المجاهدين العرب بالطالبان لم تتحدد بعد، كما أن مجلس شورى الجماعة قرر التزام الحياد في الحروب القائمة بين الفصائل الأفغانية المتناحرة، ولا يجوز لأحد

خرق هذا الالتزام. أذعن حمزة بعد أن وعده أبو حفص بأن يحدثه في أول فرصة تسنح لانتقاله للعمل القتالي.

كانت تدريبات الذئاب هي المرحلة الختامية في التدريب الجماعي لهذه المجموعة، وحياهم أبو عزام في حضور أبي حفص وأنهى عمله معهم. بعد ذلك، سيتدرب كل منهم في المجال الذي أظهر فيه تفوقًا. وكان واضحًا أن أبا عمر سيتخصص في أعمال القنص، وحمزة في القتال المباشر. وهكذا، اصطحب أبو عزام فخر الدين ذات فجر وسلمه لمدرب القناصة. قضى معه أسبوعين ثم أعاده المدرب لأبي حفص لأنه وجد أبا عمر جاهزًا للعمل. سأل أبو حفص أبا عمر عما يريد، فأجاب بأنه ما يزال في حاجة للتعلم؛ يريد أن يسيطر على نفسه ويطوعها أكثر. هز أبو حفص رأسه ووعده خيرًا.

بعد عدة أيام أخذه أبو حفص إلى «المُعلم»، وهو مسلم عجوز من طائفة الويجور الصينية ويتحدث العربية بصعوبة. سلمه له ومضى. قضيا عدة أيام في تدريبات بدنية كالتي مارسها في الخرطوم، مثل «اليوجا» و«التاي شي»، ثم طلب منه المعلم أن ينتقل للإقامة معه في مكان أكثر انعزالًا. قضى أبو عمر الشهور التالية في تعلم فنون «الجودتسو» و«الكونج فو» و«الآيكيدو» و«التايكندو» وأشكال أخرى من القتال لا يعرف لها اسمًا. يقضي الأيام في التأمل مع معلمه، أو في إعداد الطعام، أو التدرب على حركات محددة، وذلك في هدوء كامل. تعلم أن يقف لساعات طويلة دون حراك، وأن يسيطر على سرعة تنفسه، وألا يشرب الماء لفترات طويلة، وأن يقلل من سرعة هضمه للطعام، كما تعلم مواطن الطاقة في جسم الإنسان، والمواضع

التي يمكنه بالضغط عليها أن يفقد خصمه الوعي في لحظات، أو أن يقضي على حياته بضربة واحدة دون أن يصدر عنه صوت. كما تعلم الانتظار والصبر والعيش بمفرده. ذكرته تلك الفترة بالأيام التي قضاها في كنف أم إبراهيم يرعى الغنم، وكان يحب ذلك.

* * *

أكثر فخر الدين من التأمل في الخلاء حيث أصبح يقضي معظم الأيام بمفرده. يرحل إلى آخر حدود أرض المضافة في منطقة صخرية جرداء ويقضي اليوم بين التلال القفر، ثم يعود عند الغروب من ناحية الطريق المؤدي لجلال آباد. وأثناء عودته ذات يوم التقى بهند لأول مرة.

رآها مستلقية على الأرض قرب الطريق المؤدي لجلال آباد. تمسك بكاحلها والألم بادي على ملامح وجهها. استغرب فخر الدين أن يقابل امرأة في هذا المكان القفر، بل وغير محجبة. كانت مليحة الوجه، بيضاء، ذات عينين سوداوين، وخصلات من شعرها الأسود تلوح من تحت طرحتها غير المحكمة. ظن أنها إحدى الخيالات التي تأتيه، فتوقف وأمعن النظر. نظرت إليه ورفعت يدها ملوحة وهي تصرخ:

- أيوه أيوه، لو سمحت، ما تمشيش، أيوه تعال من فضلك.

اقترب منها بحذر:

- انتي مصرية؟

- لأ، فلسطينية.

- أمال بتتكلمي مصري ليه؟

- مش حضرتك مصري؟ ممكن تساعدني الأول وبعدين نبقى نعمل التحقيق ده بعدين!

- أساعدك؟ انتي مين؟ وجيتي هنا ازاي؟ وتعرفيني منين؟

- أنا هند القدسي من وكالة الأنباء التشيكوسلوفاكية.

- التشيكوسلوفاكية!

- أيوه! بص من فضلك، أنا رجلي باين عليها اتكسرت ومش قادرة أتحرك. أنا بقى لي هنا ساعة وعندي مقابلة مهمة وشكلها كده حاتفوتني. يعني إن ماكانتش فاتتني فعلًا.

- ....

- آه. لو سمحت، رجلي، مش قادرة أحركها.

- طيب وعايزاني أعملك إيه؟

- مش عارفة، أكيد ممكن تعمل حاجة تساعدني. في هنا تاكسي؟

- تاكسي! انتي عارفة انتي فين؟

- أيوه عارفة. أنا مش متخلفة. بص. أنا باشتغل مع الوكالة التشيكوسلوفاكية، وكان عندي مقابلة مع شخصية مهمة، بس السواق اللي جابني قال لي ما يقدرش يوصلني أبعد من هنا وقال لي أمشي الحتة اللي فاضلة. أنا اللي غلطانة. كان المفروض استنى سواق الوكالة بس هو مش موجود النهارده عشان اخته بتتجوز وماكنتش عايزة أفوت المقابلة.

- سواق إيه واخته مين وتشيكوسلوفاكية إيه ياست انتي؟

- انا بس عايزة حضرتك تساعدني ألاقي عربية توصلني. مش انت مع الجماعة اللي هنا؟ ممكن توصلني للشخص اللي حاقابله؟

جلس فخر الدين على الأرض على بعد منها يرقبها في صمت. واصلت الحديث لكنه لم يكن يسمع ما تقوله، فهي تكرر نفس الكلام تقريبًا. رفع مسدسه الشخصي ببطء وصوبه ناحيتها. بهتت. أخذ يفكر بسرعة: «ماذا تفعل هذه الخرقاء هنا؟ لو كان الذي رآها شخص آخر لانتهى أمرها في دقائق، ولو رآهما أحد الآن لظن به الظنون. هذه مصيبة متحركة: امرأة، وعربية، وسافرة، وصحفية، وتعمل مع وكالة أنباء مريبة أو لا وجود لها». سألها دون أن يحرك المسدس من أمام رأسها:

- انتي اشتغلتي في المنطقة هنا قبل كده؟

- لأ، أنا باشتغل أكتر في مناطق حكمتيار.

- كمان؟ ما شاء الله! انتي جايه تموتي نفسك ياست؟

- ليه بس؟ دي إصابة بسيطة.

- إصابة إيه الله لا يسيئك! انتي ماحدش قال لك إن فيه قواعد لدخول الصحفيين هنا؟

- هو أنا عملت إيه بس؟

- خلاص، خليكي هنا لما ييجي مسئول المضافة يشوف إيه حكايتك.

- لا أرجوك. أنا أصلي جايه من غير تصريح.

- من غير تصريح!

رفع هوائي تليفونه المرتبط بالقمر الصناعي وأبلغ نقطة الاتصال بالمضافة كي يرسل من يتحقق من الأمر. لم تكن قادرة على الحركة، فتركها وذهب مؤكدًا لها أن السيارة التي طلبتها في الطريق.

* * *

يعلم أن تمرينات التأمل هي آخر مراحل تدريبه، وبدأ يسأل نفسه عما سيفعله بعدها. ذات صباح قال له المعلم إنه لم يعد يحتاج إليه، وصار من يومها يتركه ينظم أيامه بين الخلاء والمضافة مثلما شاء، ولا يلتقيان إلا نادرًا ليستعيدا أداء بعض التمرينات الشاقة سويًا. وكانت تلك علامة أخرى على قرب موعد الانتقال لمرحلة تالية. وفي إحدى الليالي التي كان فيها فخر الدين في الخلاء تعرض لهجوم من مجهول كاد أن يودي بحياته.

كان راقدًا في كهف صغير بالجبل يحاول أن ينام حين سمع صوتًا كأن الحصى يتحرك. ليس هذا ذئبًا، فهو يعرف صوت الذئاب. هذا صوت أقدام. تحفز داخل الكهف وأصاخ السمع لكن الصوت اختفى. ظن للحظة أنها إحدى التهيؤات التي تأتيه، مثل وجوه أصدقائه. وبينما كان يستدير ليعود لمرقده هاجمه شخص من الخلف لم يتبينه. قاومه أبو عمر لكنه لم يحاول إيذاءه خشية أن يكون جزءًا من عملية التدريب، دفع المهاجم عنه بخفة لكن المهاجم استل خنجرًا وانقض عليه. تفاداه لكن المهاجم استدار بخفة مقاتل محترف وطعن أبا عمر في كتفه. أمسك أبو عمر بكتفه غير مصدق الدم الذي يسيل منه، في حين انقض عليه المهاجم مرة

أخرى مصوبًا خنجره نحو صدره. في تلك اللحظة وضع أبو عمر يده في طريق القاتل فعكس اتجاه ذراعه الممسكة بالخنجر وسددها نحو قلبه. غمس الخنجر في قلب المهاجم جيدًا وأداره بين ضلوعه كي يسمح للهواء بإتمام المهمة ثم استل الخنجر دافعًا جثة المهاجم لتسقط على أرض الكهف. وقف في منتصف الكهف يسترق السمع لعل هناك آخرين. لا صوت. نظر إلى الجثة الغارقة في الدماء ثم انحنى عليها يفحصها. لم يكن وجه القتيل مألوفًا ولا كان يحمل ما يفيد شيئًا عن هويته. في تلك اللحظة، ظهر في باب الكهف معلمه الصيني وأبو حفص معًا. تقدم المعلم منه وأمسك به ونظف جرحه ووضع عليه ضمادة وربطها وهو يرطن بكلمات غير مفهومة لكنها غير راضية. في حين تقدم أبو حفص وربت على كتف أبي عمر مهنئًا إياه بالسلامة والتخرج.

- ماذا؟

- نعم، هذا هو آخر اختباراتك. الآن تم برنامج التدريب.

- وهذا القتيل؟

- هذا محكوم عليه بالإعدام.

- من الذي حكم عليه بالإعدام؟ ولِم يهاجمني؟

- المجلس الشرعي هو الذي حكم عليه بالإعدام. كان يتعامل مع المخابرات الباكستانية، وقد اعترف، وهي جريمة عقوبتها الموت. وقد خيرناه بين الموت بالسيف أو أن يأتي ويقاتل أحد المتدربين الجدد فاختار القتال.

- ماذا؟ اختار القتال؟ وماذا عني أنا، هل اخترت القتال أيضًا؟ لقد جعلتني أزهق روحًا! هذا الميت إنسان! لقد قتلت بشرًا لتوي!

- هذا محكوم عليه بالإعدام.

- وهل قلت لك إني أريد أن أكون كتيبة إعدامه؟

- لكنك لم تعدمه، كنت تدافع عن نفسك.

- ما هذا المنطق المعوج؟ أنت الذي أرسلته.

- أنا لم أرسل أحدًا؛ هو الذي أراد قتلك لينجو.

- عظيم، هذا عظيم. وماذا لو كان قد قتلني؟

- ما كنت لأضعك في هذا الاختبار لو كان لدي ذرة شك.

- أبو حفص، لقد أرسلت رجلًا مسلحًا لمكان خلوتي وهو ينتوي قتلي، كيف تكون متأكدًا من أي شيء؟

- لقد كنت واقفًا هنا طول الوقت، ومعي سلاحي لإنقاذك عند اللزوم.

ذهل فخر الدين من هذا المنطق. لكن لم يكن هناك وقت للمحاججة، فما ذكره له أبو حفص بعد ذلك كان أكثر إلحاحًا ويقتضي البت الفوري. طلب منه أبو حفص وداع معلمه الصيني والرحيل معه فورًا عائدًا للمضافة، وفي الطريق أخبره بالتطورات التي حدثت خلال شهور غيابه.

- برغم دخول الطالبان كابول، استمرت الانقسامات بين الفصائل الأفغانية واستمر القتال. أعداء الأمس - حكمتيار ورباني ودوستم

الأوزبكي – تحالفوا سويًا ورفضوا الانصياع للحكومة الجديدة التي شكلها الطالبان في كابول. والقتال مستعر حتى الآن، وبرغم نجاح الطالبان في القتال إلا أنه من غير الواضح كيف سيتم حسمه، خاصة وأن التحالف يتلقى دعمًا أجنبيًا هامًا.

– وما لنا نحن وهذا؟ ألسنا على الحياد؟

– ليس بعد الآن. لقد أحسن الطالبان وفادتنا، وسمحوا لنا بالعمل في معسكراتنا ومضافاتنا في مناطقهم دون تدخل في شئوننا، لكنهم الآن تحت ضغط ويطلبون المعونة. كذلك فإن الوضع في السودان تدهور أكثر بعد رحيلكم، ويبدو أن صبر السلطات هناك بدأ ينفد، بما حث الشيخ على مفاتحة الطالبان في عودته لهنا.

– الشيخ؟ سيعود إلى هنا؟

– الشيخ هنا بالفعل، في بيت له قريب من قندهار. وقد اتفق مع الطالبان على مساعدتهم في المقابل.

– ولكن ماذا حدث للفتوى القائلة بعدم جواز القتال في صفوف الأفغان ضد أفغان آخرين؟

– صدرت فتوى جديدة بعد تحالف رباني وحكمتيار وتعاونهما مع القوى الخارجية، إذ إنهم بذلك جعلوا من أنفسهم ومقاتليهم جندًا في أيدي أنظمة غير مسلمة.

– ونحن؟

– لقد ناقش الإخوة في مجلس الشورى الموقف، وكانت الأغلبية تؤيد الاستجابة لمطلب الطالبان، لكن أمير الجهاد عارض ذلك،

وقال إن الطالبان متشددون. المهم، بعد نقاشات طويلة وضغوط في المجلس، تنحى أمير الجهاد وانتخبني الإخوة أميرًا جديدًا للجهاد.

- أنت؟ والمضافة؟

- يتولاها أبو عزام الليبي الآن بعون الله.

- وهل بدأتم بالفعل في العمل مع الطالبان؟

- ليس بعد، سنبدأ إن شاء الله عما قريب. ما زلنا نعد العدة ونحصر الإخوة الراغبين في المشاركة. فمثلما قلت لك ولحمزة عند وصولكما، نحن لا نجبر أحدًا على الجهاد. حمزة تطوع للجهاد، وهو يتحرق شوقًا للبدء.

- نعم، مؤكد أنه انضم.

- وأنت؟

- لا أدري. لم يكن هذا الأمر في حسباني.

- فكر جيدًا. لقد أتممت تدريبك على أكمل وجه، والحقيقة أنك أتممت التدريب الأساسي منذ شهور طويلة، لكن المعلم رآك واختارك ليلقنك التدريب الصيني وهو إضافي لا نشترط من المجاهدين إتمامه، وهو يقول إن لديك الحدس والموهبة اللازمة وأنك يمكن أن تصير معلمًا بدورك إن واصلت التدريب معه. لكن كان يجب أن يصل التدريب لنهاية، ومن ثم عليك أن تقرر الآن. يمكنك التطوع في صفوف الجهاد ويمكنك أن تواصل التدريب مع المعلم حتى تصير معلمًا بدورك. ولكن فكر في أمرين: الأول أن هناك

مهارات لن تكتسبها أبدًا بالتدريب وإنما عليك الانخراط في القتال لتتقنها. الثاني أننا نحتاج كل فرد قادر على الجهاد في هذا الظرف، فالضغط شديد، ولو انهزم الطالبان وانتصر التحالف لأخرجونا وسلمونا إلى سلطات دولنا على الفور. فهذا جزء من الثمن الذي سيدفعه حكمتيار ورباني ودوستم لأسيادهم الذين يمدونهم بالمال والسلاح. لقد فهمت هذه الدول الخطأ الذي ارتكبته حين ساعدت الجهاد في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، والآن يريدون تصحيح الخطأ عن طريق نفس الناس. ومن ثم فالأمر لا يتعلق فقط بالطالبان بل بنا وبمستقبل الجهاد في بلادنا. فكر في ذلك، وأمامك حتى فجر بعد غد لتخبرني بقرارك.

في المضافة التقى أبو عمر وحمزة بعد شهور طويلة لم يريا فيها بعضهما بعضًا. تعانقا وكانا سعداء باللقاء. جلسا يتحدثان، لكنهما لم يجدا الكثير ليقولاه. سألا بعضهما بعضًا عن التدريب وقال كل منهما «تمام الحمد لله». سألا البعض عن الصحة، وشرح له أبو عمر قصة جرحه في الكتف وسبب وجود الضمادة والدم الطازج عليها. قال له حمزة إن عليه أن يستريح، وسار معه حتى مكان النوم. سأله أبو عمر إن كان سيبيت في نفس المكان فقال إن عليه أن يبيت مع رفاقه الذين سيخرج معهم للجهاد. سأله حمزة عن رأيه وما إذا كان قد قرر فأجاب بالنفي. أومأ حمزة ولم يرد. قال إنه سمع أنه أبلى بلاءً حسنًا في التدريب، وقال أبو عمر إنه سمع نفس الشيء عنه. ابتسما وأومآ، ثم انصرف حمزة كي يخلد للنوم.

قضى فخر الدين الليل كله واليوم التالي في التفكير. خرج في الصباح وصعد إلى قمة الجبل حافيًا وقضى اليوم هناك يتأمل.

ينظر إلى مغارات الجبل ووديانه وإلى الظلال التي تتركها الشمس الحارقة على الأرض. ينظر داخل نفسه، وينظر لوجوه عيسى وعلي والبحيري التي لا تكاد تتركه يومًا دون أن تزوره، وينظر مرة أخرى في نفسه. قام بتمرينات التنفس والتركيز وبحث عن الهدوء داخل نفسه قدر استطاعته، وقرر. كان يعلم أن هذا هو نهاية المطاف وأنه سيأخذ الطريق حتى نهايته. إما أن تكون الشيء أو لا تكونه. لا يوجد مقاتلين بدون قتال. ولا يمكن أن تكون قويًا دون أن تمارس القوة. وهذا الجسد القوي، هذه العين الحادة، هذه النفس المستقرة، هذا التصميم، هذه القبضة الثابتة، وهذه الإرادة الفولاذية، كلها ثمار حان قطافها، حان وقت وضعها في خدمة شيء ذي معنى. بعد صلاة الفجر قابل أبا حفص وقال له نعم، واجتمع مع الإخوة وأقسم يمين الجهاد. وبعدها بأيام، خرج من المضافة ليلحق بصفوف العرب المقاتلين مع الطالبان.

* * *

قضى أبو عمر السنوات الخمس التالية في قنص الأرواح. يقول البعض إن محترفي القتل يتعاطون المخدرات كي يتموا مهامهم دون مشاعر. فخر الدين لم يكن بحاجة للتعاطي، فالحاجز الزجاجي السميك الذي يفصل بينه وبين العالم كاف. تأتيه الأصوات من بعيد، من وسط الطنين الدائم في أذنه. ويرى الناس وكأنهم شخصيات في فيلم بسينما ثلاثية الأبعاد. ساعدته طبيعة مهمته على ذلك. فهو يعمل وحده؛ يختار مكان تمركزه، ويبحث عن الهدف من على بعد، يتابعه من عدسة بندقيته حتى يتوسطها، ضغطة بسيطة على الزناد ويخرج الرجل من عدسته ولا يراه بعد ذلك أبدًا.

في البداية انزعج، ثم تعوّد. من عاصر الحرب يعتاد الموت، تكون واقفًا مع شخص أو سائرًا بجواره أو تعانقه أو تنتظر أن يمد يده لك، وفجأة يسقط. تقفان في ما كان شارعًا في أطراف قندهار، أمام مبنى تملأ آثار الرصاص جدرانه ويلعب في أنقاضه صبية ضائعون. تشربان الشاي، أو تنتظران زميلكما الذي ذهب يقضي حاجته في هذه الخربة. وفجأة يسقط جدار المبنى المتهالك فوقكما وتسمع صوت القذيفة بعد ذلك بأقل من ثانية. لم يسعفكما الوقت لتهربا. الصخرة الوحيدة المتماسكة في الجدار تسقط على رأس أحدكما فتهشمها وينفرط مخه وردي اللون حول هشيم عظام رأسه، أو رأسك. أحدكما أو كلاكما، كان هنا، ثم لم يعد. وليس من ثمة شيء يقال في ذلك. الموت حاضر معك أينما ذهبت.

تركب في سيارة نصف نقل تجوب شوارع كابول المهدمة. نساء محتميات خلف قماش ثقيل علّه يحجب صنوف الشر عنهن، صبية متناثرون، ورجال يقعون على جانبي الطريق في انتظار شيء لا تعرفه. فجأة تعرف. ينهار عليكم وابل من الرصاص من حيث لا تحتسبون، وتردون بإطلاق رصاص مثله على من لا تعرفون. وعندما تسكت الرشاشات تنظر حولك، فتجد قتيلًا أو اثنين أو أكثر، حسب الظروف. قد يكون القتيل ذلك الذي كان يجلس بجوارك منذ دقيقة ويضايقك برائحته أو بزغدة ساعده، وقد يكون أنت، وقد يكون كليكما. قدرك، أو الصدفة التي وضعتك في طريق الطلقة أو القنبلة. هي شعرة تلك التي تفصل الحياة عن الموت، ودائمًا يسافر الاثنان معك، يقدم الموت خطوة، أو الحياة، ولا تشعر بالنتيجة إلا عندما تهبط عليك. وكلما مر الوقت، وكلما سقط الناس من حولك، قل اهتمامك بهذه الشعرة.

خرجت أفغانستان عن السيطرة، وصارت مراعي للدماء. وفي هذه المراعي نشأ الطالبان وترعرعوا. والآن يحاولون فرض سيطرتهم بالطريقة التي ألفوها. سيارات نصف نقل تدور في القرى والمدن. يوقفون من يشكّون في أمره. يخرج من السيارة اثنان كي يحدثانه، قد يعودان في هدوء وقد يخرج أحدهما سلاحه ويضع طلقة أو اثنتين في رأس الشخص المعني ثم تمضي السيارة. أحيانًا، بعد أن تمضي السيارة، يخرج شخص سلاحًا ويطلق الرصاص على السيارة فيفجرها بمن فيها. وهنا يأتي دور أبي عمر؛ يجلس في مؤخرة السيارة نصف النقل ولا ينزل منها أو يحدث أحدًا فيها أو خارجها. تعليماته ألا يتدخل في شيء مما يراه إلا في حالة واحدة، أن يقوم شخص بالشروع في استهداف السيارة. ساعتها ترتفع بندقية القنص وفي أقل من لحظة يكون أبو عمر قد أردى المهاجم قتيلًا. هذه هي مهمته؛ حماية دوريات الطالبان. قالوا له من البداية ألا يقامر بحياة هؤلاء الجنود؛ «إن قتلت أحدًا بالخطأ فلتستغفر الله، لكنك إن تركت مهاجمًا يطلق عليكم النار فليرحمكم الله جميعًا، ومائة مرة استغفار خير من مرة استرحام». شعرة واحدة، هذا مات، هذا عاش، ربما، حتى يلقى من يقتله.

دخل قرى ومدنًا عديدة تداخلت جميعها في صورة من صورتين، إما سحابة مستمرة من تراب عالق وشمس حارقة وجبال جرداء، أو صقيع تجمد له الأطراف وغيوم مقبضة وجبال يغطيها الجليد. وفي الصورتين صفوف من بيوت مهدمة، يمر الضوء من الثقوب التي أحدثتها القذائف والطلقات السريعة بجدرانها، وشوارع دمرتها الأمطار والعربات المجنزرة والدبابات، وصبية يتظاهرون

باللعب، ورجال كثر بساق واحدة، ونساء لا تميز إن كنّ آتين نحوك أو متباعدات، ورفاق وجوههم تكسوها صرامة ولحى متشابهة. سلاح كثير وطلقات، وبعض الانفجارات، وجثث قتلى تواريها التراب سريعًا أو تتركها لأصحابها. وسيارات نصف نقل تبعثر الموت والحياة. وهو، أبو عمر، النسر المصري، قابع في إحداها، يعمّر سلاحه في صمت، وينظر في تمعن داخل الصورة بحثًا عن روح تنوي مهاجمتهم كي يقطفها في هدوء قبل أن تقنصهم. لا يخفض عينه عن الصورة المحيطة به إلا لينظف سلاحه أو ليومئ لأحد مرافقيه.

* * *

في وسط هذه الصور اختفى أصدقاؤه القدامى. وسأل نفسه إن كانوا قد هجروه، أم ارتاحوا وانصرفوا. من حين لآخر يتذكرهم ويفتقدهم. ليس له أصدقاء هنا. يأسى لذلك أحيانًا، ثم يتذكر أنه ليس له أصدقاء في مكان آخر.

ثم رأى هند مرة أخرى. كانت سليمة هذه المرة وتسير على قدميها. غادر جلال آباد بعد أن أبلغ بعض الإخوة في المدينة رسالة من الشيخ، وبعد نقطة التفتيش على حدود المدينة وجد هند تسير على جانب الطريق وتشير للسيارة. تعرف عليها على الفور، وتوقف. ابتسمت لما رأته وقفزت داخل السيارة دون استئذان. لم يكن ذلك مسموحًا، لكنها توسلت إليه أن يقلها حتى المدينة التالية وشرحت له قصصًا ملتبسة حول السائقين والمواعيد. لم يعترض هذه المرة، بل كان في أعماقه مسرورًا أن رآها ثانية. وما دامت قد نجت من لجنة التفتيش التي أرسلها لها في المرة الأولى فلا بد وأنه لا غبار أمني عليها، مجرد امرأة خرقاء.

قصت عليه قصصًا كثيرة وهما في الطريق. أخبرته أنها فلسطينية من القدس لجأت عائلتها لغزة عام ١٩٤٨ وولدت وتربت هناك. وأن أبويها كانا أعضاء في الجبهة الشعبية ورتبا لها الالتحاق بالجامعة العربية ببيروت على نفقة الجبهة. هناك، تدربت على «الأعمال الفنية المساندة» للمقاومة، مثل تزوير الوثائق والتنكر وإيواء الهاربين. بعد ذلك أعادوها لغزة لمعاونة التنظيم في عمليات داخل القطاع، إلا أن أمر الخلية انكشف وقبض على كل أعضائها وظلت في السجن حوالي عام، ثم أبعدتها إسرائيل هي وأسرتها من القطاع حيث استقرت بمصر وأكملت دراستها الجامعية. في الأثناء دبرت الجبهة لها وأسرتها اللجوء السياسي في براغ حيث عملت مع وكالة الأنباء التشيكوسلوفاكية وأرسلوها لمكتبهم في إسلام آباد قبل أن تنفصل تشيكيا عن سلوفاكيا بشهور. قالت له إن الوكالة استمرت في العمل رغم ذلك، وأنها تغطي الوضع في أفغانستان.

سألته أسئلة كثيرة لم يجب على أي منها، فواصلت الحكي عن نفسها. وقبل أن يصل نقطة التفتيش التالية طلبت منه أن يدعها تنزل، ووضعت يدها على ذراعه وهي تشكره مودعة. كانت تلك أول مرة تلمسه امرأة منذ سنوات. وبرغم تحجر ذراعه فإن يدها قد مست مشاعره. نسمة هواء بارد في يوم قيظ، مرت، لكنها ذكرته بشيء كان قد نسيه. ظلت ملامح وجهه جامدة، لكن سحابة داخلية عبرت أمام عينيه فأربكته لحظة، ثم استأنف المسير.

* * *

صعد نجم أبو عمر المصري وعرفه الطالبان بالنسر. أرسلوه مع ثلة من المقاتلين العرب لينضموا لحملة الطالبان على التحالف

الشمالي في وادي بانجشير حيث كانت تدور معارك حاسمة قد تحدد مصير البلاد. كان أبو حفص يقود المقاتلين العرب بنفسه، ومعه حمزة. في اليوم التالي لوصول أبي عمر أرسله أبو حفص ليستطلع المنطقة الممتدة بين معسكرهم وبين قوات التحالف الشمالي. قرب الفجر، لاحظ أبو عمر أن قوات التحالف تنزل كميات كبيرة من المعدات والجنود في سفح بين جبلين على يسار معسكرهم، ربما لتطويقهم من هذه الجهة. تسلل بخفة حتى التف خلف المهاجمين وتمركز بين الجبلين. أطلق عواء ذئب ليتأكد من اتجاه الصدى، ثم بدأ في إطلاق النار على القوة المهاجمة. أردى ستة رجال قتلى قبل أن يصل أحد من القوة المهاجمة إلى سلاحه، ثم استمر في إطلاق النار على أفراد القوة واحدًا تلو الآخر. كان الصدى يردد الصوت في الوادي كله، ولم يستطع أفراد القوة المهاجمة تحديد مصدر النيران فأخذوا يطلقون النار في كل الاتجاهات، وسرعان ما اشتبكت القوة المهاجمة مع قوات من معسكر التحالف الشمالي حيث ظن كل فريق أن الآخر هو الخصم. وفي وسط هذه الفوضى، أخذ أبو عمر يقتنص أفراد القوة واحدًا تلو الآخر، ببطء ودقة، حتى نفدت ذخيرته. ليلتها قتل ثلاثة وثلاثين نفرًا وحده، غير الذين سقطوا بأيدي زملائهم. ثم عاد متسللًا في خفة بينما واصل أعضاء القوة المغيرة الاشتباك مع قواعدها. أغارت قوات الطالبان بعد ساعة على القوة المهاجمة المشتتة وطردت من بقي منهم من المنطقة.

بعدها بأسبوع أفاق من نومه على هرج ومرج، أرسلت قوات التحالف قوة خاصة تسللت إلى معسكرهم للانتقام. دار القتال بالسلاح الأبيض داخل وبين الخيام. سحب يومها أبو حفص من تحت سكين

مهاجم كان على وشك أن يغرسها في ظهره. دفع أبو عمر أميره قبل أن يهوي عليه المهاجم فسقط المهاجم على الأرض وقفز أبو عمر فوقه وجز رقبته بضربة واحدة، وأبو حفص مذهول مما جرى للتو. كانت ليلتها مجزرة حقيقية راح فيها الكثير. بعدها بأسبوع رحل أبو عمر مع قوة مغيرة من الطالبان حاصرت «مزار شريف» ثم اقتحمتها وقتلت كل من فيها من الرجال.

* * *

قرب نهاية هذا العام ترك فخر الدين الشمال حيث ثبتت خطوط القتال وعاد إلى جلال أباد حيث كان الشيخ مقيمًا وانضم لحراسته. ثم بدأ الشيخ يرسله في عمليات مثل تلك التي كان يقوم بها في السودان، فسافر في قوافل متنوعة، من سيارات الدفع الرباعي إلى الجياد والجمال والحمير مرورًا بالدراجات البخارية. وأخذته هذه الرحلات لكل بقاع أفغانستان، من الدروب الجبلية الضيقة والوعرة التي تصعد قمم الجبال وكأنها ستصل للسماء، إلى صحاري تمتد تلالها الرملية في تموجات بلا نهاية، وأنهار تعبر أحواضها الجافة بالسيارة في شهر، ثم تبحر في مياهها في شهر آخر، إلى وديان خضراء ومروج زاهية لم يكن يدري بوجودها في هذه البلاد، بل ورحل مرة عبر باكستان حتى حدود الصين ودخلها وعاد بقافلة أخرى.

ثم سافر الشيخ وعهد بأبي عمر لأحد حلفائه من قيادات طالبان. كانت هناك عمليات تصفية تجري بين بعض القيادات المتنافسة وأنيط به حماية حليف الشيخ. لم يكن يعرف هوية هذا الشخص، لكن الجميع كان يجلُّه. ذهب معه ليحضروا جلسة مصالحة مع خصم

لا يعرف عنه شيئًا هو الآخر. نزل المقاتلون من السيارات وبقي هو وحده في السيارة مع بندقيته. تقدم المصافحون والمرحبون وتعانق الجميع، عدا أبا عمر الذي لمح من مخبئه رجلًا يستل سلاحه ويرفعه باتجاه حليف الشيخ، ومرة أخرى وجد نفسه يصوب بندقيته ضد مهاجم مجهول ويرديه قتيلًا قبل أن يطلق هذا رصاصة واحدة. كان مرافقه ممتنًا وسعيدًا بحياته التي أنقذت، برغم الفوضى التي عمت بعد ذلك، لكن فخر الدين لم يكن مهتمًا إلا بأنه استطاع أن يردي ذلك المهاجم التعس قتيلًا قبل أن يطلق رصاصته. هذا هو العمل، هذا هو الإتقان.

* * *

أصبح يقابل هند كثيرًا. غالبًا ما يجدها ضائعة في مكان ما، تبحث عن سيارة، أو متأخرة عن مقابلة مهمة. لم تسأله أبدًا عن معلومات، بل على العكس، كانت تقص عليه ما يحدث في باكستان وما يتردد من أنباء حول الخطط الدولية للتعامل مع أفغانستان وحول التحالف الشمالي. كما كانت تحيطه علمًا بما تنشره وكالات الأنباء عن تجاوزات الطالبان والأعمال الوحشية التي يقترفونها في المناطق الخاضعة لهم. يستمع لكل هذا وهو غير معني. ليس هناك بجديد فيما تقصه. سمع نفس المعلومات من قبل وعايش بعض هذه الأحداث بنفسه إن لم يكن قد شارك فيها. لكن حين تقص عليه هند هذه القصص يشعر كأنها تخرج هذه الأحداث من ذاكرته وتضعها أمامه في ضوء جديد. كأنها تريه صورًا لمحها من قبل بطرف عينه. شيئًا فشيئًا بدأ يثق بها، أو في دقة معلوماتها، فلم تقل له يومًا شيئًا لم يحدث. وحين يسألها عن أشياء لا تعرفها لم تكن تدعي العلم.

تتحمس كثيرًا عندما تقص عليه هذه القصص، وفي خضم الحماس تنحسر طرحتها عن شعرها الأسود فيلفت نظرها فتعدلها وهي منهمكة في إتمام القصة. لكنه في كل مرة يتأخر قليلًا في لفت نظرها. يحب الشعر الأسود، ولم ير شعر امرأة منذ أتى إلى هنا. شعرها غزير، ويكاد يتفجر من تحت الطرحة المفككة. جبينها أبيض وناعم، وخصلات شعرها حين تتهدل عليه تجعله أكثر جاذبية. لا يذكر أنه رأى جبهة بهذه النعومة. لاحظت تأمله، وابتسمت في تواطؤ وهي تحذره من العواقب لو عرف أحد من الطالبان ما يفكر فيه. تظاهر بأنه لم يفهم وقطع الحديث ومضى.

* * *

ثم عاد إلى المقاتلين العرب المتمترسين مع الطالبان في الشمال لصد محاولات التحالف الشمالي استعادة السيطرة على وسط البلاد. كانوا يسيرون دوريات يومية عبر الخطوط الفاصلة بين الجانبين، وذات يوم أصابت رصاصة طائشة أبا حفص فأردته قتيلًا على الفور.

مات أمير الجهاد، قال الجميع ليرحمه الله، ثم مضى كل إلى عمله. هكذا. كنت أمير الجهاد منذ لحظة، والآن أصابتك رصاصة طائشة. لم يصوب أحد سلاحه نحوك – مجرد رصاصة طائرة تبحث عن جمجمة تستقر فيها. اختارتك، أو جئت أنت في طريقها فسكنتك، مثل لدغة بعوضة تتركك فريسة الملاريا حتى نهاية أيامك. تأتيك الطلقة الطائشة فتصير جثة بعد أن كنت قائدًا. ويطلب لك رفاقك الرحمة، ويقرأون لك الفاتحة، ويحتسبونك عند الله من الشهداء. مع السلامة أيها القائد.

انعقد مجلس الشورى وقرر بالإجماع مبايعة الشيخ حمزة أميرًا جديدًا للجهاد وذلك باعتباره أقدر المقاتلين على قيادة الجماعة في هذه الظروف ولثقة الشيخ به. تحفظ البعض على مدى معرفته بالشئون الشرعية، لكن الغالبية ردت بأن الشيخ حمزة من حفظة القرآن، وأن الأهم في أمير الجهاد هو قدراته القتالية، وأن الأمور الشرعية يناقشها المجلس الشرعي وليس للأمير أن يتفرد فيها بالقرار. استقرت البيعة لحمزة، وبايعه أبو عمر مع الآخرين. انتحى حمزة به جانبًا بعد المبايعة وسأله:

- هل ترى غضاضة في ذلك يا أبا عمر؟

- ولِمَ أرى غضاضة في مبايعتك؟

- يا أبا عمر، أنت قائدي القديم، فكيف تبايعني على الإمارة دون غضاضة؟

- قائدك؟ أنا؟ متى كان ذلك؟

ابتسم حمزة لأول مرة منذ زمن وهمس:

- بين السرايات!

- يا رجل! تلك كانت حياة أخرى.

بايعه، وكان مخلصًا فيها وفيما قاله. بالنسبة له كان حسين قد أصبح الشيخ حمزة منذ زمن، حتى صار يفكر فيه باسم الشيخ حمزة. توارى الماضي وأسماؤه وما كان فيه خلف الجثث، ولم يبق في العين سوى هذا القتال الذي لا يبدو له نهاية.

* * *

كان أبو عمر يقود سيارة تابعة للشيخ ومعه رسالة مالية يوصلها لأحد الإخوة حين قابل هند. هذه المرة أقلها في السيارة دون تردد. سألته يومها عما يفعله حقيقة في أفغانستان فأجابها بأنه سائق. لم ترد. بعد قليل لمح دراجة نارية قادمة بسرعة من الخلف. استمر في القيادة وهو ينظر بطرف عينه في المرآة لسائق الدراجة النارية؛ ما زال يسرع نحوه. نظرت هند بقلق إلى الخلف وهي تسأل:

– ماله ده؟

– مش عارف.

– ده طالبان؟

– لأ ده...

وقبل أن يتم جملته أطلق الرجل عيارًا ناريًا هشم زجاج السيارة الخلفي ومرق بجانب رأس هند. ضغط أبو عمر بكل قوته على الكوابح فاستدارت السيارة نصف دورة وأصبحت تواجه قائد الدراجة النارية القادم باتجاههما مباشرة. أطلق المهاجم النار مرة أخرى ناحيتهما فلم يصبهما. ارتمت هند أسفل مقعد السيارة في حين استدار قائد الدراجة النارية عائدًا ناحيتها. انتظر أبو عمر حتى وصل المهاجم إلى نافذة السيارة ثم بسرعة خاطفة وضع رصاصة في رأسه قتلته على الفور. ساد صمت لمدة دقيقة لا يقطعه سوى صوت محرك الدراجة النارية الدائر. تحرك أبو عمر بالسيارة وبعد دقيقة أخرج رأسه من النافذة وأطلق رصاصة أخرى ناحية الدراجة النارية ففجرها. أوقف السيارة وأطفأ المحرك وظل جالسًا لا يتحرك. بعد دقائق

رفعت هند رأسها شيئًا فشيئًا. نظرت إليه، ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وأمسكت به بشدة وأخذت ترتجف وتبكي بصوت مسموع.

وجدها في حضنه فارتبك وتخشب جسمه، لكنها التصقت به أكثر وأخذت ترتجف وتشهق من البكاء، فضغط على جنبيها وكتفها بذراعيه. زاد ارتجافها ودفنت رأسها بين رقبته وكتفه كي تكتم صوت بكائها ولفت ذراعها حول رأسه متعلقة به. بدأ يربت على رأسها ويمسد شعرها الذي انحسر غطاؤه. هزه ملمس شعرها، كان قد نسي هذا الشعور. استغرق كفه داخل خصلات شعرها، يلمس الشعر من أطرافه وكأنه يمتص رحيقًا منه ويضغط عليه قليلًا فتنفلت الخصلات وتمضي يده إلى رأسها فيربت عليها برفق وهي مستكينة تحرك رأسها مع يده في استسلام. مالت برأسها على صدره وكتفه فبان خدها المحمر وعيناها المغلقتان. تبكي في هدوء. مد كفه ومسح الدمعات المتبقية على خدها ثم مسح عينيها المغلقتين. حركت رأسها قليلًا فمسح جبينها وأنفها. مالت برأسها فتحركت كفه لا إراديًا نحو رقبتها وبدأ يتحسس أسفل ذقنها ورقبتها التي استحال لونها فورًا اللون أحمر دافئ. أفلتت منها آهة صغيرة وانفرجت شفتاها وتوردت. لف يده حول رقبتها فرفعت رأسها قليلًا وقبل أن يفكر كثيرًا كانت شفتاه قد استقرتا في شفتيها. شعر وكأنها تذوب؛ ينهار تماسكها كلية حتى خيل إليه أنها ستسقط من على مقعد السيارة. اجتذبها كي يمنع سقوطها فتداخلت فيه أكثر. وفجأة وجد نفسه محاطًا وملتصقًا بهذا الجسد الحار الناعم المتماسك، وذكورته كلها تعود وتمتلكه وتفور منه. ضغط على شفتيها بشدة حتى جفلت لكنه ظل قابضًا عليها ونشوته تسبقه وتفلت من سيطرته فجأة مثلما جاءت. هدأ مرة واحدة. أفلتها متحرجًا من بين ذراعيه. تراجع قليلًا وظلت هي تنظر إليه بعينيها الواسعتين.

- إنت قلت لي بتشتغل إيه؟

- نعم؟

- إنت؟ بتشتغل إيه؟

- أنا، أنا آسف جدًا. أنا معرفش إزاي ده حصل؟

ضحكت:

- هو حصل حاجة وانا مش واخده بالي؟

ترك السيارة وخرج وهو لا يعرف ماذا يفعل. لم يكن متأكدًا ما إذا كان مبعث حرجه ما بدأه أم ما لم ينهه. سار نحو حطام الدراجة النارية. فحص الجثة. كان المهاجم القتيل من الأوزبك وليس معه أوراق. عاد للسيارة وسأل هند إن كان لها علاقة بمجموعات الأوزبك. أجابته بأنها قابلت القائد الأوزبكي دوستم وأجرت معه حوارًا هاجم فيه حلفاءه وقال إنهم عملاء لأمريكا، وإن الحوار أثار ضجة ومشاكل بين دوستم ورباني وحكمتيار، تعرضت بعدها لضغوط من جانب رجال دوستم كي تنشر تكذيبًا لهذه الفقرات وتقول إنها أخطأت في الترجمة وهو ما رفضته، وقالت لهم إن لديها أشرطة مسجلة بما قاله. ومن يومها وهي لا تذهب لمنطقة التحالف الشمالي خوفًا على حياتها وهذا سر مجيئها لمناطق الطالبان.

- إنت مش ناوي تقولي بقى انت بتعمل إيه بالضبط؟

- باسوق.

- وبتقتل الناس بالدقة دي في إطارالسواقة؟

- دي حماية.

- يوه. خلصني بقى وبلاش تضييع وقت. طيب قول لي اللي بتقتلهم دول بتقتلهم ليه؟

- افندم؟

- اسمع.. أنا مش متخلفة. أنا عارفة كويس قوي إنت مين وبتعمل إيه. وبعدين أنا قلت لك أنا مين وباعمل إيه، فليه بقى ماتبطلش استعباط وتكلمني بصراحة؟

فتح الباب وطلب منها مغادرة السيارة.

- لا انت أكيد بتهزر!

- كفاية يا هند لحد كده. أنا مش عايز مشاكل.

- طيب أخرج أروح فين هنا؟ انظر حولك يا أخي المواطن!

- اتصرفي، زي ما بتيجي أكيد تعرفي تروحي.

- أما قليل الذوق! ماحدش علمك إن المفروض توصل صاحبتك بعد ما تخلصوا؟ والله مانا نازلة.

أغلقت باب السيارة وتمترست. قاد السيارة في صمت حتى وصل لنقطة التفتيش على مدخل جلال آباد. أشار لها فاختبأت أسفل المقعد. كان يعرفهم ويعرفونه. أشار لهم برأسه وأشاروا له بأيديهم ولم يتوقف. بعد عبور النقطة خرجت من تحت المقعد. أوقف السيارة وفتح لها الباب وذهبت.

* * *

كثرت غارات التحالف الشمالي على الخطوط الأمامية وصارت مهمة الدفاع عن المنطقة أثقل. في كل ليلة تقريبًا تأتي هجمة أو أخرى. ينال أبو عمر شيئًا من النوم وهو رابض في موقعه ويستيقظ عند أقل صوت. أحيانًا يستخدم بندقيته، وأحيانًا يقع القتال وجهًا لوجه. وكل يوم، ينقذ أبو عمر أحد رفاقه من بين أنياب الموت، مسددًا قبضته أو خنجره أو طلقة بندقيته لمهاجم ومرديًا إياه قتيلًا قبل أن يتبين رفيقه ما جرى من حوله. ثم أصبح ذلك الرفيق ذات ليلة الشيخ حمزة. كانا بوادي بانجشير، والشيخ حمزة مشتبكًا مع أحد المهاجمين وأبو عمر مشغول بإطلاق النار على مصدر كثيف للنيران، وفجأة ظهر مهاجم آخر من حيث لا يراه حمزة ورفع خنجره ليطعنه في ظهره. رآه أبو عمر بطرف عينه فسدد قبضته لأسفل عنقه فسقط قتيلًا على ظهر حمزة الذي لم يكن قد رآه حتى الآن. انتفض حمزة وهو يظن أن المهاجم قد تمكن منه واستغرق الأمر ثانيتين حتى أدرك ما جرى. جز حمزة عنق ذلك الذي كان يقاتله ثم دفع جثة الآخر الرابضة على ظهره. ظن حمزة أنه هلك، وأخذ وقتًا حتى تمالك نفسه. فبرغم طول القتال وبرغم شجاعته وقدرته القتالية الفائقة التي ذاع صيتها وجلبت له الإمارة، لم يأت الموت بهذا القرب منه أبدًا. وقد أثرت عليه هذه الحادثة. ثم تكرر الأمر مرتين في الشهر ذاته في نفس الوادي حيث دارت معارك شرسة بين الجانبين. وفي المرتين أنقذه أبو عمر من موت محقق. قال حمزة بعدها إن رجال التحالف الشمالي يستهدفونه باعتباره الأمير. فاقترح عليه أحد الإخوة عدم المشاركة في الدوريات التي يسيرونها، وأيده الباقون. ولم يعد حمزة من يومها لخطوط القتال هذه.

كانت تلك الشهور من أشرس الأوقات التي قضاها أبو عمر في أفغانستان، ولم يعد يعرف عدد الذين يقتلهم. فأيام يذهب للنوم وهو يظن أنه قتل أربعة أو ثلاثة، ثم يتذكر عند استيقاظه أنه قتل اثنين آخرين هاجما مواقعهم أو قبلها. ثم توقف عن عد القتلى أو تذكرهم، وصار القتل أبسط.

لكن الضغط العسكري لم يتوقف. جاء الشيخ من الجنوب وجاءت قيادات من طالبان واجتمعوا بالشيخ حمزة ومجلس شورى الجماعة بمن فيهم أبو عمر. وقال الجميع إن هذا الضغط الميداني سببه زيادة دعم الدول الأجنبية لقوات التحالف الشمالي كي يقضي على الإمارة الإسلامية. ومن ثم قرروا إعلان الجهاد ضد هذه البلاد الأجنبية نفسها، أو ما أسموه «العدو البعيد». عارضهم البعض ممن فضلوا التركيز على «العدو القريب»، أي قوات التحالف الشمالي. وقالوا إن الجهاد ضد دول أجنبية لا معنى له وإن الجهاد يجب أن يظل محصورًا بهدفه المباشر. لكن الأصوات المعارضة كانت أقلية، وتم إعلان الجهاد ضد الغرب.

كان قد مر على أبي عمر أكثر من عامين في أفغانستان عندما قررت الجماعة ذلك، وقضى بعدها فخر الدين حوالي ثلاث سنوات أخرى قبل أن يرحل. لكن بذرة قرار الرحيل ولدت هذا المساء. قال للشيخ:

- ليست هذه قضيتي؛ ترونها هامة، وقد تكون، لكنها ليست قضيتي.

- هل تريد الرحيل الآن؟ هناك إخوة راحلون.

كان ما زال يتعلم، ما زال يجمع أسباب القوة، ولم يحن وقت رحيله بعد. لكنه أراد إنذار الشيخ بأن وجوده ليس للأبد.

- ليس بعد، لكن قريبًا.

- ما دمت باقيًا فسيكون لدينا الوقت للحديث عن هذا فيما بعد.

* * *

اشتاق لهند. ينكر ذلك لكنه يعرفه. وكلما تذكر ماحدث بينهما على مشارف طريق جلال آباد صرف تفكيره لشيء آخر. لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه يشتاق إليها، وبشدة. وكلما وجد نفسه وحيدًا على الطريق بين مدينتين، تذكرها. يرى شبح امرأة ملفوفة في البرقع الأفغاني ويتمنى في أعماقه أن تكون هند. ويبحث.

ثم رآها. واقفة على الطريق كعادتها، خارج مزار شريف، وهو عائد لتوه من مهمة أرسله فيها القائد الطالباني الذي يعمل معه. توقف أمامها:

- انتي بتعملي إيه هنا؟ ده الشمس قربت على الغروب.

- مش لاقيه تاكسي!

- انتي مش حاتبطلي لماضة؟

ركبت السيارة فتحرك بسرعة قبل أن يغلق الباب تمامًا.

- انت كل حاجة عندك سريعة كده؟

هز رأسه مستنكرًا جرأتها وظل صامتًا. مدت يدها وأمسكت كفه اليمنى القابضة على ذراع السرعات ووضعت أصابعها بين أصابعه.

ضغط على راحة يدها فاستكانت لضغطته والتصقت ببطن كفه. لم يتبادلا كلمة. ظل يقود في صمت وهي تعبث بكفه وأصابعه بكلتا يديها. غربت الشمس وصارا يقودان في ظلام دامس.

- كده خطر. لو دورية وقفتنا حتعمل لنا مشاكل.

- انت خايف ليه؟ مش انت شخصية مهمة؟

- ما تضمنيش. ممكن يوقفنا عيال عندهم عشرين سنة ويضربونا بالنار.

- لطاف أصحابك دول! طيب والحل؟

- نشوف حتة نبات فيها لغاية الصبح.

- نشوف حتة.

واصل المسير دقائق ثم عرج من درب جانبي. أطفأ مصابيح السيارة وسار معتمدًا على ضوء القمر الخافت لمدة نصف ساعة ثم توقف. تركا السيارة ومشيا في درب صخري حتى وصلا لكهف صغير. أدخلها الكهف وأعطاها ملاءة تفترشها وذهب يتفقد المكان. عاد وأخبرها أن المكان آمن لقضاء الليل. أشارت له فجلس على الملاءة، بجانبها.

- بذمتك ماوحشتكش؟

لم يرد. نظر إلى وجهها الأبيض، وعيناها تنظر إليه متسائلة. أدار رأسها حتى واجهته تمامًا فقرب شفتيه من فمها. لثمها. قبلته. أخذ شفتها السفلى بين شفتيه وضغط عليها حتى لانت، ولان فمها على فمه

والتصقت شفاههما تنهلان بعضهما من بعض. لمست شفتاها أسنانه فاقترب منها أكثر وضغط على شفتيها. كان يرتشف وجهها قطعة قطعة. دفعت بالعمامة التي تغطي رأسه بعيدًا وأخذت رأسه في صدرها. خلع رداءها عنها بعنف والتقطها وهي خارجة من ثنايا الرداء عارية. يمسك ذراعيها العاريتين ويملأ كفيه بهما وبكتفيها المستديرين البضين. ملمس جلدها الساخن ولونه أطلق العنان لرغبته. كسر حاجز السيطرة وأصبح الآن طليقًا في فضاء لا قواعد فيه. شدت قميصه بعنف فعرت صدره. لمسته بيديها فشعر بحرارته ترتفع. جردها من بقية ملابسها وأمسك بها من وسطها العاري وهو يلتهم بعينيه بهاء خصرها الصلب الملتهب. ثدياها العاريان متصبان في كفيه؛ يتحسسهما ويضغط عليهما ويقبلها على صدرها. يلعق نحرها، وهي تسيل بين يديه وتتلوى. يمسك بها من جانبي ردفيها ويقبل بطنها قطعة قطعة. تتحول تنهداتها لتأوهات وتتصاعد وهو يهبط بشفتيه على بطنها شيئًا فشيئًا. تنتفض وتتراجع قليلًا ثم تعود وتعلو وتدخل نفسها في فمه وأنفاسها تتسارع حتى تتحد في صرخة واحدة طويلة تدوي في ليل التلال الصامتة. يحل بعدها صمت مطبق وهي ترخي جسدها على الملاءة المفروشة على الأرض الصخرية. يفتر ثغرها عن ابتسامة صغيرة وتهم بالكلام فيضع يده على فمها. لحظات وذهب في النوم.

استيقظ في قلب الليل واستغرقه الأمر لحظات كي يتذكر أين هو. نظر إلى النائمة بجواره، وأصاخ السمع. لا صوت يأتي من خارج الكهف. لا تزال عارية بلا غطاء. تحسس جسدها في الظلام فجفلت قليلًا. قامت ومالت ناحيته تحدق فيه. سألت:

– إنت مبسوط هنا، في أفغانستان، من اللي بتعمله؟

اغمق وجهه وصمت. ظلت تحدق فيه. أجاب بتردد:

- يعني، مرحلة وتعدي.

- وعاجبك أصحابك الطالبان؟

صمت لحظة. ثم تمتم ببطء:

- مرحلة وتعدي.

أظلم وجهه أكثر وانغلق وبدا كأنه انفصل عمن حوله وذهب لمكان آخر. مدت يدها إليه وأخذت رأسه في صدرها وهي تتمتم «معلش». قبلته وأعادته لحضنها وظلا هكذا فترة حتى بدأ يعود من جديد. قبلته على شفتيه فأمسك بوجهها يوقفها، ثم جمع شعرها في يده ورفعها بعنف وأجلسها على حجره. اتسعت حدقتا عينيها وشهقت وهو يأتيها ويمسك بجسدها فوقه ويده تجذب شعرها للخلف بشدة. يشعر بنعومة هائلة تغمره وتغمر جفاف سنوات طويلة شقق جلده. تلمه تأوهاتها وتضمه وتصهره ويلحمه لحمها. تنتظم تأوهاتها في صرخات قصيرة متلاحقة تتبع صعودها وهبوطها فوقه حتى تأتي صرختها ثانية فتغطي على الفضاء من حولهما. يهدأ. لا يتحرك، ولا تتحرك. تظل هكذا ثم تتراجع من فوقه وتستلقي على جانبها على الملاءة. يستلقي بجوارها، ويغفلان.

حين استيقظ لم يجدها بجواره. وجد ورقة صغيرة تقول إنها رحلت عند الشروق كي تتمكن من الوصول لقندهار في موعد لديها. تساءل في استغراب كيف رحلت وكيف ستصل لقندهار.

«مجنونة».

* * *

في تدريبه نقطة ضعف يعرفها، وهي الغطس والسباحة التي لديه منها عقدة منذ حادث غرق البحيري. طلب من حمزة أن يأذن له بالرحيل لمكان يستطيع فيه تعلم ذلك. نظر إليه حمزة طويلًا وسأله إن كان ذلك مقدمة للرحيل، فنفى. هز رأسه بغير اقتناع وبعثه للشيخ الذي أرسله لمركز سري للتدريب على العوم والغطس في وسط الصحراء. قضى عدة أسابيع يتدرب على السباحة والغطس حتى أتقنهما، وأخذ دروسًا نظرية في الملاحة البحرية وميكانيكا القوارب. بعدها عبر الحدود الباكستانية ومنها ذهب إلى منتجع سياحي في جنوب الهند يملكه الشيخ حيث تلقى تدريبًا على قيادة المراكب البخارية والشراعية لمدة شهور.

ثم عاد. لم تفلح الدورة التدريبية في الهند في التخفيف من السأم الذي يعتريه منذ أول العام. كانت مكانته قد استقرت كمقاتل من الطراز الأول، وواصل التدرب والحفاظ على لياقته في كافة مجالات القتال، وخاصة مهارات القنص التي يحبها أكثر من غيرها. وبعد أن أتقن السيطرة على نفسه وجسده سيطرة كاملة، انتقل لتخطيط العمليات وتفوق فيه حتى أصبح الشيخ يستعين به كثيرًا في التخطيط لعمليات الجماعة. ولكن السأم يتسرب إليه. يستطيع البقاء ومواصلة القتال، لكن إلى متى؟ ولأي غاية؟ كان يمسك بنفسه متلبسًا أكثر من مرة أثناء تنفيذ عملية وهو يسأل نفسه ماذا يفعل هنا؛ في هذا المبنى، خلف هذا التل، في هذه السيارة، وهو ينتظر ظهور هدف ما كي يرديه قتيلًا. ليس القتل ما يضايقه، لكن فقدان المعنى. يريد قتال عدو حقيقي؛ عدو يعني له شيئًا مباشرًا، لا العدو البعيد ولا أتباعه من التحالف الشمالي وعملاء أجهزة المخابرات.

يسأل نفسه وهو في قلب العملية، وهو في سيارات الطالبان أو في سيارة الشيخ: «ما الفائدة في أن أكون الخبير الأول، القناص الأول في بلد لا يهمني أمرها حقيقةً؟ وأمام عدو ليس عدوي؟». لا يشكل كل هذا القتال بالنسبة له سوى تدريب من أجل غاية أبعد. جاء هنا ليكتسب عناصر القوة، والآن يريد أن ينهي التدريب وينتقل لميدان القتال الحقيقي. يريد أن يعود لندائه الأول؛ لقلبه الأول وعدوه الأول. يريد العودة لمصر.

عندما فاتح حمزة برغبته عارضه بشدة. قال له إن هدف جميع المقاتلين العرب هو العودة لبلادهم وتغيير الأوضاع هناك، ولكن لكل شيء وقته وهذا الوقت لم يحن بعد. شرح له أن الجماعة غير جاهزة للعمل في مصر، وأن العدو البعيد يحتل الأولوية، أن قتال الأمريكيين وحلفائهم هو المفتاح لأنهم هم الذين يدعمون الأنظمة الفاسدة والمستبدة. أعلن أبو عمر اختلافه مع هذا، متسائلًا عن فائدة قتال الأمريكيين وهم مجرد عوامل مساعدة وليسوا سبب بلاء الأمة. قال أبو عمر إن المنطق والعقل يقضيان بأن يغير المرء ما بنفسه أولًا ثم ينظر لما يفعله الآخرون إزاءه، وليس العكس. أراد حمزة النقاش لكن أبا عمر أعلن أنه قد عزم على الرحيل وانتهى الأمر. طلب منه حمزة الالتزام بما أقرته الجماعة وتجنب شق الصف، فرد أبو عمر أنه قد فعل ذلك لسنوات طويلة، والآن حان الوقت ليرحل. رفض حمزة مذكرًا أبا عمر ببيعته، فرمقه أبو عمر بنظرة ساخرة وطلب منه أن يعد نفسه لرحيله وتركه وخرج.

بعد عدة أيام من الجفاء بين الرجلين دخل حمزة على أبي عمر وأخبره أنه لن يرغمه على البقاء إن كان يرغب في الرحيل. لكنه طلب

منه الصبر عدة شهور لأنهم بصدد ترتيب عملية كبرى ويحتاجونه. بعد هذه المحادثة بأسبوع ألمح له الشيخ أنه على علم برغبته الرحيل، وأيد ما ذكره حمزة من ضرورة الانتظار، واعدًا إياه خيرًا قبل نهاية العام. قبل أبو عمر الانتظار. وفي أواخر أغسطس كلفه حمزة بالسفر إلى الشمال مع مجموعة ستدبر له فرصة يستطيع فيها قتل القائد العسكري لتحالف الشمال «أحمد شاه مسعود». سأل أبو عمر عن المغزى من العملية لكن حمزة رفض الإفصاح، قائلًا إنها جزء من عملية أكبر لا يملك الحق في الحديث عنها. رفض أبو عمر، واحتدت المناقشة بين الرجلين.

- لماذا؟ أريد سببًا مقنعًا لرفضك.

- لأننا في هدنة مع التحالف، وما دمت تريد قتله الآن، فمعنى ذلك أن هناك قتالًا كبيرًا قادمًا.

- ربما، وما المشكلة في ذلك؟

- حينها لن أغادر، لن يمكنني أن أرحل حين يبدأ مثل هذا القتال.

- دع ذلك لوقتها.

- لا. أريد الرحيل، وقد اتفقنا.

- يا أبا عمر، كف عن هذا، وتذكر أنك أقسمت على السمع والطاعة!

- فيما لا يخالف شرع الله يا أمير الجهاد، وقتل شاه مسعود مخالف للشرع، فنحن في هدنة مع الرجل وقتله نقض للعهد.

وهكذا، استمرا في المناورة دون جدوى. أرسل حمزة أبا عمر على وجه السرعة إلى الشيخ الذي التقاه في أول سبتمبر وضغط عليه كي ينفذ هذه العملية على وجه السرعة لكن أبا عمر لم يلن. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرفض فيها طلبًا مباشرًا للشيخ، بعد ساعات من الجدل أدرك الشيخ أن الأمر قد قضي بالنسبة لأبي عمر، فأذن له بالرحيل مع وعده أن يكتم أمر عملية شاه مسعود عن أي شخص داخل أو خارج الجماعة. أقسم أبو عمر بكتمان كل ما يعرف، ورتب له الشيخ الخروج من أفغانستان إلى باكستان وعين له شخصًا سيقابله في بيشاور يسهل له التنقل ويعد له الوثائق اللازمة للسفر. طلب أبو عمر العودة للسودان أولًا لرؤية ابنه فوافق الشيخ ووعده بتسهيل الأمر مع السلطات السودانية بشرط ألا يبقى في باكستان أكثر من ثلاثة أيام، ومثلهم في السودان، بحيث يكون في مصر في أسبوع من يومهم هذا. خرج فخر الدين من عند الشيخ وبدأ يعد العدة للسفر. لم يكن لديه وقت ليذهب لوداع حمزة في جلال أباد فاكتفى بأن حادثه بالهاتف وكانت مكالمة مقتضبة بأكثر مما تستدعيه الاحتياطات الأمنية. وفي اليوم التالي – الثاني من سبتمبر – شد الرحال إلى بيشاور وهو يتذكر الطريق الذي دخل منه البلاد أول مرة منذ قرابة ست السنوات.

التقى نقطة الاتصال بفندق «الخان كلوب»، وهو مبنى قديم على الطراز الأفغاني تم ترميمه وإصلاحه وصار مقصد الزوار في بيشاور. تسلم من نقطة الاتصال جواز سفر يمنيًا وتذكرة إلى الخرطوم عبر أبي ظبي ومالًا.

– تكونش فاكر انك ممكن تمشي من غير ما تسلم عليَّه؟

باغتته هند وهو جالس في غرفته بالخان. سمع طرقًا خفيفًا على الباب ولما فتح وجدها في وجهه، بعينيها الواسعتين ونظرتها المباشرة.

– مش عيب عليك؟

دفعت الباب ودخلت وأغلقته ثم تعلقت برقبته واحتضنته.

– أنا نفسي أعرف انتي بتتطلعي لي منين؟

– من عملك الاسود! مش عيب عليك بعد كل ده عاوز تسيب البلد من غير ما تسلم عليَّه؟

لم يكن لديه إجابة. هذه هي الحرب. أنت اليوم هنا وغدًا لست، رحلت لمكان آخر أو مت. لا تنظر وراءك ولا تودع أحدًا. إن أسعفك الحظ تصافح من بجوارك أو تعانقه، وتتمنيان بعضكما لبعض السلامة، ثم يذهب كل لحال سبيله. قد تلتقيان ثانية، وقد يكون الموت أسرع. الساعة الرابعة بعد الظهر، والخان ساكن. الجو لا يزال حارًا. شغَّل مروحة السقف فأحدثت أزيزًا رتيبًا لكن لفحات الهواء التي أطلقتها أنعشت الجو. الفراش في دور علوي بالغرفة، أسفل قبة السقف مباشرة وقرب المروحة.

– حاجة تخوف!

وضعت هند حقيبتها وقالت له إنها تريد أن تسمع منه كل شيء، لماذا قرر الرحيل الآن وما إذا كان سيعود وأين ينوي الذهاب وخططه للمستقبل. قالت إنها ستأخذ حمامًا سريعًا وتخرج ريثما يكون قد أعد الإجابات. هز كتفيه في لامبالاة. تعلم جيدًا أنه لن يجيب على أي من هذه الأسئلة، وربما تعلم أيضًا أنه ليست لديه إجابات أصلًا. جلس

يفكر وهو يستمع لصوت الماء ينساب من الدش. الحمام من الرخام الخشن القديم، يحتل الدش نصف مساحته ويمكنك أن تجلس فيه مع أربعة آخرين إن شئت. انتابته رغبة في الدخول خلفها لكن غلبه الحياء. برغم كل ما بينهما يغلبه الحياء ولا يتخلص منه إلا تحت ضغط الرغبة العارمة، فجأة ودون مقدمات، تمامًا مثلما يقتل.

خرجت فأنقذته من أفكاره. تلتف في فوطة الحمام الزرقاء الكبيرة، وتبدو ساقاها وكتفاها وذراعاها ناصعة البياض ومشرقة. على مسام بشرتها عدة قطرات من الماء تلمع في حرارة الغرفة. مد يده بتلقائية ولمس هذه القطرات. توقفت وابتسمت رافعة رأسها لأعلى وملقية بها للوراء وهي تهمس:

- وحشتني لمسة إيدك.

أمسك بها من كتفيها وأدارها ناحيته. تراجعت قليلًا:

- لا، خش الأول خد دش زيي. الميه بتفتح المسام.

دخل، وعاد ملتفًا بفوطة مماثلة فلم يجدها. نظر حوله في قلق فرأى فوطتها الزرقاء ملقاة على أحد المقاعد. ارتبك. نظر من النافذة فسمع ضحكتها ساخرة آتية من الفراش المعلق قرب سقف الغرفة:

- انت فاكرني هربت؟ انت على طول كده بتشك؟ أنا هنا، مستنياك.

صعد السلم الحجري الضيق إلى الفراش. نصف الغرفة العلوي منخفض السقف. ولتصل الفراش عليك أن تسير على أربع. مدت قدمها إلى الفوطة الملتفة حوله ففكتها وهو في طريقه للفراش.

- كده أحسن؛ الدنيا حر.

وصل إليها فجذبته وعانقته. التصق جسماهما في سكون وكأنهما يشحنان بعضهما بعضًا. دون حركة، تملكتهما الرغبة وعلت وهما متعانقان فأتاها شيئًا فشيئًا دون أن يفكا عناقهما. دخلها وأطبقت عليه وهما ثابتان لا يتحركان والرغبة واللذة يتداخلان ويتزايدان ويغذيان بعضهما بعضًا حتى تفجرا سويًا. ظلا ملتصقين وعيناها ثابتتان في عينيه:

- مش حاتقولي ناوي تعمل إيه؟

- حارجع مصر.

- حتعمل إيه هناك؟ حاتشتغل سواق برضه؟

- مش عارف لسه، بس لازم ارجع. ما عادش لوجودي هنا لازمة.

صمتت لحظة، مدت يدها تتحسس صدره. ضمها. أضاف بعد تردد:

- انتي حاتعملي إيه؟

انتفضت جالسة:

- حافضل هنا لغاية عقدي مع الوكالة ما يخلص. فاضل فيه خمس شهور.

- وبعد كده حتروحي فين؟

- حاروح فين يعني؟ جمهورية فلسطين؟

- ليه لأ؟

- حادخل إزاي؟ أنا مبعدة.

- طيب لبنان أو الأردن؟

- وأعمل إيه هناك؟ أشتغل مع تنظيمات مسلحة برضه فاكرة نفسها بتطارد الاحتلال وهي في الحقيقة بتطارد خيالها؟ ده كله جري ورا أوهام.

- انتي قاسية قوي النهارده.

- مش انا اللي قاسية. الدنيا اللي قاسية. بس ده من حسن حظك. لما أخلص عقدي هنا حاجيلك مصر.

- فعلًا؟

- فعلًا، بس قوللي الأول ناوي تعمل إيه؟

- حاقولك بس الأول لازم توطي صوتك. ماتعمليلناش فضيحة. أنا هنا رجل أعمال يمني معروف.

- وحياتك لارفع رأس اليمن في بيشاور كلها!

ثم عقصت شعرها خلف رأسها واستدارت له. قبلت عنقه، وتفاصيل صدره وبطنه، وساقيه، وقدميه، وقلبته على ظهره ومسدت جسده بجسمها. أمسك بها وأجلسها فوقه بعنف. تراجعت قليلًا واستدارت دون أن تفلته واستراحت فوقه مرة أخرى معطية ظهرها له وأطلقت شعرها الفاحم من عقصته فهطل فوق ظهرها أمام عينيه اللاهثتين. تصعده وتهبطه وشعرها يتهادى معها ويلامس وجهه وأطراف صدره فيزيده التهابًا ورغبة. أمسك بها من وسطها وهي

تتأوه من اللذة وهو من الرغبة. تسرع وتتمهل في حركتها وهو ممسك بشعرها يجذبها ليسيطر على حركتها فوقه وهي تتملص وتستكين في تناغم أنثى بلغت كمالها. يكاد جسداهما يسيلان بعضهما في بعض حرارة ورغبة. يلمها بكفيه ويهصر وسطها ويضغطها فوقه كأنه سيحفرها ثم يطلقها لأعلى فتشهق كأنها تخرج من الماء فيعيدها وهي تملأ بصوتها أرجاء الخان فيزيد صراخها من قسوته عليها وتتسارع حركتهما وتشتد حتى دوت صرختها الأخيرة مع هدير نشوته المتفجرة فيها. سقطت فوقه من الإعياء وراحا في سبات عميق.

* * *

وضعه مندوب الشيخ في سيارة أخذته إلى إسلام أباد في الصباح الباكر. وصل إسلام أباد عند الظهيرة وتوجه للمطار بعد استراحة قصيرة تناول فيها طعام الغداء في فندق الماريوت الذي يؤمه الزوار الأجانب وعامة الجواسيس. كانت الفكرة – مثلما الحال في الخان ببيشاور – أن يلحظ عبوره من يتابعون الحركة من وإلى المكان، بحيث يتم تسجيله من هنا على أنه رجل الأعمال اليمني الكبير. بعد الغداء ذهب للمطار واستقل الطائرة إلى الخرطوم التي وصلها في الليل بعد توقف طويل في مطار أبي ظبي. وجد حارسه القديم عبد الله في انتظاره بالمطار. كل هذه السنوات ولا شيء تغير هنا، لا لون الأرض الأحمر، ولا النيل البني القوي، ولا الحواجز الأمنية، ولا رائحة الهواء المشبع بالرطوبة. كان كأنما يسير في حياته بالعكس، وتعود إليه ذكريات ووجوه ومشاعر قديمة، لكنها لم تكن تنفذ إلى قلبه. بل ترتطم به وتنحسر، كموج صغير يحاول التشبث برمل الشاطئ، لكنه ينحسر تاركًا الشاطئ جافًا مثلما كان.

في الصباح، زار أم ياسر لأول مرة منذ ست سنوات، وكان لقاؤهما حارًا. كان عمر وياسر في معسكر صيفي، فترك لهما أبو عمر بعض الأشياء التي اشتراها لهما من مطار أبي ظبي. اتفق مع أم ياسر على أن يظل عمر عندها لمزيد من الوقت حتى ينهي أعمالاً عليه القيام بها في مصر، فوافقت مرحبة. لم تسأله عن المدة، ولا عن طبيعة العمل الذي يمنعه من اصطحاب ابنه، وتمنت له التوفيق. لم تسأله عن البحيري وأيامهم الأخيرة معًا، ولم يتطرق أبو عمر إلى ذلك. لكنه فجأة قال لها «رحمه الله؛ مات مثلما عاش، كريمًا ومعطاءً ورجلًا بكل معنى الكلمة». قال هذه الكلمات سريعًا وصمت. كان في عجلة من أمره. وتركها بعد هذه الكلمات ليرتب أمور عودته لمصر. التقى بعبد الله الذي كان ينتظره خارج المنزل. يعلمان أن كل تحركاتهما مراقبة ومن ثم أرادا الاختصار. استقلا طائرة داخلية إلى الفاشر بدارفور، ومنها ودع عبد الله وأخذ سيارة إلى شمال دارفور حيث التقى أحد معارفه من أيام الإقامة الأولى هناك. جهز له الرجل قافلة صغيرة من جملين وحصان وبعض الأمتعة والمؤن. وفي الثامن من سبتمبر – الموعد الأقصى الذي حدده له الشيخ لمغادرة السودان – كان أبو عمر قد بدأ رحلته عبر صحراء الجلف الكبير بين السودان ومصر.

* * *

الفصل السادس

الخط الأحمر

قضى أبو عمر أربعين يومًا في الصحراء قبل أن يصل لأسيوط. أربعون يومًا في نفس الطريق الذي طالما سافر فيه، يتذكر رحلاته بدارفور مع الشيخ، ومغامراته داخل الصحراء وهو يحرس الشحنات الفرساتشي الآتية من ليبيا، لكن الذكريات تأتيه دون حنين؛ مجرد تذكر للأماكن والأحداث.

ها هوذا يعود. رحل طريدًا ومكسورًا، وها هوذا يعود مالكًا لزمام أمره وعاقد العزم على تسوية الحساب. لا يعود لينتقم بل ليعدل كفة الميزان الذي اختل. يعود ليقيم العدل في قضية لم تنظرها العدالة لأنها غُيِّبت. لا يحتاج تحقيقًا، فهو يعرف جيدًا من قتل فخر الدين وعلي وناصر والبحيري وشرد الآخرين. سيعود كي يسوي الحساب ويعدل الميزان، لا أكثر ولا أقل.

أربعون يومًا من السفر في الصحراء مع جملين وفرس تحت النجوم الساطعة ليلًا والشمس الحارقة نهارًا، يقلب الأمر ويفكر

في الخطط العملية: أي شخصية يتخذها؟ هل يظل عيسى النجار أم يستعيد هويته؟ هل يعلن قدومه لأهله وأصدقائه أم يعيش متخفيًا؟ كيف سيتعامل الأمن معه في الحالتين؟ وأي عمل يتخذ؟ لقد أمن الشيخ له مايكفي من المال، ولكن لا بد من أن يجد عملًا. فماذا يعمل؟ وأين يقيم؟ وأين يبدأ؟

في أسيوط باع الدواب ثم تخلص من ملابس الصحراء وحلق لحيته وبدا كمعلم بمدرسة ثانوية في طريقه ليقضي إجازته في مدينته الأصلية. ثم جلس على قهوة يشرب الشاي ويقرأ الجرائد، وعندها أدرك ما جرى. نظر للصفحة الأولى وصعقه الخبر. التهم صفحات الجرائد كي يفهم جيدًا ما حدث خلال الأربعين يومًا الماضية. الآن فهم سر الإصرار على قتل شاه مسعود، وفهم سر تأكيد الشيخ على أن ينهي سفره ويدخل مصر في نهاية الأسبوع الأول من سبتمبر. كان يعلم أن المراقبة على الطرق والمنافذ الدولية ستشتد عقب ذلك. قالت الجرائد إن أمريكا بدأت تقصف أفغانستان وأن حكم الطالبان يتهاوى وأنهم يفرون من المدن الأفغانية الواحدة تلو الأخرى وأن المقاتلين العرب تشتتوا. ينظر للجرائد ولا يكاد يصدق أن كل هذا يمكن أن يحدث خلال أربعين يومًا. كأنه دخل نفقًا بسيارته وحين خرج وجد الطرق ومعالم المدينة قد تغيرت. كان يعلم أن الأمور تسير نحو مواجهة كهذه، إلا أن حجم المواجهة جاء أكبر مما توقع. أخذ يفكر في مصير رفاقه، سيكيل الأمريكيون الضربات للمقاتلين، وسيسقط قتلى كثر وتنهار شبكات وتنظيمات وترحل قيادات، ولكن من وسط غبار القصف سيولد قادة جدد، وتنظيمات جديدة، وستنشأ شبكات أخرى أكثر تعقيدًا وصلابة. هذا هو قانون البقاء، وهكذا

تتطور القدرات القتالية للتنظيمات. نظر أبو عمر للجريدة وفكر أن هذا الأمر لن يتوقف أبدًا.

ركب القطار متجهًا للقاهرة وهو يراجع أطراف خطته. القطار يمر عبر الحقول التي يحفظ شكلها، لم يتغير فيها شيء. لم يتغير شيء على ضفاف النيل سوى المزيد من البيوت قرب النيل وفوق الحقول، حتى لا تكاد ترى الحقول أحيانًا. لم يتغير شيء في مدخل القاهرة سوى توحش أحيائها أكثر واتضاح فقرها أكثر. ترك القطار في باب الحديد لقطار آخر ذاهب للإسكندرية. يعشق هذه المحطة منذ كان صغيرًا. على هذا الرصيف دخن سيجارته الأولى؛ كانت «سوبر» بعلبتها الطرية التي لا تحمي السجائر من التكسر. تخرج السيجارة الطويلة منها وأنت تدعو أن تكون سليمة. تمرر أصابعك عليها كي تعيد تسويتها وتتأكد من أنه ليس بها ثقوب، ثم تشعلها وتسحب نفسًا يجب أن يكون طويلًا لأنها عادة «مكتومة». هنا شعر لأول مرة بذلك الخدر المفاجئ يتسلل لأطرافه. هنا سافر وهنا يعود. هنا بكى قلبه وهنا ابتهج. هنا، في ليل هذه العربات ذات النوافذ المكسورة. لكن كل ذلك مضى الآن، ولا يبقى من تلك الأيام سوى صور. كأنها قصة حدثت لشخص آخر. كأن فخر الدين هو من قُتل فعلًا ذلك اليوم في بين السرايات.

* * *

بمجرد وصول القطار بحث عن موقف «الميكروباصات» ووجده في مكانه. ابتسم لنفسه. ركب ميكروباصًا إلى مرسى مطروح وبعد حوالي ساعة مر عند حاجز أمن مدينة الحمام. طلب شخص بملابس

مدنية من السائق هويات الركاب. أعطاه أبو عمر بطاقته الشخصية القديمة. غاب الرجل دقائق ثم عاد. أطل برأسه داخل السيارة ونادى على شخص ما وطلب منه الترجل. ثم نظر لأبي عمر وسلمه البطاقة وقال له أن يستخرج بطاقة الرقم القومي الجديدة لأن بطاقته هذه لن تعود صالحة قريبًا. أومأ وهو يتناول البطاقة واستأنفت السيارة سيرها تاركة الراكب الذي طلب الأمن احتجازه. لم يسأل أحد لماذا، ولا الشخص نفسه. بعد عدة دقائق مر الميكروباص أمام دير أبو مقار، وبعدها بخمس دقائق طلب أبو عمر من السائق التوقف وخرج. عاد سيرًا على الأقدام نحو الدير، وبعد قليل كان عند الباب.

استقبله صديقه القديم أشرف – الذي صار اسمه بيشوي – بلطف وود شديدين. احتضنه عندما رآه وبدا أكبر بملابس الرهبان الغامقة الواسعة ولحيته الطويلة، لكنه لم يفقد بشاشة وجهه. احتضنه بيشوي طويلًا وشعر أبو عمر بأن صديقه القديم على وشك البكاء، فتململ بين ذراعيه حتى أفلته بيشوي. نظر الرجلان بعضهما لبعض وكأنما يقيسان ما انقضى من عمريهما. ظلا ممسكين بذراعي بعضهما بعضًا لفترة، ثم تنبه بيشوي لواجبات الضيافة وللرهبان الذين يمرون ويلقون عليهما نظرات استفهام.

– تعال أوريك حتنام فين. حط حاجتك وكل حاجة. أكيد تعبان من السفر.

أومأ أبو عمر بالإيجاب وسار خلف بيشوي في ردهات الدير وبين زروعه. الدير منسق بعناية؛ مزرعة زيتون تمتد خلف مبان صغيرة تتوسطها حدائق وزروع صغيرة. دروب الدير معبدة بحجارة

بيضاء، ومن وراء أسواره تبدو زرقة البحر ورمل أبيض يعكس أشعة الشمس. لا تسمع أصواتًا هنا سوى صوت الموج البعيد، ووقع أقدام الرهبان على حجارة دروب الدير، وأزيز الباب وهو ينفتح. تركه بيشوي يغتسل ويستريح، وأتى له ببعض الطعام، وبعدها مباشرة نام أبو عمر ولم يفق حتى الصباح.

الحياة في الدير بسيطة ومنظمة كخلية نحل. خلال الأيام الأولى لم يكن أبو عمر يفعل شيئًا سوى المشي والتريض وكثير من الجلوس والتأمل عند مزرعة الزيتون. يشعر بالألفة في هذا المكان الذي يشبه مضافة أبي حفص في تنظيمه وبساطته. تبادل هو وبيشوي بعض الحكايات دون إسهاب. لم يقل شيئًا عن أيامه في أفغانستان ولم يسأله بيشوي. لم يستعيدا أيام زمان ولم يتطرقا لما حدث بعدها. مجرد الاطمئنان على أنهما بخير الآن وكأنهما ناجيان من عاصفة لا يودان الحديث عنها، وبعض الترحيب والتعبير عن الأشواق والسؤال على الصحة. اهتم بيشوي كثيرًا براحته ولكنه تركه وحده معظم الوقت، وكان ذلك أفضل لأبي عمر. ذهب الماضي وانقضى، ولا يريد أيهما النبش فيه. هما الآن أبو عمر وبيشوي، ويطمئنان بعضهما لبعض لأن بينهما تاريخًا. بعد عدة أيام سأله بيشوي عن خططه وما إذا كان ينوي البقاء في الدير لفترة كي يرتب له أموره. قال أبو عمر إنه يود أن يبقى قليلًا؛ ربما شهر أو أكثر، وأبدى رغبته في مشاركة الرهبان في العمل كيلا يكون عالة على الدير، واتفقا أن يعمل في مزرعة الزيتون تحت إشراف بيشوي شخصيًا، وقد كان.

أنفق أبو عمر الشهور الثلاثة التالية في تنقية روحه والاستعداد للعمل. عوَّدته سنوات القتال الطويلة على التقشف، ووجد راحة

في حياة الدير، لا كهرباء ولا أشياء إلا ما كان ضروريًا. أصبح يكره الأشياء ويقلل منها ما استطاع لذلك سبيلا. يوزع وقته بين العمل في مزرعة الزيتون والتأمل والتدريبات البدنية. يخرج عند شروق الشمس بعد أن يتناول قطعة خبز وبعض الجبن القريش والزيتون، ويجري مسافة خمسة أميال على الشاطئ الخالي في ذلك الوقت من السنة، وبعدها يسبح في مياه البحر الباردة ثم يعود للدير ويغتسل وينظف غرفته ويبدأ العمل في أشجار الزيتون أو المعصرة. بعد العصر، يقضي عدة ساعات في تدريبات التأمل وتصفية الذهن ويشرب الكثير من الماء. يغفو قليلًا، وبعد المغرب بقليل يتناول عشاءً خفيفًا، معظمه حساء وبعض الخضراوات وأحيانًا قليل من السمك. يقضي بعض الوقت في العمل في المعصرة، ثم يخرج بعد العشاء للمشي مرة أخيرة ويعود بعدها لينام.

يلتقي يوميًا مع بيشوي في مزرعة الزيتون دون أن يتحدثا كثيرًا؛ بعض الكلمات حول شجرة الزيتون تلك أو هذه، أرض تحتاج للتقليب أو التسوية، عشب ضار يجب اقتلاعه، أو سماد على وشك الوصول يجب فرشه في الأرض، مصدات للريح تقام، أو تشحيم لماكينات المعصرة. بيشوي هو الذراع اليمنى لرئيس الدير الذي تفرغ للعبادة وترك له العناية بالأمور العملية للدير. وبيشوي نشيط وكثير الحركة، ينتقل من مكان لآخر في الدير حتى تخاله موجودًا في أكثر من مكان بنفس الوقت: يعتني بالزراعات، ثم يساعد رهبانًا في أعمال التنظيف، ثم يساعد في الطقوس الدينية، ويقابل زوارًا آتين للدير لسبب أو آخر، ويتفاوض حول صفقات بيع المحصول، ويعتني بالمكتبة ويرسل في شراء كتب جديدة سمع عنها لا تدري

أين أو متى، ثم يجلس منصتًا لدرس الأنبا رئيس الدير، وينهمك في مناقشات لاهوتية معقدة، ويقف في المطبخ ليساعد في إعداد الطعام البسيط الذي يتعشى به الرهبان؛ مائة شيء في وقت واحد، وكأنه يشغل نفسه عن نفسه. وأبو عمر يرقبه من بعيد دون أن يتحدث. يراه ويفكر في نفسه: «مهندس صواريخ يضيع زهرة سنوات عمره يطلي بيوت الفرنسيين ليغرق بعدها في بحيرة إفريقية، ومحام نابغ يفر من نفسه في الركض حول نفسه داخل مزرعة زيتون. ولكن أين الذي يرسلهم جميعًا للضياع؟ وماذا يفعل الآن يا ترى؟ هل يرى هؤلاء الشباب ويحاسب نفسه أم إنه سعيد بالفراغ الذي يخلقه من حوله؟». تعلم في دروس الفيزياء أن الطبيعة تكره الفراغ وأن المادة تملأ أي نقطة فراغ فور نشأتها. لا بد أن هذا القاتل قُدَّ من مادة عكس الطبيعة؛ مادة تفرز الفراغ. يجلس هناك في مكمنه وتسيل منه هذه المادة التي تلتهم كل شيء ولا تترك خلفها سوى موت وفراغ. مثل الثقب الأسود الذي يبتلع الكون تدريجيًا. يسرح ويفكر كيف فر من هذا القاتل وغطى جلده بمادة تشبه قاتله، وعاد إليه.

* * *

سار أبو عمر على روتين الدير الصارم لمدة ثلاثة أشهر، ثم قرر أن الوقت حان ليبدأ العمل. أخبر بيشوي بنيته الرحيل، فأومأ متفهمًا وكأنه ينتظر هذا القرار. وفي ذلك اليوم، وبينما كان أبو عمر يعمل في وسط أشجار الزيتون رأى هند القدسي واقفة تتحدث مع بيشوي. نظر إليها مبهوتًا، سعيد وخائف لرؤيتها في آن واحد. سعيد لعودتها لأنه يفتقدها داخله كما يفتقد الجسد يدًا بترت منه لكنه ينفيها من تفكيره طيلة الوقت. وخاف لأنها ما دامت قد وجدته فمعنى ذلك أن آخرين

يمكن أن يجدوه. عرفته على الفور رغم تبدل هيئته. أشاحت بوجهها عنه وواصلت الحديث إلى بيشوي. ظل يعمل بشكل آلي وسط أشجار الزيتون وهو يفكر فيما يجب عمله. وبينما هو منهمك في التفكير فوجئ بها أمامه. التفت حوله فلم يجد أحدًا سواهما.

– أنت بتعمل إيه هنا؟

– إنتي اللي بتعملي إيه هنا؟ ده دير للرهبان!

– يعني انت اللي كنت أنبا! أنا مش آخر مرة سايباك مع الجماعة التانيين؟ إيه، ١١ سبتمبر خلاك تدق صليب؟ وبرضه مزرعة ومتدينيين؟ هو انتماينفعش تبقى عادي كده زي البشر؟

– إيه يا ست انتي؟ مالك فيه إيه؟ إنتي على طول داخله شمال كده؟

– الحق عليَّ إني باسأل عليك.

– أيوه، قولي لي بأه بتسألي عليه تقولي إيه؟ ماحدش شاف النسر بتاع الطالبان؟ فهميني إنتي إزاي لقيتيني؟

– إهدى يا أخي المؤمن وصلي على النبي. أنا هنا باعمل تحقيق صحفي.

– وكالة الأنباء تشيكوسلوفاكية برضه؟

– آه والله. بص أنا حكايتي طويلة، وجيت هنا بالصدفة البحتة وفجأة لقيتك في وشي. والله ما ماشية وراك ولا كنت أعرف انت عايش ولا ميت. اسمع أنا مقيمة بالقاهرة، لما تنزل مصر كلمني. خد دي نمرة تليفوني. أنا لازم أمشي قبل ماحد يشوفني معاك.

في المساء نفسه غادر الدير. استقل ميكروباصًا في طريقه للإسكندرية، ومن هناك قفز في قطار العاشرة والربع مساء المتوجه للقاهرة. الشتاء قارس البرد، وشهر طوبة يودع المدينة في أيدي أمشير وأعاصيره. جلس في عربة الدرجة الثانية مرتديًا ملابس ثقيلة وطاقية صوف. لو طُلب منه أن يرسم نفسه لرسم نفسه هكذا: يرتدي ملابس شتوية ثقيلة، ساهم ومتجهم قليلًا، وبين محطتين. هكذا كان في الجامعة، وفي الجيش، وفي عربة الموت نصف النقل في أفغانستان أو على قمة جبل.

* * *

عندما وصل بين السرايات كان الحي نائمًا. بائع الفول ذهب، ومحل الكفتة مغلق، حتى المقهى أغلق أبوابه. تمامًا مثلما تركه منذ تسع سنوات. مرأى الشارع بعد كل هذه السنوات لم يثر فيه إحساسًا بالألم، أو بالشوق، أو بالفرحة، أو بأي شيء آخر. يسير في الشارع الذي يحفظه عن ظهر قلب، والذي سار فيه آخر مرة يوم أطلق القناصة النار على ابن خاله ظنًا أنه هو. يسير عائدًا لمنزله، دون حماسة أو أسى، مجرد خطوات في شارع ضيق مليء بالحفر الممتلئة بمياه المطر. وعقله يعمل بسرعة مفكرًا فيما سيفعله الآن في المهام الآتية وكيفية أدائها. سيذهب الآن لمنزل خالته ويطرق الباب حتى يوقظها، وستكون ليلة طويلة يقص فيها عليها وعلى بنت عمه ليلى إن كانت لا تزال هنا بعض القصص عن الأماكن التي كان بها. وفي الصباح سيخرج وسيلتقي بعضًا من أهل الحي، وبعد ذلك سيفعل هذا ثم يفعل ذاك. مهام صغيرة محددة. مجرد مهام.

وقد كان.

وصل بيت خالته ودلف من الباب الخشبي القديم. انخفض مدخل البيت عن مستوى الشارع أكثر. صعد السلم الضيق والقطط المذعورة تفر من حوله. نظر إليها أبو عمر وهو يفكر أن هذه ولا ريب قطط أخرى غير تلك التي تركها منذ تسع سنوات. وصل البيت ودق الباب برفق حتى سمع صوتًا. فتح الباب شاب لا يعرفه أبو عمر، لكن الشاب عرفه وابتسم وهتف:

- مش معقول! خالو رجع يا ماما!

كان هذا هو تامر، ابن ليلى الذي كبر وتغير كثيرًا في سنوات غياب فخر الدين. جاءت ليلى تركض. كبرت وترهلت لكن ملامح وجهها لم تتغير كثيرًا. وقفت ونظرت إلى القادم لثوان ثم شهقت وضربت صدرها بيدها وصرخت منادية خالتها قبل أن تأخذ فخر الدين في ذراعيها وهي تغمغم بكلمات غير مسموعة. استيقظت الخالة مذعورة - هي التي تعودت على مجيء الكوارث عبر هذا الباب - وخرجت للصالة. عرفته فور أن وقعت عيناها عليه وصرخت: «ابني حبيبي» وضمته بعنف ولمدة طويلة وهي تبكي في صمت. فخر الدين رفيق بأهله لكنه هادئ ورابط الجأش. أعدت له ليلى شايًا وبعض الطعام وجلس يقص على خالته وابنة عمه وابنها الذي صار رجلًا في منتصف العشرينيات أين كان خلال هذه السنوات. قال لهم إنه سافر من فرنسا إلى ليبيا حيث تقلبت به ظروف الحياة من العمل في مزارع للمواشي، إلى العمل في البناء، والزراعة، والصيد، مما مكنه من إرسال الأموال التي كان يرسلها لهم. أخبرهم أنه تزوج وأنجب ابنًا لكن زوجته

توفيت، وأنه ترك ابنه مع جدته حتى يرتب أموره في مصر ويرسل في طلبه، وغير ذلك من تفاصيل القصة التي أعدها مسبقًا. أدركت الخالة مريم أن هذه قصة ملفقة، ولكنها لم ترد أن تعرف شيئًا لا يريد البوح به، موقنة أن لديه أسبابًا وجيهة تدفعه لذلك. وبعد ساعات من الحكي، سألته عما ينتويه فقال إنه سيستقر معهما ويأخذ غرفة عيسى القديمة فوق السطح إن كانت ما زالت متاحة، فأجابته خالته أن الغرفة خالية منذ وفاة علي، وترحموا عليه وعلى عيسى. ثم أعادت الخالة السؤال وفهم فخر الدين ما تقصده وطمأنها بأنه ينوي البحث عن عمل ملائم بعيدًا عن المشاكل حتى يطمئن لاستقرار أموره ثم يرسل في طلب عمر ابنه ويعيش بقية أيامه بهدوء وسط أهله. أمنت خالته على حديثه في غير اقتناع، وقام الجميع قبيل الفجر بقليل للنوم.

في الصباح خرج فخر الدين لشراء الفول، فلم يجد عم عبده وإنما صبي في حوالي الخامسة عشرة ومن حوله اصطفت نسوة الحي بملاءاتهن السوداء وأطفال يمدون أيديهم بالأطباق البلاستيك. اشترى بعض الفول وذهب لشراء الجريدة فلم يجد إبراهيم الصايغ بل امرأة بدينة لم يرها من قبل. مر على دكان عم سيد الحلاق فوجده قد تحول إلى «كوافير» ولمح بالداخل شابين منمقي الشعر ومقاعد جديدة وديكورات مختلفة. عاد للمنزل يحمل الفول والجريدة، ولاحظ وهو داخل البيت أن نافذة عم سليمان في الدور الأرضي مغلقة بعرق من الخشب. سأل خالته عنهم فقالت له إن عم عبده وعم إبراهيم الصايغ وعم سليمان قد ماتوا بأمراض مختلفة خلال السنوات الأربعة الماضية، وأن ابن عم عبده هو الذي يقف بعربة الفول، وزوجة إبراهيم الصايغ الأخيرة هي التي استولت على النصبة

الخشبية بعد عراك مع أبناء زوجته الأولى، أما شقة عم سليمان فمغلقة بحكم المحكمة التي تنظر في النزاع بين ورثته وبين صاحبة البيت. تناولوا الإفطار، وخرج فخر الدين متوجهًا لمصلحة الأحوال المدنية.

ملأ فخر الدين الأوراق المطلوبة لاستخراج بطاقة الرقم القومي وهو يعلم جيدًا إلى أين سيؤدي ذلك. ملأ الأوراق ثم عاد للحي وجلس على المقهى. تعرف عليه صاحب المقهى العجوز وذكّره بالأيام الخوالي فرد فخر الدين مقتضبًا بأن هذه أيام وانقضت، وسأل صاحب المقهى إن كان يعرف أحدًا لديه سيارة تاكسي للبيع. تساءل صاحب المقهى مندهشًا عن السبب، وعندما قال له فخر الدين إنه يبحث عن عمل استغرب وسأله عن المحاماة. ابتسم فخر الدين ابتسامة مصطنعة وذكر صاحب المقهى بأنه فصل من جداول المحامين منذ أكثر من عشر سنوات، وأنه قضى السنوات الماضية يعمل أعمالًا يدوية في ليبيا ولم يعد يصلح أو يريد أن يكون محاميًا، وقص عليه ملخص القصة التي قصها بالأمس على خالته. وعده صاحب المقهى أن يسأل معارفه، لكن «خسارتك والله يا أستاذ فخر، ده انت كنت محامي برلنت». أومأ فخر الدين وقال إن كل شيء نصيب وإن التاكسي ربما يدر عليه ربحًا أوفر من المحاماة. ثم غادر المقهى وأخذ يتمشى. لم يكن هناك الكثير ممن يعرفونه بعد هذه السنوات، بعض كبار السن، وبعد أن يتأملوا وجهه لفترة. ذهب لشراء خط تليفون محمول، ثم قام بجولة على محلات السيارات وترك رقم تليفونه للجميع كي يتصلوا به إن وجدوا تاكسي للبيع، وعاد للمنزل.

أبدى تامر الكثير من الاهتمام بخاله الغامض الذي يسمع عنه منذ طفولته، الخالة مريم تدعو له، أو ليلى تطلب منه أن يذّكرها بشيء لتطلبه من الخال عن طريق الوسيط الذي يوصل المال لهم كل عدة أشهر، أو حديث عن كرم الخال وشهامته، أو ليلى تحثه على المذاكرة كي يكبر ويكون مثل الخال، وهكذا. وطيلة هذه السنوات وهو يتساءل عمن يكون هذا الخال حقيقة. وفي قرارة نفسه كان يتمنى أن يعود ويعيش معهم، فيعوض غياب الأب الذي لم يعرفه. لكن فخر الدين لم يعد، وظل تامر ينتظر حتى فقد الأمل، ثم وجده أمامه عند الباب. لكنه لا يعرف كيف ينفذ إلى خاله الذي لا يعرفه. يريد أن يجلس معه الآن ويقص عليه ما تعتمل به نفسه من أمل ويأس وغضب وحب معًا، وأن يبكي وأن يضحك ويقول له كل شيء. يريد، لو ترك لنفسه العنان، أن يلقي بنفسه بين ذراعيه ويطلب منه أن يتبناه، لكنه لن يفعل أيًا من هذا. لا يستطيع. عليه أن يحترم أن هذا الآتي من بعيد لا يكاد يعرفه ولا بد أن لديه ألف شيء آخر يشغل باله. عليه أن يكتفي بأن يحوم حوله، يكون قريبًا منه، وأن ينتظر حتى تتفتح القنوات بينهما شيئًا فشيئًا.

تحدثا عدة مرات، وجلسا معًا على المقهى عدة مرات، وشرح له تامر ما يفعله، تصميم مواقع على شبكة المعلومات. وجد فخر الدين ذلك غريبًا بعض الشيء. كيف يمكن لشاب أن يكتفي بهذا العمل؟ ما الذي يجتذبه فيه لهذه الدرجة؟ تامر يقضي معظم اليوم داخل غرفته أمام شاشة الكمبيوتر، يخرج منها ليأكل أو يشرب الشاي أو يقضي بعض الحاجيات، والباقي أمام الشاشة. حتى مكالماته التليفونية مع الفتاة التي يبدو أنه مرتبط بها يجريها على الكمبيوتر. لا يريد فخر الدين أن يجره

لأشياء لا يريدها، وبالقطع لا يريد أن يجره لأمور تعود عليه بالضرر وتنقل عدوى السياسة إلى الجيل الجديد من العائلة. قال لنفسه إنه طالما ليس هذا شيئًا جُبِلَ عليه تامر فلا مبرر لجره إليه. وكانت ليلى ترقب الوضع وتشعر بالاطمئنان لمنحى ابن عمها في التعامل مع ابنها.

هناك جانب آخر لهذا التعامل لا يقر به فخر الدين لنفسه. ليس حرصه على عدم إشراك تامر خوفًا على مستقبله وحسب، وإنما أيضًا نوع من الاستبعاد. لا يزال تامر في نظره رمزًا للخطيئة؛ خطيئة الأم التي اختارت أن تنسبه لأب آخر حرصًا على بضعة أفدنة. رمز الشرف المزيف الذي طرده عمه سليم من أجل إعلائه على الشرف الحقيقي الذي حاول فخر الدين الدفاع عنه. لا يعلم تامر من ذلك شيئًا: لكن ليلى تعلم، والخالة تعلم، وفخر الدين لا ينسى. وإن كان قد وافق على مجيء ليلى وابنها للعيش معهم منذ سنوات، فقد كان ذلك بدافع الشفقة عليها بعد أن استولى أخوها على الأرض والماكينة وحوَّل حياتها جحيمًا، واستجابة لطلب الخالة مريم. لكنه لم يغفر الخطيئة، ولم ينسها.

* * *

لم يتأخر المخبر في الظهور. مر على المنزل وسأل على فخر الدين فأخبرته ليلى أنه في المقهى. وجده بالفعل هناك وأخبره أنه مطلوب بمكتب أمن الدولة. تصنع فخر الدين الدهشة وتساءل بقلق زائف عن السبب، ورد المخبر دون اهتمام بأنه لا يعرف سوى أنه مطلوب الليلة في الثامنة. تعشى فخر الدين مبكرًا وشرب كوبين من الشاي استعدادًا لليلة طويلة، وتوجه إلى الدقي حيث يقع المكتب. يتذكر

المكان جيدًا. هنا اقتيد للتحقيق وهو في الثامنة عشرة حين خرج في مظاهرات الجامعة أول مرة، وهنا نكل به العقيد سمير أيامًا وليالِيَ، وهنا مات صديقه وزميله بالجامعة يحيى إبراهيم، وهنا ربما يكون علي قد قتل أيضًا.

على غير ما توقع، لم يستغرق الأمر طويلًا. وصل في تمام الثامنة، وبعد وصوله بربع ساعة فقط أدخله عسكري إلى الضابط. الضابط شاب، في أواخر العشرينيات، نحيف، ويرتدي ملابس مدنية أنيقة. أشار له فجلس وأكمل محادثته التليفونية التي بدا أنها مع زوجته أو أمه. سأل عن طفل وصحته وعما قاله الطبيب وأشياء من هذا القبيل، ثم أنهى المكالمة ببعض الحرج والتفت إلى فخر الدين.

– حمد لله على السلامة يا سيدي. إنت رجعت إزاي؟

– إزاي يعني إيه يا باشا؟

– إنت حاتستعبط ولا إيه؟

– لا والله يا باشا. أنا بس مش فاهم السؤال.

– اسمع ياله، أنا مش فايق لك. البلاوي اللي عندي مكفياني. حاتتكلم عدل ولا لأ؟

– حاتكلم يا باشا.

– إنت رجعت مصر منين وإزاي؟ ده مفيش أي منفذ سجل لك دخول!

– سلكاوي يا باشا.

- هو فيه سلك بينا وبين فرنسا وأنا معرفش؟

- العفو يا باشا، سلكاوي من ليبيا. أنا سبت فرنسا من ييجي خمستاشر سنة ورحت ليبيا واستقريت هناك. جواز السفر صلاحيته خلصت من زمان وفضلت قاعد في ليبيا كافي خيري شري وبعدين رجعت من هناك سلكاوي.

- وجواز السفر؟

- موجود.

- إنت عارف إن ده انتحال شخصية.

- أنا سليم. مفيش لا مؤاخذه حاجة تقول إني سافرت أصلًا. ومعايا بطاقة وماليش سوابق. بس أنا مش بتاع مشاكل وقلت لسعادتك من الآخر إيه اللي حصل.

- طيب وريني الجواز.

- طيب سعادتك إديني الأمان.

- هات الجواز ومش هاعملك حاجة.

- بص سعادتك أنا جبت الجواز معايا عشان أثبت حسن نيتي. بس لا مؤاخذه يعني لو فيه أقوال رسمية، فصاحب الجواز ده ابن خالتي، وهو مختفي من سنة ١٩٩٢ ومانعرفش هو حي ولا ميت. إن كان حد استعمل جواز سفره فدي حاجة ما تخصناش.

وأخرج جواز السفر القديم، وكان به ختم الخروج من فرنسا حينما غادرها، وختم دخول لليبيا صحيح وبتاريخ مطابق لقصته.

تعلم الجماعة أن الأجهزة الأمنية تتعاون بعضها مع بعض بكفاءة، وأنهم لو شكوا فيه لأرسلوا يتحققون من أصل بيانات الخروج والدخول في ليبيا. وكان هناك فعلًا دخول في السجلات الليبية باسم عيسى النجار في ذلك التاريخ. نظر الضابط بإمعان في جواز السفر ثم وضعه في درج مكتبه. سأله عما كان يفعل في ليبيا، فرد فخر الدين بالقصة التي أعدها. لم يكن الضابط ينصت باهتمام، بل ينظر في بعض الأوراق أمامه بينما يتحدث فخر الدين ثم قاطعه فجأة:

– اسمع. إنت حواديتك كتيرة. أنا مش فاهم هم كانوا مهتمين بيك قوي كده ليه!

– ولا أنا والله يا باشا.

– طيب. دلوقت بقى ناوي تعمل إيه؟ وإيه اللي رجعك؟ ناوي تشتغل لنا في الأزرق برضه ولا حاتعقل كده وتمشي بأدبك؟

– أنا بطلت الحاجات دي من زمان. بقول لسعادتك كنت باشتغل في مزارع مواشي وفي المعمار ومامشيتش إلا لما فنشوني. خلاص بقى حاجات زمان دي راح وقتها. أنا عايز آكل عيش.

– وحتاكل عيش منين؟

– تاكسي يا باشا. بس أنا عايز ترخيص تاكسي.

– ما شاء الله! ماتكونش عايز أمن الدولة يشتريلك التاكسي كمان؟

– لا يا باشا العفو. أنا بس عايز الإذن.

- أنا مش فاهم أصلًا الضابط اللي فتح لك الملف ده زمان كان مهتم بيك كده ليه؟ اسمع، أنا حاسيبك تروح، بس عيني حاتفضل عليك لغاية ما اتأكد إن كلامك سليم.

- سليم وشرفك يا باشا.

- مالكش دعوة بشرفي يا خويا. اسمع اللي بقولك عليه وبلاش لماضه. أنا حاتأكد من كلامك. بس لغاية ما ده يحصل ما تتحركش من هنا. لا حاتجيب تاكسي، ولا حاتطلع بطاقة، ولا تعمل جنس حاجة. تقعد كده في بيت خالتك جنب الست خالتك وبنتها لغاية ماقولك.

- طيب يا باشا دي أمور ممكن تطول.

- تطول تقصر هو كده. مش عاجبك شوف لك بلد تانية عيش فيها. مش انت برم وبتسافر سلكاوي؟ انت عارف عقوبة التزوير في أوراق رسمية إيه؟

- أنا ما زورتش حاجة يا باشا. سعادتك عارف إني محامي قديم وفاهم. لو لا مؤاخذة رحنا محكمة حاطلع براءة. وأنا مش عايز مشاكل. مش عايز غير اني آكل عيش وآخد بالي من أهلي.

- ماشي يا خويا. يبقى تقعد كده زي ما بقولك. وكل أسبوع تعدي عليَّ تديني التمام. قول لهم على الباب أنا جاي للنقيب أيمن؛ حايدخلوك على طول. وتفضل كده لغاية ماقولك. وخلي بالك، ماتروحش هنا ولا هنا، أنا عيني عليك. مفهوم؟

- مفهوم يا باشا.

ثم ضغط على زر بجواره فظهر عسكري يرتدي بدلة زرقاء تشبه ملابس عمال السكك الحديدية. أشار له برأسه فاقتاد فخر الدين حتى غادر المبنى. لم يستغرق الأمر كله أكثر من أربعين دقيقة. قضى الليلة بعدها يرتب غرفته الجديدة على السطح، ومر على خالته وليلى وقضى معهما بعض الوقت، وتناقشوا في أحوالهم المعيشية وأحوال الدنيا وما حدث في مصر في السنوات الأخيرة، وبعض أخبار العائلة البعيدة، ثم صعد لغرفته ونام.

* * *

في اليوم التالي قام بجولة للبحث عن سيارة تاكسي للبيع في بعض معارض السيارات في المنطقة، ثم ذهب للسينما، وجلس على المقهى بعض الوقت، ثم تمشى في الدقي وحتى ميدان التحرير، وعاد سيرًا على الأقدام لبين السرايات وقضى بقية النهار عند خالته. صحة الخالة مريم جيدة بالنسبة لعمرها الذي تجاوز الخامسة والسبعين. لكنها على الحافة؛ أيام تكون غير قادرة على الحركة، وأيام تكون بخير. سألها عن الأدوية التي تأخذها فاكتشف أنها تعطي نفسها خليطًا من أدوية وصفها لها أطباء متعددون في الماضي، ولا تتذكر بالضبط كنه أو سبب بعض الأدوية ولا الجرعة السليمة لها. تحدث مع ليلى في الأمر فاشتكت من نفور الخالة من الأطباء وعدم التزامها بتعليماتهم. سألها عما تعانيه بالضبط فقالت إنه مزيج من الضغط والسكر والأعصاب. لم يبد ذلك واضحًا أو دقيقًا بما يكفي. سأل الخالة عرضًا عن صحتها فقالت نحمد الله. سألها إن كانت تريد أن تراجع طبيبًا فدعت له بطول العمر وانتقلت للحديث عن ليلى. قالت له إن ليلى تجاوزت الأربعين وما زالت بلا زوج منذ تركها ذلك الذي

زوجها أبوها إياه، فهز رأسه دون أن يعقب. سألته عن عمر وأكدت عليه أن يذهب لإحضاره في أقرب وقت ممكن، مشيرة إلى أن ليلى يمكنها أن ترعاه خير رعاية. وأعادت الخالة التأكيد على ضرورة أن يكبر الولد بجوار أبيه، فهز رأسه مؤَمنًا وقال إن كل شيء بيد الله. ثم صعد لغرفته ونام.

* * *

في اليوم التالي قابل هند القدسي. اتصل بها من تليفون عام والتقيا في حديقة الحيوانات بالجيزة. جلسا متباعدين على أحد المقاعد الخشبية كأنهما ليسا سويًا. سألها كيف ومتى غادرت أفغانستان. أخبرته أنها رحلت مع بدء القصف الأمريكي، وأن القصف كان عنيفًا وشاملًا وكأنهم يريدون تسوية جبال أفغانستان بالأرض، فلم يبق مكان آمن ولا حتى المناطق التي يسيطر عليها التحالف الشمالي. أخبرته عن تفاصيل عملية اغتيال شاه مسعود وما تبعها من صراعات داخل التحالف الشمالي زادت الطين بلّه، وأن الوضع أصبح مثل مستشفى ممتلئ بمجانين يحملون أسلحة فتاكة وعازمون على القضاء بعضهم على بعض. قصّت عليه كيفية خروجها مع عدد من منظمات الغوث في حماية القوات الأمريكية وأنه بالرغم من ذلك فإن قافلتهم تعرضت لقصف الطائرات الأمريكية. ظلت في باكستان لمدة شهر ثم قررت المغادرة. ذهبت أولًا إلى دبي وعملت مراسلة بالقطعة ثم جاءت لمصر واستقرت في مصر الجديدة حيث عاشت مع أهلها في الماضي. سألها عن مصير الشيخ وحمزة فقالت إنه لا أحد يعلم شيئًا على وجه اليقين. سألته عن توقيت رحيله وما إذا كان لديه علم مسبق بما سيحدث فسخر من السؤال. أخبرها أنه عاد بعد

مقابلتها في بيشاور مباشرة، وكان بين السودان ومصر عندما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ولم يعلم بها إلا بعد وصوله لمصر، وأنه ينوي الاستقرار وتجنب العمل بالسياسة، فأومأت غير مقتنعة. حدثها قليلًا عن خالته مريم وليلى بنت عمه واحتياجهما للرعاية، وذكر لها لأول مرة أن لديه ابنًا من زوجته الراحلة يريد أن يرسل في طلبه حيث تركه مع معارف له بالسودان منذ فترة، وأنه يبحث عن تاكسي أو رخصة تاكسي ليبدأ العمل عليه. لم تصدق هند حرفًا واحدًا من هذا.

- انت مش ناوي بقى تقول لي انت بتعمل كده ليه؟

- كده إيه؟

- ليه كنت بتقتل الناس دي؟

- أنا قتلت حد يا ست انتي؟

- أنا باتكلم بجد.

- انتي ليه طول الوقت بتأكدي لي انك بتتكلمي بجد؟

- لأنك مش بتاخدني بجد أبدًا.

- وتفتكري ده له سبب؟

- يوه بأه يا فخر الدين بلاش رزالة. أرجوك كفاية ترزل عليه. في أفغانستان استحملت رزالتك وقلت منطقة صراعات. لكن دي مش منطقة صراعات حضرتك؛ إحنا هنا في حديقة الحيوان. دي منطقة حيوانات، وريحتها وحشه كمان وضاغطة على أعصابي ومن فضلك نبقى نتقابل من غيرهم بعد كده. بص أنا عارفة انك بتعمل الحاجات

دي، وشفتك بعيني وانت بتقتل الراجل اللي كان على الموتوسيكل ده في أفغانستان من غير حتى ما تنشن عليه زي بتوع الأفلام. فرأيي إنك تكون لطيف كده وتشركني معاك وتبطل رزالة. وفيه حاجات كتير ممكن أساعدك فيها.

- انتي عايزة تساعديني؟ تقتلي ناس برضه؟

- بجد أنا تعبت يا ربي من الناس اللي انت بتبعتها لي دي. ليه كده يا رب هو أنا عملت إيه بس عشان تفضل تحط الناس المتعبة دي في طريقي؟

- انتي بتكلمي مين يا ست انتي؟

- ربنا.

- فعلًا؟ طيب تحبي أسيبكم لوحدكم عشان تكلميه براحتك؟

- والله انت بتضحكني، وعشان كده باستحمل رزالتك. لأ، علشان أنا عارفة انك إنسان طيب والقتل ده يعني حاجة كده. بس أنا عايزاك تشرح لي بتموتهم ليه. أو بص؛ مش لازم تشرح لي. ممكن بس تشركني معاك؟

- حاضر، حاشركك معايا المرة الجاية، بس أنا إجازة اليومين دول.

- بص؛ كل ده تضييع وقت، في الآخر حاتشركني معاك. أنا فيَّ حاجة نورانية، واللي عايزاه بيحصل.

- أنا باقول نتقابل في العباسية المرة الجاية.

- خلاص خلاص، أنا ماشيه، بس خليك فاكر.

- حاضر. إن شاء الله أول ما يكون عندنا مناسبة قتل حانتصل بيكي.

لم يكن يمزح، فهو يعلم أنها قادرة على مساعدته، وإن كانت قد نجت من الطالبان واللبنانيين والإسرائيليين فلا بد وأن قدراتها عالية. وهو يحتاج لمساعدة يثق بها، وهو يثق بها. السؤال الذي يسأله لنفسه هو كيف يشركها معه دون مخاطر؟ قرر أن يجربها في مهام بسيطة في البداية ويرى كيف تسير الأمور. طلب منها التحري عن بعض الأشخاص، مدرس على المعاش بالمنصورة، نائب عام سابق، نقيب محامين سابق، وبعض الأفراد الذين يبحث عنهم ولا يعرف سوى أسمائهم والمدن التي تربوا فيها. وبدا له أنها سرت بطلبه واعتبرته بمثابة خطاب تعيينها في سلك القتلة.

* * *

بينما كان فخر الدين يتسكع في طرقات القاهرة وحواريها في انتظار قيام النقيب أيمن بالتحقق من صدق روايته، ويلتقي بهند من وقت لآخر في مقهى أو حديقة ويتحدثان خلسة ويتبادلان المعلومات، كان يدرس بهدوء أرض الميدان ويضع الخطط. وبناء على المعلومات التي وافته بها هند، بدأ عملية بحث دقيقة لتحديد أماكن أهدافه والتعرف على أنماط تحركهم بنفسه. طلب منها أن تعد وثائق هوية بأسماء مختلفة لنفسها، وبدأ التحرك. سافر متخفيًا إلى قريته في الدلتا، وإلى المنصورة، وإلى فايد والإسماعيلية والغردقة وكوم امبو، ودار في أحياء القاهرة شارعًا شارعًا مع سائقي

التاكسيات، يتعرف على المداخل والمخارج واختصارات الطرق والتي لا يعرفها غير هؤلاء الذين يقضون عمرهم يجوبون الشوارع حتى يصيروا جزءًا منها. وفي كل ذلك لم ينس مرة واحدة المرور على النقيب أيمن، الذي كان يلتقيه مرة ويصرفه مرة دون كثير كلام، حتى مرت ستة أسابيع والتقاه.

- خلاص يا سيدي، إفراج. حاسيبك في حالك مؤقتًا، بس تمشي بالأدب وتخليك حلو معايا. بكره تطلع على السجل المدني في العباسية تطلع الرقم القومي. تروح للضابط المناوب اللي هناك وتقوله انك من طرفي، هايسهل لك الأمور.

- تعيش يا باشا.

- أي خدمة يا خويا. بس تنسى موضوع السفر ده تمامًا. اوعى تحاول تطلع جواز سفر، وأي حركة كده ولا كده حاقطع رقبتك. مش انت عايز تقعد هنا وتاكل عيش؟ اقعد وكل عيش، ولو فكرت إنك تعدي سلكاوي حاجيبك ومحدش حايرحمك مني. أنا باسهل الأمور بس نابي أزرق.

- مفيش داعي يا أيمن باشا، لا أزرق ولا أحمر، أنا مش عايز أسافر أساسًا، أنا تعبت من السفر سيادتك. بس ولا مؤاخذه يعني رخصة التاكسي.

- ما لها؟

- مش حاتطلع لي واحدة؟

- انت بتستهبل ياله؟ أطلع لك واحده ده إيه؟ هو انا باشتغل عندك؟ ما تروح تشتري واحدة.

- دي بعشرة آلاف جنيه يا باشا!

- وانا مال أمي، قالوا لك اني مدير المرور؟

- يا باشا انت الكل في الكل، واهو برضه تبقى الإدارة لا مؤاخذة يعني عوضتني عن البهدلة اللي اتبهدلتها. اعتبره قرض اجتماعي، وانا مستعد أسدده خدمات توصيل للإدارة. اعتبرني سواق في أمن الدولة يا باشا. أي وقت تطلبني أوصل أي حد من طرف سعادتك، إن شالله المخبرين، واهو برضه أبقى في إيدك وتحت عينك.

وبعد أخذ ورد وافق النقيب على المساعدة، وأرسله لشخص في إدارة المرور بالجيزة استخرج له رخصة سيارة أجرة، وقال له الموظف الذي سلمه الترخيص إن واسطته كبيرة جدًّا ولا ريب، فهذه التراخيص موقوف صدورها منذ سنوات. استخرج أيضًا بطاقة الرقم القومي، واشترى سيارة ريجاتا جديدة ببعض المدخرات التي كونها خلال عمله في «ليبيا»، وركب فيها عداد الأجرة، وبدأ حياته الجديدة في بين السرايات كسائق تاكسي.

ترقب الخالة ذلك وتنتظر. تراقبه هند وتنتظر. الوحيدة التي لم تر شيئًا غريبًا في أي من هذا هي ليلى، التي كان لسانها لا يتوقف عن الشكر للخالة في أخلاق فخر الدين ومساندته لهم، ومقارنته بأخيها أحمد الذي استولى على الأرض والبيت وماكينة الطحين وحرمها من كل ذلك. والخالة تومئ وتدعو لها بالزيجة الصالحة والأولاد، وليلى تضحك وتسألها عن كيفية حدوث ذلك وهي فوق الأربعين ولديها ابن في الخامسة والعشرين يريد الزواج هو نفسه، والخالة تقول إن الله على كل شيء قدير، فتؤمِّن ليلى وتنصرف لعمل ما بالبيت.

كانت ليلى تميل لفخر الدين، دون شك، والخالة ترى ذلك وتفهمه. الحب، على الأقل وفقًا للخالة مريم، يمكن أن يحل محل عاطفة أخرى كالود الذي تخلقه القرابة، ويمكن أن يأتي نتيجة إكبارنا للشخص وإعجابنا بأعماله، فنراه في ضوء جديد ونقع في غرامه. قالت الخالة لنفسها إن الظروف تغيرت، واليوم لا يوجد ما هو أفضل ولا أعقل ولا أجمل من زواج ليلى وفخر الدين؛ يلمّان بعضهما بعضًا، تربي ابنه اليتيم ويساعد ابنها المعذب، تغطيه بعاطفتها الجياشة الحبيسة التي لم تجد منفذًا، ويغطيها بنبله ورجولته. لكنه لا يرى، وهي لا تريد أن تحدثه في الموضوع؛ تريده أن يرى ليلى بنفسه وأن يفهم وحده وأن يريدها. تحاول توجيه نظرته، شحذ فكره، لكنه لا يلتقط الخيط. وهي تعرف أن هذا ما يجول بخاطر ليلى، وليلى تعرف أن هذا ما يجول بخاطر خالتها، لكنهما لا يتحدثان عن هذا الموضوع. ينظران بعضهما لبعض حين تقترب السيرة من ذلك الأمر ويتنهدان وهما يفكران في نفس الوقت «يا لقلة بصيرة الرجال».

أما أهالي بين السرايات فقد تعودوا بعد شهور قليلة على وجوده الهادئ بينهم وعلى دوره الجديد كسائق تاكسي. في البداية قصده البعض ممن يذكرون سيرته الأولى وطلبوا منه المعونة في أمور قانونية فردهم بحزم، وقال إنه لم يعد يذكر من شئون القانون والمحاماة شيئًا ويخشى أن يقول شيئًا يضرهم، فينصرفون عندما يسمعون باحتمال أن يطالهم الضرر. لجأ البعض إليه طالبًا دروسًا لأولاده، فردهم بنفس الطريقة، مذكرًا إياهم بأنه ليس مدرسًا ولا يستطيع ممارسة مهنة بدون ترخيص وإلا جرّ ذلك عليه المشاكل، ومكررًا لكل من يريد أن يسمع أنه «لا يريد مشاكل». لكنه وافق أن يستذكر دروس حفيدي صاحبة البيت إكرامًا لها، وكأخ كبير ليس كمدرس، وهما ولد في

الإعدادية وبنت أصغر منه بسنة ماتت أمهما في ولادتها وتزوج أبوهما وتركهما في رعاية الجدة. يصعد الطفلان لبيت الخالة في الثامنة مساء ويستذكران دروسهما مع فخر الدين حتى التاسعة والنصف ثم يعودان لبيتهما. يحب فخر الدين هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر في اليوم، كأنه ينفصل عن عالمه الذي يعرفه ويعود طفلًا. يراجع معهما الجغرافيا والتاريخ والعلوم واللغة العربية وغيرها من المواد. وبرغم سخريته الداخلية من ضيق أفق المنهج الدراسي الذي يذاكره معهما، إلا أنه كان يثير فيه حنينًا لماض توارى بالكامل.

* * *

أعطى هند رقم تليفونه المحمول لتطلبه عندما تحتاج توصيلة، وطلب منها إعطاء الرقم لزملائها الصحفيين والمراسلين الذين يريدون سائقًا يعرف الأماكن ويريحهم من عناء البحث عن تاكسي. كما كان النقيب أيمن يرسله مع مخبرين يحتاجون للانتقال ولا توجد سيارات تكفي لنقلهم في المكتب، وأحيانًا يرسله لتوصيل أفراد من عائلته. ثم صار المخبرون يطلبونه مباشرة، وكان يتطوع بتوصيلهم وأسرهم دون مقابل، لكن أسرة النقيب أيمن كانوا دائمًا يدفعون أقل بكثير من الأجر الحقيقي، لكنهم يدفعون شيئًا. وفخر الدين سائق مثالي، مواعيده مضبوطة، مؤدب، صامت، يعرف الطرق وبارع في القيادة في اتزان ودون رعونة، يؤتمن على الكبار والصغار، ولا يعترض أبدًا على الأجرة. شيئًا فشيئًا صار السائق المفضل لعائلة النقيب أيمن وأصدقائهم وعائلات أصدقائه والمخبرين وغيرهم، إضافة للصحفيين والمراسلين الأجانب. وغريب كم المعلومات الذي يقوله الناس في التاكسيات.

أصبح يلتقي هند كثيرًا، لكنهما لم يستأنفا العلاقة الحميمية التي كانت بينهما في أفغانستان. لا يعرف تفسيرًا لذلك، لكن لا هو ولا هي أبديا رغبة في استعادة هذا الجانب من علاقتهما. كأن ذلك الأمر كان يخص شخصين آخرين أو حياة أخرى. لكنه يحب صحبتها لأنها تعرفه جيدًا، ولأنها شاهدت أسوأ أفعاله ولم يؤثر ذلك على محبتها له. يفهمان بعضهما بعضًا ويتفقان رغم فلسفتها وعدوانيتها أحيانًا. ويثق بها، رغم الظروف المريبة التي ترافقها دائمًا، ورغم جنونها البين.

يوصلها كثيرًا حتى صار أشبه بسائقها الخاص. في التاكسي تقص عليه الأخبار التي تأتي في طريقها، وهي كثيرة جدًا. يكفي فخر الدين أن يوصلها ثلاث مرات في الأسبوع ليعرف تقريبًا كل ما تتداوله الألسنة في القاهرة خلال الأسبوع، ولا حاجة به لقراءة الصحف. لكنه مع ذلك يقرأ الصحف، وبنهم. بدأ ذلك في الأسابيع التي قضاها ينتظر تصريح النقيب أيمن. قرأ الجرائد الموجودة أمامه، ثم ذهب إلى أرشيفات بعض الصحف والمكتبات العامة وقرأ الكثير من الصحف القديمة. كان يريد أن يعرف ما جرى في مصر خلال سنوات غيابه، ليس فقط الأخبار، ولكن الأشياء التي كان الناس يتحدثون فيها والموضوعات التي كانت تشغلهم. يقرأ صفحة الوفيات، والاجتماعيات، ويحاول أن يعرف من الذي تولى أي منصب، ومَنْ قريب مَنْ ومَنْ تزوج مَنْ. وهكذا نسج في ذهنه صورة للمجتمع منذ تركه، وشيئًا فشيئًا، ومن كل المصادر التي كان يستقي منها معلوماته، بدأت تتكون لديه فكرة لا بأس بها عما جرى في مصر وما يجري. وبدأ يتحرك نحو المرحلة الثانية من عمله.

* * *

فكر كثيرًا في كيفية بدء عمله، أيبدأ بأكثر الأشخاص استحقاقًا للقصاص أم بأشخاص أقل أهمية حتى يتمرن على العمل في هذه البيئة الجديدة؟ ومع تشوقه للبدء بأكثرهم استحقاقًا للعدالة، إلا أنه قرر اتخاذ جانب الحيطة والحذر والبدء بأشخاص أقل أهمية وأقل تعقيدًا كأهداف، وعقد العزم وانتوى، ثم بدأ.

سافر إلى قريته بالدلتا، وتسلل في هدوء الليل لبيت عمه. تسلق السلم في صمت للطابق العلوي الذي يعيش فيه عمه المقعد. وقف على السلم يسترق السمع. سمع أصواتًا في الطابق السفلي حيث يعيش أحمد ابن عمه وزوجته وأبناؤه، وتساءل في نفسه من يا ترى من الأبناء سيحمل لواء أبيه ويقضي على بقية الإخوة. ظل قابعًا بين الدورين ينتظر أن تهدأ الحركة بالبيت. بجواره نافذة تفضي لغرفة خزين وبرج الحمام ويمكنه التسلل منها إن جاء أحد. ظل هكذا قرابة الساعة حتى سكن البيت تمامًا. تقدم ناحية الباب ووضع بعض قطرات الزيت على المفصل الحديدي القديم، ثم فتحه بهدوء. دخل وأغلق الباب خلفه. شد الترباس الصغير ووقف داخل غرفة عمه. العم نائم في فراشه وصوت تنفسه مسموع. وقف في أقصى الغرفة حتى اعتادت عيناه الظلام ثم اقترب من فراش عمه ووقف فوقه يرقبه. راعه هزال جسده وضمور وجهه. ذلك الراقد يشبه عمه، كأنه شبحه أو صورة لجسده بعد مماته. شتان بين كوم العظم هذا وعمه الجبار الذي كان البيت يهتز لصوت تكة مفتاحه في قفل الباب. فتح عمه عينيه ثم أغلقهما دون أن يراه. هزه فخر الدين قليلًا حتى أفاق ونظر إليه:

– مين؟

- أنا فخر الدين.

- فخر الدين مين؟

- فخر الدين عيسى يا عم سليم.

- فخر؟ انت رجعت؟

غمغم فخر الدين بالإيجاب.

- انت كنت فين يابني؟

- كنت مسافر.

حمد لله على السلامة.

- ....

- أمال فين أمك؟

- أمي؟ أمي تعيش انت من زمان.

- والله؟ الله يرحمها. وأبوك فين؟

صمت فخر الدين وأخذ نفسًا عميقًا ونظر إلى عمه:

- بس كفايه كلام فارغ.

- كلام فارغ؟ مين اللي بيقول كلام فارغ؟ انت معاك حد؟

- أبويا مين وأمي مين؟ انت ناسي هم فين؟ انت ناسي انت عملت إيه؟

- أني؟ عملت إيه؟ هو أني عملت حاجة؟

أخذ فخر الدين نفسًا عميقًا. لم يتوقع ذلك.

- طيب. خليني أفكرك. مش فاكر أنا سبت البلد ليه؟ مش فاكر بنتك ليلى فين؟ وأحمد ابنك؟

- أحمد بره، تحت. إن كان يعني رجع من المكنة. هو انت بتسأل الأسئله دي كلها ليه؟

- وأنا سبت البلد ليه ياعمي؟

- مش... مش انت كنت عايز تسافر تتعلم في مصر؟ إيه يا بني، هو أني اللي حافكرك. مش انت اللي قلت تسافر تتعلم في الجامعة بعيد عن قرف الفلاحين؟

- أنا اللي قلت أسافر؟ أمال مين اللي ضربني عيار في رجلي وقال لي المرة دي في رجلك والجاية في راسك إن ماكنتش تسيب البلد دلوقت حالًا؟

- حد ضربك عيار؟ في البلد هنا؟ وماقلتليش ليه؟

- عشان انت اللي ضربتني العيار ياعمي.

- أني؟ ضربتك عيار؟ إيه الكلام ده؟ انت اتهبلت يا وله؟ أني حاضربك عيار! يا حرام يا ولاد، الجدع حصل له في مخه حاجة.

وهكذا، ظلا قرابة الساعة يتحدثان على هذا المنوال. في البداية شك فخر الدين أن عمه يراوغ ويتظاهر بالنسيان، لكن كلما أمعن في الحديث معه وزادت يقظة عمه تيقن أكثر أن الرجل قد نسي معظم الأشياء والأحداث واختلط عليه ما ظل يذكره. أحيانًا يتحدث

عن زوجته وكأنها لا تزال حية ويطلب منه أن يستدعيها ليسألها، وأحيانًا أخرى ينكر أن عنده بنت اسمها ليلى، وهكذا. في النهاية، زفر فخر الدين يأسًا. قال لعمه أن يسأل الله المغفرة عندما يلقاه، وعندما نظر إليه غير فاهم، وضع فخر الدين يده على فمه وأمسك ذراعيه النحيلتين بذراعه الأخرى وظل ممسكًا بالرجل وهو يتقلص في يديه شيئًا فشيئًا حتى خمدت أنفاسه. تركه جثة هامدة وعلى وجهه تعبير المفاجأة. تحقق من نبضه، ثم خرج من الغرفة والبيت والبلد مثلما دخل.

* * *

انتظر فخر الدين طويلًا على الطريق السريع قبل أن تتوقف له إحدى سيارات نصف النقل المسافرة. قفز في مقطورتها بعد أن حيا السائق والتحف ببطانية قديمة وجدها فيها. بعد ساعتين ترك السيارة وهبط عند مدخل المنصورة. تناول طعام الإفطار في مطعم صغير بميدان المحطة وشرب شايًا في القهوة المطلة على «السكة الجديدة». استغرب كم يبدو كل شيء صغيرًا مع الوقت. اشترى الجرائد من على ناصية السكة الجديدة وشرب كوبًا من عصير القصب - ولم يكن ذلك موسمه، ثم ذهب لشارع الثانوية. توقف قليلًا أمام مدرسته الثانوية القديمة وتذكر معاناته بها، ثم مضى. ذهب نحو منزل الأستاذ محمود حفيظ ناظر المدرسة الأسبق. أثناء تحرياته في الشهور الماضية علم أن ابن الناظر قد تزوج في منزل أبيه واضطر الأب للانتقال لشقة صغيرة عند المجزر الآلي حيث يعيش بمفرده منذ وفاة زوجته. جلس في مقهى صغير قريب من البيت

وأخذ يرقب المكان. تناول طعام الغداء وعند الثالثة كان الشارع قد سكت تمامًا. دخل بهدوء إلى المنزل وطرق جرس الباب في الدور الأرضي. لم يفتح أحد. دق الجرس مرة أخرى وثالثة حتى بدا شبح بطيء من خلف الباب. انفتحت شراعة زجاجية خلف قضبان من الحديد ولاح وجه الأستاذ محمود أو ما بقي منه:

- أيوه، مين؟

- أيوه يا أستاذ محمود. أنا واحد من تلاميذك القدام.

- تلاميذي؟ مين؟

- اسمي فخر الدين عيسى.

ران صمت بينما يفكر الرجل.

- فخر الدين، مش انت بتاع فضيحة الوزير؟

- أيوه أنا.

- أيوه يا بني أي خدمة؟

- أنا جاي أحاسب حضرتك.

-تحاسبني؟ على إيه خير؟

- على جرايمك يا أستاذ محمود. افتح الباب وماتبقاش جبان.

- الله الله الله، أما إنك قليل الأدب زي ما كنت. صحيح ديل الكلب عمره ما ينعدل.

- نعدله إن شاء الله.

ومد فخر الدين يده بسرعة في كالون الباب ففتحه بأداة رفيعة وحادة. دفع الباب ودخل وأغلق الباب خلفه ممسكًا بالأستاذ محمود.

- والله ما عندكش فكرة أنا سعيد قد إيه انك فاكرني. أنا لسه مخلص على واحد مش فاكر أي حاجة.

- إيه يا مجنون انت! اطلع بره قبل ما ألم عليك الشارع.

- مفيش داعي يا أستاذ محمود. انت راجل تربوي وعارف إن العنف مالوش فايدة. إهدى كده وخليك كويس. أنا بس عايزك تشرح لي حاجة. القهر اللي كنت بتمارسه علينا واحنا تلامذة، كنت ليه ممعن فيه كده؟ ليه كنت بتفتري؟ احنا كنا عملنا لك إيه عشان تحطم برائتنا بالشكل القاسي ده؟

- براءة إيه وأحطم إيه يا مجنون انت؟ امش اطلع بره.

وهم بالصراخ. عندها كمم فخر الدين فمه واقتاده إلى كرسي خشب وجده بالقرب من منضدة صغيرة. أجلسه وقيد يديه خلف ظهر الكرسي. ظل فخر الدين يسأله والرجل النحيل العصبي يرغي ويزبد في كمامته، وكلما هم فخر الدين بفك الكمامة ليعطيه الفرصة للحديث يبدأ في الصراخ فيكممه مرة أخرى. بعد حوالي ساعة، قال له فخر الدين إنه قد استنفد فرصته في الدفاع عن نفسه، وأخرج من جيبه قارورة طبية صغيرة وحقنة. كسر القارورة وسحب محتواها السام في الحقنة وحقن بها الرجل الذي يحاول التملص من وثاقه وكرسيه وكمامته. غرس الحقنة في ذراعه وأفرغ محتواها بسرعة، ووقف ممسكًا بذراع الرجل وهو يرقب عينيه تجحظان وحركته تزداد تشنجًا حتى خمدت. جس فخر الدين نبضه ثم فك وثاقه وكمامته. تركه متهالكًا في جلسته الميتة على مقعده وتأكد من أن جزأي القارورة المكسورة والحقنة معه، ثم غادر الشقة.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل. لو حث الخطى للحق بقطار الرابعة والنصف السريع. وقد كان. وصل القاهرة في السابعة، وأخذ التاكسي من حيث تركه في شارع التوفيقية وعاد لبين السرايات في الثامنة حيث موعد مراجعة دروس الطفلين. وجدهما جالسين أمام المنضدة عند خالته. مسح على رأس البنت الصغيرة وهو يسألها عن أحوال المدرسة. اغتسل في دقائق وهو يستمع لجملها غير المكتملة ويستحثها على إكمالها، ثم طلب من ليلى كوبًا من الشاي. جلس وأعطى كل طفل قطعة من الشيكولاتة التي اشتراها في محطة القطار، وبدأ يراجع معهما الدروس.

* * *

قضى اليوم التالي في قيادة التاكسي. استفتح اليوم بتوصيل سائح سويسري إلى المطار لا يعرف من أين حصل على رقمه. سأله من الذي أعطاه الرقم فقال له «آن، صديقتك الأمريكية». لم يكن له صديقة أمريكية أو يعرف واحدة تدعى آن. لكنه أومأ في مجاملة. أوصل السائح الذي دفع له بسخاء، ثم سأله إن كان في حاجة إلى «شريحة تليفون»، مردفًا أنه مغادر مصر بصورة نهائية ولا حاجة به لها، فشكره وأخذ الشريحة والرقم. توجه على الفور إلى أحد فروع شركة التليفون ليسأل إن كان يستطيع إجراء تعديلات في الخط، فقيل له إن التليفون مسجل باسم شخص أجنبي ولا يمكن إجراء معاملات في الخط دون حضوره. قال إنه سائق هذا الشخص وإن اسمه كذا وهو سويسري ويمكنهم مراجعة بياناته. راجع الموظف البيانات وقال له إنها صحيحة، لكن لا بد من حضور الشخص بنفسه.

خرج وهو يبتسم لنفسه. الآن أصبح عنده رقم هاتف مسجل باسم سويسري! ثم بدأ يجمع تليفونات المسافرين ويبدلها من وقت لآخر كي لا يمكن تتبعه.

* * *

لم يكن فخر الدين على اتصال بالجماعة التي بدأت تتقاطر على السودان مرة أخرى، لكنه أبلغ عبد الله حارسه القديم بمكانه وترك له رقم تليفونه السويسري للطوارئ. علم منه أن حمزة على قيد الحياة، وأنه فر من أفغانستان إلى اليمن وربما يعود للسودان قريبًا، لكنه لم يستطع معرفة مصير الشيخ بالتحديد. كان الشيخ قد ترك له مبلغًا كبيرًا من المال في عدة حسابات كانت المجموعة الاستثمارية تتعامل معها، وطلب منه عدم استخدام بعض من هذه الحسابات إلا في حالة الضرورة، وأراد فخر الدين أن يبلغ الشيخ أنه لا حاجة به لهذه المبالغ الإضافية.، لكن الرموز التي يستخدمانها في الحديث لم تسمح له بأن يفهم بوضوح أين ذهب الشيخ ولا ما إذا كان عبد الله على اتصال به، فقرر الاحتفاظ بهذه الأموال في حساباتها حتى يظهر الشيخ أو من ينوب عنه بعد هدوء العاصفة.

* * *

- أنا مش حاشتغل بقى؟

لم يبد اهتمامًا وواصل القيادة.

- أنا سبتك تروح المنصورة لوحدك. قلت لي وجودي حايثير الشبهات وقبلت. بس أنا زهقت انتظار.

أرسلها لتأتي له بمعلومات عن لبنى عبد الغفار وزوجها عبد الصمد. فعادت بعد عشرة أيام ببيانات تفصيلية عنهما؛ لبنى تعمل موظفة في أحد البنوك، وتحجبت بعد تخرجها من الجامعة مباشرة، اكتنزت وتقضي الكثير من الوقت في محاولات غير جادة لإنقاص وزنها، ولديها ثلاثة أطفال. زوجها عبد الصمد يساعد أبيه في إدارة مكتب دفن الموتى الذي يملكه. ذهب أولًا لرؤية عبد الصمد فوجده في حالة يرثى لها. تركه دون أن يحدثه وذهب للبنك وظل يتلكأ بين العملاء حتى لمح لبنى. لم يكد يتعرف عليها من فرط ما تغيرت. شعر بالأسى وخرج على الفور مقررًا الانتقال للهدف التالي. أتته هند بتحركات شوقي كامل زميله السابق بالجامعة؛ شوقي بلا عمل، يكثر من الشراب والتدخين والمخدرات، ويعيش في شقة صغيرة بشبرا الخيمة لا يكاد يغادرها. ذهب فخر الدين إلى العنوان وترك السيارة في مكان هادئ وتوجه إلى الشقة. ضغط زر الجرس ففتح له شوقي وهو نصف نائم. دخل بسرعة وأغلق الباب خلفه. فتح شوقي عينيه في دهشة لما تعرف على فخر الدين وابتسم ابتسامته الصفراء الهازئة. أخرج فخر الدين مسدسه ووضع طلقة صامتة بين عيني شوقي وتركه يسقط في دمه وغادر. لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق.

* * *

في اليوم التالي رحلت هند مع فخر الدين إلى أسوان. أبلغ أحد أصدقائه المخبرين أنه مسافر مع بعض السياح بالتاكسي كيلا «يقلق عليه» النقيب أيمن. استأجرا غرفتين في فندق كبير واحدة باسمه والثانية باسم أورورا سانشيز. نظر إليه موظف الاستقبال في ريبة فابتسم فخر الدين وقال له إنه سائق السائحة الإسبانية وسأله أين

يستأجرا سيارة. أشار لمكتب الإيجار ثم مال عليه وحذره من التسبب في فضائح فقال له فخر الدين ألا يقلق فهو سيقود سيارتها ليس إلا. استأجرت أوروورا السيارة وسلمت المفاتيح لفخر الدين وبدأت جولتها السياحية. قضيا أول يومين في اللف على المعالم السياحية بالمدينة، وفي اليوم الثالث توجها ناحية كوم امبو حيث تركها تتأمل نقوش المعبد وذهب لتناول طعام الغداء. اشترى كيسًا من حبوب «القرض» التي يعتقد سكان المنطقة أنه يشفي من الأمراض وقاد السيارة نحو قرية الضابط أحمد قائد سريته أيام الجيش. وجده جالسًا أمام بيته في الشمس. تعرف عليه ورحب به وسأله عن أحواله. طلب منه فخر الدين كوبًا من الماء فقام داخلًا منزله فدخل وراءه وبسرعة طوق عنقه بذراعه الأيسر وبيده اليمنى أخذ يحشو فم الضابط بكيس القرض حتى سده تمامًا. ظل ممسكًا بالرجل وهو يسد فمه وأنفه ويستمع لحشرجة أنفاسه الأخيرة حتى توقف جسمه عن الحركة. تركه يسقط على الأرض. أخرج الكيس من فمه وأفرغ محتواه في دورة المياه. تأكد من توقف النبض، وخرج.

على بعد عدة كيلو مترات يسكن قطة، وهو مجند سابق قضى عدة ليال بالسجن الحربي مع فخر الدين. كان قطة نائمًا عندما دخل فخر الدين الغرفة وصفق الباب خلفه ليوقظه. نزع الغطاء عنه بعنف وبرك فوقه. فتح قطة عينيه ليجد قبضة فخر الدين الفولاذية قد أطبقت على صدغيه ففتحت فمه عنوة. تدلى لسانه من فمه والذعر يفر من عينيه. بضربة واحدة أطاح سكين فخر الدين بلسانه المتدلي. استدار وأمسك بعضوه من منبته وقبل أن يفهم قطة ما يجري كان فخر الدين قد اجتث عضوه بالسكين وحشره في فم صاحبه. قفز فخر الدين

من فوق قطة وأغلق باب الغرفة من الخارج بالرتاج وترك المنزل هو يسمع صراخ قطة الهستيري يدوي من خلفه، وفي دقائق كان قد خرج من نطاق البلدة كلها.

سألت أورورا موظف الفندق عن أفضل الطرق للذهاب إلى الغردقة وطلبت منه أن يحجز لها وللسائق غرفتين في فندق معين هناك سمعت عنه من صديقة. قضت بقية اليوم تسترخي حول حمام السباحة. في صباح اليوم التالي قاد فخر الدين السيارة نحو الغردقة ووصلها بعد حوالي ست ساعات ونزلا بالفندق الذي حجز لهما فيه موظف الاستقبال. قضت بقية اليوم في الاسترخاء حول حمام السباحة ثم أخذها سائقها في جولة بالمدينة في المساء. في الصباح، أخذها في جولة أخيرة ثم حزمت حقائبها وأرسلتها مع الساعي إلى السيارة ونزلت لبهو الفندق تنتظر فخر الدين. حمل فخر الدين حقيبته بنفسه خارجًا من الغرفة. في الممر لمح حكمدار السجن الحربي القديم الذي يعمل في فريق نظافة الغرف. اقترب منه مسرعًا وحياه. رد التحية وهو يتفرس في وجهه:

- انت مش فاكرني؟

- باشبه على حضرتك.

- أنا فخر الدين عيسى، من شعبة العمليات.

- شعبة العمليات؟

- آه. شعبة العمليات. القيادة. السجن. إنت ناسي؟

تلعثم الحكمدار السابق وتلون وجهه.

- ياه، دي كانت أيام.

صمت في حرج.

- إيه؟ انت محرج؟

- لا أبدًا. ده كان جيش. مانت عارف. الواحد في الجيش غير في المدنية.

- طبعًا. بس انا معايا حاجة ليك من أيام الجيش.

هز رأسه غير فاهم فعاجله فخر الدين بضربة في أعلى حنجرته قضت عليه في التو. تركه ملقى على الأرض ونزل إلى البهو. اعتذر للمنادي الواقف عند الباب لتركه السيارة في الممنوع وأشار للسائحة الإسبانية التي يرافقها لتبرير ذلك، ومضى مبتعدًا بالسيارة.

ظل فخر الدين يقود في منحنيات طريق البحر الأحمر وهو يهز رأسه مستنكرًا حين تقطع عليه سيارة الطريق أو يسد سائق نقل بطيء المرور. ينظر في ساعته قلقًا. زاد من سرعة السيارة وسط احتجاجات هند:

- حاتموتنا!

- ما تخافيش، الأعمار بيد الله.

لا يريد أن يتأخر هذا المساء، فقد وعد الطفلين أن يراجع معهما دروسهما قبل امتحانات الغد. لم تكن درجاتهما في الامتحان السابق جيدة، ويريد أن يستذكر معهما دروسهما ويتأكد من حسن تحصيلهما للمواد هذه المرة.

* * *

عملية إثر عملية، توثقت رابطة العمل بينه وبين هند وزاد دورها تدريجيًا. أصبحت تستأجر أماكن وتعد وسائل انتقال وتزور الوثائق وغير ذلك من الأشياء التي تحبها. توهجت مع انغماسها في العمل وقلت شكواها، وانتظم التعاون بين الاثنين وتناغم. بعد عملية الغردقة أخبرها أنه سينتقل الآن لمرحلة أكثر تعقيدًا فرحبت بذلك.

قضى أسبوعين يعمل في منطقة وسط البلد ويراقب مقر الصحيفة التي يرأس تحريرها «سيد أبو الخير»، صديق الجامعة الذي وشى بالمجموعة كلها للأمن. من يومها زاد وزنه السياسي والفعلي حتى أصبح البوق الرسمي لأجهزة الأمن في عالم الصحافة، أو مثلما يسميه خصومه «البيتبول»، وهو نوع شرس من الكلاب إن أطلقه صاحبه على أحد افترسه. تطوعت هند بجمع المعلومات عنه، وبعد أسبوعين من المتابعة الدقيقة أصبح لديهما فكرة كافية عن تحركاته. الناس لا تلاحظ كم هي تكرارية في تحركاتها، نذهب لنفس الأماكن، من نفس الطريق، ونطلب نفس الطعام، ونخالط نفس الناس، ونكاد نتحرك في نفس الأوقات. سيد أبو الخير يتنقل في سيارة سوداء لا تتغير ومعه سيارة شرطة صغيرة للحماية حيث إنه تلقى تهديدات بالقتل من قبل، أو هكذا يزعم. استأجرت هند شقة صغيرة بعمارة تطل على مبنى الصحيفة باسم «هدى بركات» الموظفة التونسية ببنك أجنبي بوسط البلد، والتي يزورها زوجها من وقت لآخر ثم يعود لأعماله في تونس. تمترس فخر الدين في الشقة يرقب تحركات سيد أبو الخير وحراسته. وبعد أسبوعين نصب بندقيته وانتظر. دفعت هدى الإيجار في الصباح للسمسار وقالت له إنها مسافرة لمدة أسبوع.

عند الظهيرة، كان فخر الدين يجلس خلف نافذة مكمنه وبندقيته مصوبة نحو باب العمارة المجاورة. عند الثانية خرج سائق السيارة السوداء مهرولًا يحمل حقيبة سيده، وتأهبت سيارة الشرطة. انفتح الباب وخرج سيد أبو الخير بجسده المتضخم ونظارة الشمس السوداء. أصبحت النظارة في منتصف العدسة بالضبط عندما ضغط فخر الدين على الزناد. سقط سيد أبو الخير في مكانه وظل المحيطون به غير فاهمين لما حدث للحظات. جمع فخر الدين أدواته وحمل الحقيبة الصغيرة التي تحتوي بقية أغراضه البسيطة وغادر المكمن. في دقائق كان يقود سيارته الريجاتا في شوارع القاهرة بعيدًا عن زحام وسط البلد.

* * *

انقلبت الدنيا رأسًا على عقب. أخبرته هند بمدى غضب الأجهزة الأمنية لاغتيال رجلهم، وشكهم في وجود تنظيم كبير خلف العملية بسبب درجة إتقانها وغياب آثار خلف المنفذين. بعد عدة أيام كانت الجرائد تروج لنظرية مفادها أن جهة أجنبية قامت بالعملية. بعد عدة أيام أخرى استدعاه النقيب أيمن وسأله عن سيد أبو الخير:

– انتوا مش كنتوا مع بعض في الجامعة.

– أيوه يا باشا.

– طيب تعرف إيه عنه؟ شفته قريب؟

– شفته في التليفزيون يا باشا.

– وله، بلاش لف ودوران لحسن وديني أبهدلك.

- يا باشا لف ودوران إيه بس. ده راجل مشهور وكبير في البلد. كان معانا في الكلية بس لا مؤاخذه احنا كنا اتناشر ألف واحد في الدفعة. يعني سعادتك اضرب في أربعة. ستة وتلاتين ألف واحد كانوا زملاءه في الكلية.

- وبرضه ستة وتلاتين ألف كانوا بينظموا مظاهرات معاه يا برم؟ وستة وتلاتين ألف كانوا زملاؤه في المدينة الجامعية؟

- والله يا باشا انا ما شفتوش من يوم ما تخرجت غير في التليفزيون.

- اسمع ياله. لو سمعت أي حاجة ومابلغتنيش يومك مش حايعدي على خير. الموضوع ده مش هزار.

- يا باشا ده انا طول النهار مع المخبرين بتوع سعادتك. على العموم لو سمعت حاجة حابلغ سيادتك.

- يالا امشي انجر من هنا، وماتروحش بعيد.

* * *

دق جرس الهاتف وفخر الدين يقود التاكسي. نظر لشاشة الهاتف، ليلى. لم يرد. لا يحب أن يتحدث في الهاتف أثناء القيادة. معه زبون ذاهب إلى المطار. باق حوالي نصف ساعة؛ سيتصل بها عند ذلك. أوصل الزبون إلى المطار، ولكن شخص آخر قفز في السيارة وطلب منه أن يوصله لفندق في المهندسين، فأقله. قضى ساعة أخرى في الطريق، ثم اتصل بليلى. لم ترد. تابع العمل لمدة ساعة أخرى، بعدها اتصل بليلى وردت. كانت تبكي ولم يتبين ما تقوله، لكنه فهم أن خالته

أصابها مكروه ما وأنهم الآن في مستشفى الجامعة التخصصي. وضع فوطة صفراء على العداد وانطلق نحو المستشفى. الوقت ظهر والطرق مزدحمة. وصل بعد ساعة أخرى. رفض الحارس السماح له بدخول المستشفى بالتاكسي فقضى عشر دقائق أخرى يبحث عن مكان يترك فيه السيارة. دخل وسأل عن استقبال الحالات الطارئة فدلوه. المستشفى كبيرة. ظل يبحث فترة حتى تمكن من العثور على ليلى. تجلس على كرسي بلاستيك أزرق وتبكي في كفيها وطرحتها تغطي رأسها. وضع يده على كتفها وهو يسأل بجزع عما حدث. أجهشت بالبكاء على صدره وظل يربت عليها حتى بدأت تحكي بين دموعها. فهم من كلماتها أن الخالة خرجت لشراء بعض الحاجيات وفقدت وعيها في الطريق فحملها بعض الشباب في سيارة وطافوا بها الحي يسألون حتى استدلوا على البيت. وعند وصولهم لم يجدوا أحدًا فطرقوا الباب على الجارة التي استبقت الخالة عندها حتى عادت ليلى. أفاقت الخالة قبل عودة ليلى وشربت بعض الماء وكوب من الشاي، وبدا أنها بصحة جيدة. عادت ليلى ووجدتها لدى الجارة وقصا عليها القصة ثم صعدا للبيت. بعد حوالي الساعة بدأت الخالة في التشنج بشدة حتى ظنت ليلى أن روحها ستفارقها. نادت على جارتها التي حاولت تهدئة روع الخالة لكن نوبة التشنج كانت تأتي كل عدة دقائق فتكاد تقضي عليها. سارعت الجارة لاستدعاء طبيب يقطن بجوارهم فحصها ثم اتصل بصديق له بالمستشفى التخصصي وحجز لها مكان بالعناية المركزة وطلب سيارة إسعاف أتت وأخذتها.

ليلى تحكي وتبكي في وقت واحد، وكلما جاءت على وصف التشنجات التي أصابت الخالة غلبتها الدموع. كانا جالسين في

الاستقبال بقسم الطوارئ، وهناك حركة مستمرة من حولهما بين أطباء يسرعون من غرفة لأخرى، لمرضى ينقلون على أسرة، لأهالي مرضى يصرخون أو يتشاجرون مع ممرضة أو طبيب.

- هي حالتها إيه دلوقتي؟

- الدكتورة قالت لازم تفضل في العناية.

- فين الدكتورة دي؟

- اسمها الدكتورة شيماء. بتيجي وتروح في المكتب المنور ده.

ذهب فخر الدين إلى حيث أشارت فلم يجد أحدًا. الغرفة فارغة من الأثاث إلا مكتب معدني بسيط عليه مفرش وعلبة مناديل ورقية وبعض الأوراق المتناثرة، وأمامه كرسيان وفي نهاية الغرفة سرير للكشف وحاجز صغير لا يكاد يخفي نصفه. جلس على الكرسي ينتظر. بعد قليل دخل ممرض فسأله عن الدكتورة فأجاب أنها لا تعمل بالطوارئ وإنما بقسم الأعصاب. سأله كيف يجدها فقال له إنها ستأتي بعد قليل. خرج يبحث عنها. يسير في أروقة الطوارئ يسأل كل من يرتدي روبًا أبيض عن الدكتورة شيماء، والكل مشغول، يجري من مكان لآخر، يدفع مريضًا أو يبكي آخر. رجل وامرأة محجبة متعانقان يبكيان سويًا وفتاة في السادسة عشرة تربت عليهما. رجل يحمل ابنه الصغير ويسير على غير هدى من غرفة لأخرى بحثًا، وأهالٍ ضائعون وسط أوراق وشبابيك وموظفين. فجأة رأى سمراء طويلة في روب أبيض، شعرها متهدل حول وجهها في إهمال. ساهمة قليلًا وتنظر في ملف تتصفحه وهي تسير ثم ترتطم بأحد المارين فتنتبه وتعتذر، وتعاود الاستغراق في الملف. سأل ممرضًا مارًّا عن الدكتورة شيماء فأشار لهذه الرشيقة

الساهمة. سار نحوها. رفعت رأسها ونظرت ناحيته فتوقفت نظرتها عنده وظلت تنظر للحظة. انتبهت لعدم لياقة ذلك فارتبكت ونظرت في أوراقها مرة أخرى محاذرة ألا ترفع رأسها. اقترب منها وهي تشعر باقترابه دون أن تنظر وكأنها تختبئ منه. توقف أمامها وهمهم.

- دكتورة شيماء؟

رفعت رأسها إليه مستفسرة كأنها فوجئت بوجوده.

- أيوه.

- أنا عاوز أطمن على خالتي مريم. اللي جت من ساعتين في أزمة سكر أو صرع. قالوا لي حضرتك اللي بتشرفي على الحالة.

- هي أحسن دلوقت. حاتفضل شوية في العناية المركزة وبعدين نقلها عندنا لما حالتها تستقر.

- عندكم فين؟

نظرت إليه غير فاهمة، ثم قالت ببطء:

- عندنا! في قسم الأعصاب.

- هيه مش نوبة سكر؟

- يعني، بدأت سكر، لكن الظاهر إنها تحولت لحالة صرع.

- بس هيه عمر ما كان عندها صرع!

- ما هو ممكن يكون صرع «ميتابوليك». ده اللي هانحاول نتأكد منه. علشان كده ندهولي. إن شاء الله حاتكون كويسة. أنا عارفة إن الحالة شكلها يخض. بس زي ما قلت لمراة حضرتك الحالة أفضل من شكلها.

– مراتي؟ آه، ليلى، دي بنت خالتي. يعني إيه الخطوة الجاية؟

ابتسمت شيماء:

– هو حضرتك دكتور؟

– لأ.

– يبقى الخطوة الجاية ليك انك تروح. هي هاتفضل في العناية لغاية ما تستقر وبعدين ننقلها قسم الأعصاب لغاية ما نضبط الحالة. ممكن ترجع الصبح.

– طيب ممكن أبات؟

– مش عارفة. متهيألي مفيش داعي تضيع وقتك هنا لأن ماحدش بيدخل غرفة العناية.

– أنا مفيش ورايا حاجة. حاستنى في غرفة الانتظار. بس لو ممكن تقولي لهم يبلغوني بالتطورات لو فيه حاجة.

–حاضر يا سيدي. حاقول لمناوب العناية لو فيه حاجة يبلغك.

شكرها وانصرف. ظلت تتابعه بنظرها وهو يمضي حتى غاب في آخر الممر. عادت لأوراقها ثانية. شرح الموقف لليلى وطلب منها العودة للبيت. رفضت في البداية ثم استسلمت تحت الضغط. ذهب للاستراحة واتخذ لنفسه مقعدًا وجلس ينتظر. بعد حوالي ساعة جاءه ممرض وسأله إن كان هو الأستاذ فخر الدين فأجاب بالإيجاب. قال له إن الدكتورة شيماء تبلغه أن الوالدة بخير وأنه يمكنه أن يراها على ألا يحدث أي ضجة داخل غرفة العناية، فوعده بذلك. سار خلفه

حتى باب غرفة العناية حيث أعطاه الممرض غطاء للرأس والقدمين واليدين وروب وأدخله غرفة العناية المركزة. الغرفة فسيحة وبها خمسة أو ستة أسرة يرقد عليها مرضى غائبون عن الوعي ومثبتين بأسلاك وخراطيم من كل الاتجاهات. صمت مطبق لا يقطعه سوى صفير رتيب للأجهزة الطبية وصوت التكييف ومنقي الهواء. اثنان من الممرضين الشباب يعملون في صمت حول بعض المرضى. يثبتون أشياء ويأخذون عينات ويغيرون ضمادات. سار فخر الدين خلف الممرض حتى وصل لفراش خالته: لم يتعرف عليها في البداية من شدة نحولها ومن الأربطة والأغطية التي تخفيها. نائمة، أو هكذا بدت. أشار له الممرض أن يجلس على مقعد بجوارها ويلتزم الصمت. ثم همس له بأن يضغط زرًا بجوار الفراش عندما يريد المغادرة.

جلس بجوار خالته ينظر لملامحها الحزينة النائمة وهو يفكر كم هو غريب مرض الوالدين ومن في حكمهم. كأننا نأخذ وجودهم وصحتهم على أنها أمر مسلم به، ومهما تقدم بهم العمر وتدهورت صحتهم نظل ننظر لهم كما كانوا ونحن صغار. وكأن أعراض الشيخوخة أمر مؤقت، مثل الزكام، يأتي ونعرف أنه سيذهب. وإن لم يذهب فهو مجرد منغص، مجرد تقلص في قدرتهم. وعندما تقل حركتهم ويقل تركيزهم ويزدادون هزالًا، لا نرى في ذلك مقدمة لرحيلهم. أحيانًا نفكر في هذا الاحتمال بعقولنا، لكننا لا نشعر أنه شيء يمكن أن يحدث فعلًا. حتى يصابون بنوبة مثل هذه، وفجأة تباغتنا حقيقة أنهم راحلون؛ إن لم يكن هذه المرة فالمرة التي تليها. ونبكي بحرقة، وينكسر شيء فينا لا نعرف ما هو، ونكبر في العمر

فجأة. كأنهم يخلون لنا مكانًا كنا نتركه لهم. كأنهم يقولون لنا تعالوا، خذوا مكاننا، الآن صرتم أنتم الكبار، أما نحن فذاهبون. لعل هذا أكثر ما يصيبنا بالجزع؛ هذه الساقية التي لا تتوقف: ستأخذهم إلى أعلى، إلى أعلى أكثر، ثم تغيبهم وتسحبنا نحن مكانهم، ثم نتبعهم.

مرت الدكتورة شيماء من أمام الغرفة ونظرت للجالس بجوار خالته ثم ذهبت. بعد نصف ساعة عادت ودخلت إلى الغرفة وفحصت بيانات المريضة والأشرطة الورقية الخارجة من الأجهزة المربوطة بها. أومأت لفخر الدين مطمئنة وخرجت. ظل جالسًا ينظر لخالته وتعود إليه صور البيت القديم بالقرية والخالة وهي شابة، وهي تضحك، وهي تدلل، وهي تنهر، وهي تعد الطعام، وهي واجمة، وهي كل شيء. كيف يمكن أن تنتهي هذه الحياة التي سقتنا؟ كيف يمكن أن نجلس هنا بلا حول ولا قوة وننظر إليها وهي تذوي هكذا؟

بعد قرابة ساعة جاء الممرض وأشار إليه أن يتبعه فقام وخرج وراءه. قال له إن الدكتورة أمرت بنقلها من غرفة العناية إلى قسم عناية الأعصاب، وإنهم سينقلونها الآن. سأل إن كان هناك ما يجب فعله فقال له أن يذهب ويشتري بعض اللوازم الطبية غير الموجودة بالمستشفى الليلة وأعطاه بيانًا بها.

- وارجع على هنا؟

- لأ. ارجع على عناية الأعصاب.

- فين دي؟

- على الخط الأحمر.

ما هو الخط الأحمر؟ ذهب ناحية الريجاتا وبدأ رحلة البحث عن اللوازم الطبية المطلوبة في ليل القاهرة. وجد صيدلية في شارع الميرغني بمصر الجديدة لكن لم يكن لديها المطلوب وأوصوه بالذهاب لمكان آخر، ثم ثالث، ثم وصل إلى صيدلية صغيرة في أول شارع القصر العيني أشبه بمحل البقالة وجد فيها كل ما يحتاج، وعاد للمستشفى في حوالي الثالثة فجرًا. سأل عن عناية الأعصاب فقال له الحارس في كسل أن يأخذ الخط الأحمر. أعاد فخر الدين السؤال عن الخط الأحمر الذي يتحدث عنه الجميع، فقال له الحارس أن يأخذ أول شمال ويسير حتى يجد سلالم، وفوق السلم سيرى في الأرض عدة خطوط بألوان مختلفة، وعليه أن يتبع الخط الأحمر وهو سيأخذه إلى قسم الأعصاب. فعل ذلك، ووجد بالفعل بلاطات بألوان مختلفة تمتد في اتجاه مباني المستشفى المختلفة، وظل يتبع الخط الأحمر حتى وصل لقسم الأعصاب. الفجر على وشك البزوغ. استقبلته ممرضة وسألته عن اللوازم الطبية وأخذتها منه. زار خالته في غرفتها الجديدة واطمأن عليها. طلبت منه الممرضة بعض البيانات الإضافية وطمأنته أن كل شيء تحت السيطرة، وبدا أن ذلك هو الحال فعلًا. مضى عائدًا للمنزل ليطمئن ليلى على أن يعود في الصباح.

على مدى شهر ونصف ظل فخر الدين يتوجه للمستشفى في العصر ويظل هناك حتى قرابة منتصف الليل. ما زالت حالتها متقلبة، لكن طاقم المستشفى يتابعها بدقة وباستمرار. المستشفى ليس فاخرًا، لكنه يعمل بكفاءة أدهشت فخر الدين. الدكتورة شيماء تدير قسم الأعصاب باقتدار. تحاليل تتم في مواعيد، وأطباء يأتون من أقسام أخرى لإجراء فحوصات، وتنسيق بين الجميع في تقرير الدواء

ومتابعة الحالة وضبط التغذية. أيام وبدأت الخالة في الإفاقة لمدد أطول، لكن مستوى السكر كان يعاند الطب. تمر الخالة بحالات من الشكوى ومن اليأس. كثرة الأدوية وعبث الطب ومحاولات التعافي، الخجل من أكياس البول ومن احتياجها استدعاء الممرضة كي تعينها على الذهاب للحمام، الشكوى من رتابة الطعام وانعدام طعمه، الشكوى من ذهاب القوة ومن تسرب الحياة من بين أصابعها. لكنها سرعان ما تصادقت هي وطاقم التمريض. تستقبل فخر الدين كل يوم بقصص عنهم وعن حياتهم. علم فخر الدين أنهم جميعًا يعملون في أماكن أخرى إضافة للمستشفى، وأن بعضهم يدرس بجانب عمله. عرف من مخطوب لمن، ومن الذي يرسل نقودًا لعائلته في أي بلد، وهكذا. كما خصّت الخالة الدكتورة شيماء بالكثير من المديح؛ مهارتها ولطفها وجمالها واهتمامها بها. كانت الخالة مبهورة بهم جميعًا وبتفانيهم في عملهم رغم رواتبهم الضئيلة، وبإصرارهم على الحياة والبحث عن النور رغم ما يحيط بهم من تحديات. وفخر الدين يستمع إلى أحاديثها التي لا تنقطع عن هؤلاء الشباب، لكن ذهنه في مكان آخر؛ تعافي الخالة وشفائها، ثم عودتها للمنزل والاطمئنان على بقاء حالتها مستقرة، ثم العودة لعمله بعد ذلك.

* * *

قالت له هند إن النائب العام السابق الذي تستر على محاولة اغتياله وعلى مقتل عيسى ابن خاله مريض وطريح الفراش، فقرر أن يتحرك قبل أن يغيبه الموت. أبلغ ليلى أنه سيتأخر في زيارة الخالة هذا اليوم وطلب منها البقاء حتى المساء. كان الرجل قد اعتزل العمل الحكومي منذ زمن ويعيش في شقته بشارع طه حسين بالزمالك. حمل فخر الدين

ملفًا مليئًا بالأوراق وذهب لمنزل الرجل في الخامسة عصرًا بعد موعد انصراف الخادمة وأثناء قيلولة البواب. صعد للطابق الثالث وفتح الباب في هدوء ودخل. الشقة مظلمة. أثاثها فخم وقديم وكثير منه مغطى بملاءات بيضاء. دخل غرفة النوم ونظر لوجه الرجل المستغرق في النوم. فتح الشباك نصف فتحة وعلق الضلفتين بعضهما ببعض وأسدل الستارة الشفافة. هز النائم برفق حتى استيقظ. انزعج فور رؤية وجه الغريب في وجهه وتلعثم وهو يطرد النوم ويسأله عمن يكون.

– أنا فخر الدين عيسى.

– مين؟ وبتعمل إيه هنا؟

– حضرتك مش فاكرني؟ أنا بتاع قضية بين السرايات.

– مش فاكر يا بني، بس انت بتعمل إيه هنا ودخلت إزاي؟

– أنا جاي أحاسبك، جاي أعدل الميزان. مش انت اللي تواطأت مع الأمن وقفلت على التحقيق في الموضوع؟ مش انت – النائب العام المسئول عن العدالة – اللي تواطأت عليَّ وبعت حقي وخنت الأمانة؟

– إيه؟

– أنا جبت لك صورة من ملف القضية لو تحب تراجعها.

غمغم الرجل بصوت غير مسموع وهو يجلس في فراشه ويضع نظاراته. دفع فخر الدين إليه بالملف لكن الرجل لم يفتحه.

– أنا يا بني سبت الشغل من سنين.

- إيه يعني؛ جَريمتك سقطت بالتقادم؟

- لأ بس انا مش فاهم انت عايز إيه دلوقت؟

- عايزك تشرحلي عملت كده ليه؟

- أشرح لك إيه بس يا بني؟ انت مصحيني من النوم عشان تسألني عن حاجة فات عليها خمستاشر سنة؟

- أنا آسف على الإزعاج. بس يعني الموضوع ده مهم شوية بالنسبة لي. يعني باعتبار إنك قضيت على حياتي، لو ما يضايقش حضرتك تقوم تتنفض من نومك قبل ما أحط رصاصة في دماغك.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. عايز إيه بس يا بني؟

- قل لي تواطأت على ارتكاب الجرايم دي ليه؟

- يا بني اللي فات فات. هو انا حافتكر إيه ولا إيه؟ الواحد عدى عليه آلاف القضايا!

- هو كان فيه جرايم كتير كده اتسترت عليها؟

- يا بني مفيش داعي للكلام ده، ده أنا قد ابوك. وبعدين كل حاجة وليها ظروفها. إيه؟ انت لسه عندك ١٨ سنة وفاكر الدنيا أبيض وأسود؟

- أيوه في حالتك انت لازم تكون أبيض واسود. ده انت مفتاح العدالة. لما انت تبقى رمادي، تبقى الدنيا اسود للناس كلها.

- يعني كنت عايزني أعمل إيه؟

– كان ممكن تدافع عن الحق وتبقى إنسان شريف ومحترم. أو على الأقل تستقيل وما تشتركش في الجرايم دي.

– أو ترفض بقلبك، وهذا أضعف الإيمان.

– الكلام ده تقوله لما تقابل ربنا إن شاء الله. لكن هنا، مفيش حاجة اسمها تشترك في القتل بس مش بقلبك. يا فرحتي بقلبك.

– طيب والكلام ده لازمته إيه دلوقتي؟ انت جاي ليه؟ ده انا كلها كام يوم واودع الدنيا باللي فيها. عايزني اعمل إيه دلوقتي؟ أعتذر لك؟

– لأ. أنا مش بتاع اعتذارات. أنا جاي أحاسبك زي ما قلت لك. بس كنت عايز اتأكد إن مفيش عندك تفسير للي عملته.

– الحقيقة معنديش. سميه ضعف إنساني، أو أحيانًا السكينة بتكون سارقة الواحد.

– آهي السكينة دي جت على رقبتي أنا.

– أنا آسف.

– أسفك مرفوض. ده مش حق شخصي ده حق عام. انت ساهمت في تدمير جيل بأكمله، مجتمع بأكمله ساهمت في تحطيم قيمة الحق اللي مفروض تدافع عنه.

– أنا عارف ان أسفي مش حايفيدك في حاجة. بس برضه اللي بتعمله ده مش حايفيدك في حاجة.

– على الأقل أنا باعدل الميزان المعووج.

- انت لو ناوي تعمل كده يا بني يبقى لازم تموت ناس كتير قوي!

- ما تقلقش حضرتك. مع المثابرة إن شاء الله حاوصل. عندك أقوال تانية؟

- أقوال؟ يا بني انت فاكرنا في محكمة هنا. عيب اللي بتعمله ده.

وهنا أخرج فخر الدين سكينًا وغرسه بسرعة في صدر الرجل. حرك السكين قليلًا ليسمح للهواء بالتغلغل داخل القلب. انتفض الرجل وتشبث بيد فخر الدين، ثم خمدت نظرته تدريجيًا حتى أسلم الروح. انتظر فخر الدين لحظات ثم استل السكين من صدره. مسح قبضتيه من أثر يده وتأكد أنه لم يترك شيئًا على الفراش. أخذ ملفه، والسكين، وغطى الجثة، وخرج. سار في شارع طه حسين حتى وصل إلى التاكسي الذي تركه أمام مقهى بشارع ٢٦ يوليو. ركب، وتوجه إلى المستشفى ووصلها قبل السابعة مساءً. شكر ليلى وطلب منها الانصراف وحل محلها في رعاية الخالة المريضة.

* * *

اختصت الدكتورة شيماء الخالة مريم برعاية خاصة، وشيئًا فشيئًا بدأت تغير مواعيد مناوبتها حتى أصبحت دائمة التواجد في فترة بعد الظهر. حين يصل فخر الدين في العصر يسأل الممرضة عن حالة الخالة فتجيبه بأن الدكتورة ستأتي بعد قليل، وتبتسم. تصل الدكتورة وتتوجه لمكتبها، تغير ملابسها وتراجع مع الممرضة المسائل الخاصة بالقسم، ثم تبدأ دورتها على المرضى بالخالة مريم. تدخل الغرفة

وتبتسم لها وتحيي فخر الدين الذي يقف وينتحي جانبًا. تفحص بيانات وتحاليل اليوم وتأخذ نبض الخالة التي تغرقها بالأسئلة وبملاحظات حول أعراض لا قيمة لها. وشيماء تبتسم وترد بكلمات عابرة كي تشغلها بينما تواصل الفحص. تطيل شيماء الفحص أكثر من المعتاد، وتلاحظ الممرضة ذلك وتبتسم في سرها. قبيل انتهاء الفحص تشير شيماء إلى فخر الدين ليخرج. دقائق وتخرج شيماء وتشرح له باستفاضة تطور الحالة، والتحليلات الجديدة التي طلبتها، والتعديلات التي ستجريها في جرعات الدواء، وما تهدف لتحقيقه من وراء ذلك. يسألها كم من الوقت ستبقى خالته فتجيبه بتقديرات غير محددة. تتحدث شيماء معه بإسهاب وتسعى لإطالة المناقشة قدر الإمكان، وتشجعه على توجيه الأسئلة. أعطته رقم هاتفها المحمول وطلبت منه أن يتصل بها لو تدهورت حالة الخالة أو لمس تقصيرًا من جانب فريق التمريض. لكنه لم يتصل. ففريق التمريض يقوم بواجبه جيدًا، كما أنها تمر شخصيًا كل يوم على الخالة. من وقت لآخر تتطرق شيماء إلى موضوعات ذات استخدام مزدوج، كأن تسأله عن رأيه في المستشفى، أو عما إذا كان هناك في البيت أحد يمكنه أن يعتني بالخالة بعد خروجها، وأين يعيشون، وماذا يعمل وما إذا كان لديه الوقت أو القدرة لاستخدام ممرضة، وغير ذلك. لكنه ظل مقتضبًا في ردوده. سألته مباشرة عن صحة ما تقوله الممرضات من أنه أصلًا محام وكان يدرس بفرنسا قبل أن يعود ويعمل كسائق تاكسي، فأومأ ولمٍ يزد. فهمت أنه لا يريد الحديث أو الاقتراب أكثر فكفت عن المحاولة، واكتفت بشرح الوضع الصحي للخالة، وإن لم تكف عن أخذ مناوبة بعد الظهر كل يوم.

كان تامر يأتي مرتين أو ثلاث كل أسبوع ويقضي فترة بعد العصر مع خاله. يقضيان معظم الوقت في صالة الانتظار حيث إن ساعات الزيارة محدودة. وجد تامر في ذلك فرصة للاقتراب من خاله والتعرف عليه أكثر، لكن فخر الدين ظل قليل الكلام. يجلس معظم الوقت في صمت يرقب أهالي المرضى. في يوم تنتاب أهل مريض حالة من المرح، ثم يأخذون مريضهم ويرحلون. وفي يوم آخر تنتاب المكان حالة من الاضطراب وتنتشر الوجوه الباكية، ثم تجد أقارب أحد المرضى ينهون إجراءات ويسوون حسابات. «المستشفيات»، قال تامر، «بتخلي الواحد يفكر في الحياه بشكل مختلف». أومأ فخر الدين دون رد. لكن تامر لا يدع صمت خاله يوقفه. حدثه عن خطيبته، فسأله فخر الدين إن كان قد خطب بالفعل، فهو لم يسمع من ليلى عن هذا الأمر. ابتسم تامر وقال إنهما في حكم المخطوبين، ثم شرح الوضع بينه وبينها والتساؤلات التي يطرحانها على أنفسيهما، والقلق، والمستقبل، والمجتمع، والعائلات، وطبيعة العلاقات، ومصير الحب، وفخر الدين يستمع لذلك كله ويحاول أن يبدو مهتمًا حقيقة بما يقول، لكنه في أعماقه لم يكن حتى يسمع. يسرح بناظريه ويقول لنفسه إن شيئًا لم يتغير.

في الليل، يتسلل لغرفة خالته ويجلس بجوارها يستمع لتنفسها المنتظم. تفيق أحيانًا وتجده فتبتسم له أو تومئ ثم تعود للنوم، ويظل هو جالسًا. يؤدي واجباته كما ينبغي، لكن بلا قلب. لم يعد يشعر بشيء، لا وهو يضع رصاصة في رأس أحدهم ولا وهو يناول الدواء لخالته. ويسأل نفسه إن كان هذا هو التوحش؟ أم هي عودة للطبيعة الإنسانية المتوحشة بالسليقة؟ ينظر لخالته المريضة الراقدة بين

الحياة والموت ويتساءل كيف لم يعد يحب هذه المرأة التي هي أقرب ما عرفه للأم. يقلق عليها ويضطرب لما يهدد صحتها، لكن هذا ليس حبًا. يجب أن تظل الخالة موجودة، هذا هو الترتيب الطبيعي للأمور وهو يشعر بالقلق إن اهتز هذا الترتيب. لكنه ليس حبًا. في بعض الأحيان يشعر بالسأم من شكواها المستمرة وسلبيتها، ويكاد يكرهها لذلك. ثم يشعر أن هذا توحش غير مقبول، فيفرط في الاعتناء بها. يغير لها أكياس البول ويحملها في ليل المستشفى إلى الحمام ويساعدها وينظفها بيديه وهي نصف مستيقظة ونصف غائبة، لكن دون مشاعر.

* * *

أتت هند بالكثير من المعلومات عن نقيب المحامين السابق. ترك منصبه منذ زمن وأصبح محافظًا ثم وزيرًا، وعينت له حراسة خاصة أكثر تعقيدًا من حراسة الوزراء بسبب الخوف من انتقام ضحاياه. جمع فخر الدين أيضًا الكثير من المعلومات من خلال أحاديثه مع المخبرين والضباط وأسرهم، فعرف أين يقيم ومن الذي يتولى حراسته وكيف، وأين يقضي إجازاته الشتوية والصيفية، ومن أين يشتري الملابس وأي مدرسة تذهب إليها ابنته الوحيدة وغير ذلك من التفاصيل التي لا يمكن إخفاؤها في مجتمع صغير كمجتمع أقوياء القاهرة. أمام فخر الدين ثلاثة أماكن ليختار من بينها مسرح العملية، إما مكتبه أو منزله بالقاهرة، أو العين السخنة حيث يقضي أيام العطلات. كان اقتناصه في محل عمله شبه مستحيل، فمن المحتم أن يكشف الأمن الكثيف وجوده. أما اغتياله عند البيت فيعني أن أهله قد يكونون هناك، وسيرون الجثة والدماء وغير ذلك، وهي أمور يفضل

فخر الدين تلافيها. اختار فخر الدين الطريق لشاليه العين السخنة مكانًا للتنفيذ. وظل يدرس الموقع بعناية حتى وجد مكمنًا صخريًا يطل على الطريق، ويسبقه موقع آخر يمكن لهند أن ترقب الطريق منه كي تعطيه إشارة بأنهم آتون.

استغرق الإعداد لهذه العملية أربعة أشهر. تابع تحركات الهدف وجدول مواعيده وعاداته اليومية والأسبوعية، ولاحظ أن طقم الحراسة يغير من هذه العادات بسرعة وبشكل دائم، بحيث لا تكاد تعثر على نمط ثابت لتحركه. لكن بطول المتابعة، فهم فخر الدين نمط تحركاته وأكثر من ذلك فهم المنطق الذي يتبعه طقم الحراسة في تبديل هذه التحركات. كانوا يتبعون جدولًا ثابتًا يمتد على ثلاثة أسابيع يغيرون وفقًا له جدول تحركه وأماكن التحرك والطرق التي يسلكها، وبعد ثلاثة أسابيع يبدأون نفس الدورة من جديد لكن بالعكس. اختبر دقة فهمه لهذا الجدول وفي كل مرة وجد أنه مصيب في توقعه. فهم الجدول، فهم النمط، وأصبحت المسألة الآن مسألة وقت.

سيقتله يوم الجمعة في الأسبوع الثالث من الدورة. في هذا اليوم لن يكون في السيارة سواه عندما يتوجه من منزله في التاسعة صباحًا للعين السخنة. يخرج في التاسعة هذا اليوم، ليس في الثامنة والربع، ولا في السابعة والنصف، ولا في أي من التوقيتات الأخرى. يوم الجمعة الثالث في الدورة هو يوم التاسعة صباحًا، ويسلكون طريق صلاح سالم ثم طريق السويس وليس الطريق الدائري. هذا هو الجدول في الجمعة الثالثة. كان فخر الدين على صواب. وبينما كان واقفًا في مكمنه الصخري في التلال المطلة على طريق العين السخنة، شعر بنشوة عندما أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة والنصف وتلقى

رسالة قصيرة من هند على تليفونه السويسري تطلب منه المرور عليها خلال خمس دقائق. تلك هي الإشارة. بعد خمس دقائق بالضبط شاهد مقدمة موكب الوزير وهي تتقدم على الطريق. نظر فخر الدين لسيارته جيدًا في عدسة بندقيته. أحكم التصويب ثم ضغط على الزناد. انقلبت السيارة على الفور. نظر فخر الدين ثانية وصوب مرة أخرى على خزان الوقود فانفجرت السيارة بالكامل. وفي ثوان كان فخر الدين قد غادر المكان كله. لم يترك أثرًا، لا شيء يمكن أن يقود إليه أو إلى هند؛ لا بصمة ولا علامة ولا حتى ظرف رصاصة فارغ.

شعر براحة عميقة وهو يقود الريجاتا عائدًا لمنزله؛ أوشك أن يصفي حسابه بالكامل. قاد السيارة في صمت وهند تجلس في الخلف. الطريق ضيق بين التلال الصخرية وشاطئ البحر، ويلتوي بحدة من وقت لآخر ثم ينبسط. تنعكس أشعة الشمس على سطح المياه الممعنة الزرقة فتعشي عينيه أحيانًا. أنزل حاجز الشمس أمام عينيه وحاول التركيز على الطريق.

- قربنا نخلص؟

نظر إليها في المرآة مستفهمًا.

- قربنا ولا فاضل كتير؟

- لأ، تقريبًا خلاص. فاضل اتنين بس.

- خلي بالك العملية دي حاتقلب الدنيا.

- أكيد.

- واذا كانوا بيدوروا على مصدر العمليات دي قيراط، بعد النهارده حايدوروا أربعة وعشرين.

- أكيد.

- خلي بالك انت مش بعيد عن النار. وغلطة واحدةحاتقضي عليك.

- أكيد. بس لاحظي إن مفيش رابط بين العمليات دي. لغاية دلوقت العمليات اللي تلفت النظر تلاته: سيد أبو الخير والنائب العام السابق وعملية النهارده. ومفيش خيط بين الشخصيات دي يوصل ليه. وبعدين هم مركزين على الجماعات، وأنا ملفي مالوش علاقة بالجماعات. ثم إني تحت عينهم طول الوقت، وما أظنش حد يفكر إني باعمل حاجة ليها أهمية غير السواقة.

- مش أكيد؛ يمكن حد رصدك في أفغانستان أو السودان أو أي مصيبة من اللي كنت فيها.

- ما تخافيش. وبعدين انتي ناسية أهم حاجة تمنعهم من الوصول ليه.

- إيه بقى؟

- إنهم فاكرين نفسهم عارفين كل حاجة ومسيطرين على كل حاجة لدرجة تمنعهم من مراجعة أسس شغلهم وافتراضاتهم. وفي الآخر هم لا عارفين حاجة ولا مسيطرين على حاجة، وكل حاجة بتحصل من تحت عينهم واللي بيكتشفوه معظمه بالصدفة أو لأخطاء من الآخرين.

– وانت بقى اللي مابتعملش أخطاء؟

– مسيري أعمل، لكن على العموم مش فاضل كتير. وإن شاء الله ماعملش غلطة كبيرة قبل ما اخلص.

– طيب ممكن تشرح لي دلوقت انت بتقتل الناس دي ليه؟

– انتي بتقتليهم ليه؟

– أنا باتسلى، وباساعدك. لكن انت؟

– تقدري تعتبريني حاجة زي لجنة تنفيذ أحكام.

– وطبعًا انت كنت المحكمة برضه؟

– هند.. مفيش داعي للكلام الساذج.

– ساذج؟ احنا بنقتل ناس! احنا حضرتك لجنة قبض أرواح مش تنفيذ أحكام.

– مفيش داعي للتريقة. دي ناس ثابت ضلوعها في جرائم لا تغتفر. دي ناس مجرمة في كل السنن والشرائع. دي ناس خطفت العدالة وأساءت استخدامها وحرمت الناس منها. أنا باعدل الميزان، باطبق عليهم الأحكام اللي كان مفروض تصدر بحقهم لو فيه عدل.

– ولما تنفذ فيهم الأحكام بتاعتك دي حاترتاح؟

– أيوه.

– فعلًا؟ انت حاسس دلوقت انك ارتحت؟

– حاسس اني باعمل اللي عليّه، باوفي بوعدي لنفسي.

– ده إيه بالضبط. الكونت دي مونت كريستو؟ أنور وجدي في «أمير الانتقام»؟

– ده تسوية حساب، عدل للميزان. وبلاش هزار.

– ده كلام فارغ حضرتك. اللي بتعمله ده مالوش أي قيمة. حاتقتل مين تاني، اللواء سمير شخصيًا؟ ده طبعًا لو مالحقش وخلص عليك قبلها. طيب ده قيمته إيه؟ في نفس اليوم اللي حاتقتل فيه اللواء سمير حاييجي واحد تاني مكانه مايفرقش عنه حاجة، بدل اللواء سمير حايبقى اللواء منير. وبعدها النقيب أيمن اللطيف يكبر ويفهم اللعبة ويبقى اللواء أيمن اللي مش لطيف، وهكذا. حاتقتلهم كلهم؟ طيب والراجل سواق النقل اللي كسر علينا من شوية وكان حايموتنا؟ والسواق اللي كان ماشي على الشمال وطافي الأنوار، مش ده برضه بيهدد أرواح الناس؟ حاتمشي وراهم كلهم تموتهم؟ طيب واللي اداهم رخص، مش هو المسئول؟ ودول قطاعين بس من وزارة الداخلية، المرور وأمن الدولة. طيب والباقيين؟ إيه رأيك مثلًا في وزارة الصحة؟ عندك الرقابة على الأغذية والملوثات، مش دول بيتسببوا في وفاة العشرات؟ طيب وبتوع الري والنيل والترع وتلوث المياه؟ إيه يا فخر الدين، بذمتك أنا برضه اللي بهزر ولا انت؟

واصل قيادة السيارة وكان الظلام قد حل. التزما الصمت حتى وصلا القاهرة. أوصلها لمنزلها وعاد من فوره للبيت. كان اليوم جمعة وسيأتي الطفلان للمذاكرة في الخامسة مساء، فاختبارات نهاية العام قد اقتربت، وقد اتفق معهما فخر الدين على تكثيف دروسهما. وبالفعل، في الخامسة بالضبط أتيا وظل فخر الدين يراجع معهما دروس اللغة العربية حتى التاسعة مساء.

* * *

عرف من المخبرين أن هناك حالة استنفار في الجهاز وأن الإجازات قد ألغيت. وسمع زوجة النقيب أيمن تقول لأمها وهما في التاكسي إن زوجها يعود متأخرًا جدًا في الليل معظم الأيام وأحيانًا يبيت في المكتب وأنها زهقت من هذا الوضع. سألتها الأم إن كانت قد تأكدت من صدقه فأجابت بأن زوجات زملائه قالوا إن نفس الشيء يحدث مع أزواجهن، وإن هناك حالة طوارئ لأنهم يطاردون أعضاء التنظيم الذي قتل الوزير وشخصيات عامة قبله لم يعلن عنها. اقترحت عليها الأم الانتقال والإقامة معها حتى تنتهي حالة الطوارئ هذه، فغمغمت أنها ستسأل أيمن وترد عليها.

في اليوم التالي مر عليه أحد المخبرين وقال له أن يجهز نفسه في العاشرة مساء للخروج في حملة. سبق للمخبرين أن استخدموا تاكسي فخر الدين في إحضار بعض المطلوبين، وذلك حين تكون سيارات المكتب غير متاحة لهم. مر فخر الدين بالسيارة على منزل المخبر ونادى عليه. أرسلت له زوجته كوبًا من الشاي مع ابنتها الصغيرة وطلبت منه الانتظار حتى ينزل أبوها. بعد ربع ساعة نزل الأب وقال لفخر الدين أن يذهب للمكتب في شارع السبكي. هناك انضم لهما مخبر آخر شاب.

- على فين؟

- كرداسة.

انقبض قلبه. لم يذهب هناك منذ لجأ لمنزل حسين. قاد السيارة في هدوء. توجهوا لأحد المنازل في الشارع الرئيسي وطلبوا منه التوقف. الشارع مقفر بعد أن أغلقت المحال التجارية أبوابها ورحل

السياح. يتذكر فخر الدين المنطقة جيدًا. نزل مخبر ثم عاد بعد عشر دقائق وأعطى فخر الدين إرشادات جديدة. دخلوا حارة ضيقة ثم توقفوا أمام منزل صغير وهبط المخبران. بعد ربع ساعة عادا وهما يقتادان امرأة منقبة وطفلة. انقبض قلب فخر الدين أكثر. أدخلاهما في التاكسي وجلس المخبر العجوز بجوارهما في حين جلس المخبر الآخر في المقعد الأمامي. المرأة ترتجف وتمسك بالطفلة، ومن وقت لآخر تتشنج وتدخل في نوبات بكاء. الطفلة صامتة تتطلع عبر النافذة. أحيانًا يزجرها المخبر وأحيانًا يطمئنها بأنهما ستعودان قريبًا. أسرع فخر الدين حتى وصلوا للمكتب. راقبهم وهم يدخلون ثم نادى المخبر الشاب وسأله:

- مين دول؟

- وانا إيش عرفني؟ أهو كل يوم على الحال ده بقى لنا عشرة أيام. والله ما بالحق أروح.

- هو إيه الموضوع؟

- حملة كبيرة وبيلموا الناس. بيدوروا على التنظيم الجديد. واللي مش موجود بيظهر بعد شوية، بييجي يدور على أهله.

- طيب عايزين مني أنا حاجة دلوقتي؟

- لا امشي قبل ما تتدبس في مشوار الفجرية، ده احنا شغالين ٢٤ ساعة.

هذا ما لم يحسب فخر الدين حسابه. أعد عدته كي يضرب ضرباته ولا يستطيعون أن يمسكوا به، لكنه لم يفكر في أنهم سيمسكون

بآخرين. هذه هي الطريقة المعتادة وهو يعرفها، كان يجب أن يحسب حساب ذلك. سيؤذي أبرياء كثيرين، وهو يشعر الآن بمسئوليته عن جزء من دم هؤلاء. لا يعرفون من أين تأتيهم الضربات، ومن ثم سيسددون ضرباتهم الانتقامية والاحترازية في الأماكن التي يعرفونها: هنا، وفي الصعيد، وخارج مصر. شعر بالقلق، لكنه تجاهل قلقه ومضى.

* * *

تحسنت حالة الخالة مريم واستقرت في الأسبوع الخامس، وبحلول الأسبوع السادس أخبرتهم الدكتورة شيماء أن يستعدوا لعودتها للمنزل. شرحت لفخر الدين وليلى المطلوب بالضبط للعناية بها بالمنزل. أجرت شيماء تحاليل أخيرة ثم سمحت لها بالخروج على أن تعود للفحص كل أسبوع. شكراها وطلبا منها أن ترشح لهما طبيبًا أقرب لبين السرايات لأنهما يخشيان ألا تتحمل عناء الرحلة والانتظار كل أسبوع، فأعطتهما اسم ورقم تليفون زميل لها في الدقي. أنهى فخر الدين الإجراءات وجمعت ليلى حاجيات الخالة وتأهبا للرحيل. سلمت شيماء على فخر الدين وأبقت يدها في يده أطول قليلًا مما تستدعيه علاقة الطبيبة بأهل مريضتها، وقالت له أن يتصل بها لو غير رأيه وأراد إحضار خالته للمراجعة. شكرها بجدية ورحل ليأتي بالسيارة قرب باب الخروج.

* * *

قاد السيارة بينما أخذت هند تصور الشاطئ، ثم تركته عند قلعة قايتباي وطلبت منه العودة بعد ساعتين. ركن السيارة وسار في

اتجاه ميدان المنشية. بعد دقائق كان أمام البناية التي يقطن بها هشام الراسي، وهو ضابط تقاعد في أعقاب حرب الخليج. تسلق السلالم حتى الطابق الثالث ودق جرس الباب. فتح له العميد هشام، فوجئ لكن ليس تمامًا. ترك الباب مفتوحًا وعاد للداخل. دخل فخر الدين خلفه وأغلق الباب.

- إزيك يا ابني؟

- انت فاكرني؟

نظر إليه هشام وهو يتنهد نصف تنهيدة. أشار إليه:

- فاكرك؟ طبعًا فاكرك. اقعد. تشرب حاجة؟

- لا شكرًا.

- انت عملت إيه؟ في حياتك يعني. مبسوط؟ عملت اللي كان نفسك فيه؟

- لأ. البركة فيكم.

- البركة فيك انت كمان.

- ليه؟ هو أنا اللي حكمت عليَّ بالإعدام؟

- طبعًا.

- إزاي بقى إن شاء الله؟

- زي مانت، ما تغيرتش. والله كويس. على الأقل ما كانش كل ده في الفاضي.

- قول لي إزاي؟

- متوقع إيه لما تعصى الأوامر أثناء الحرب؟ فتحت لك أكثر من باب، لكن كأنك كنت عايزني أحكم عليك بالإعدام. ماكانش قدامي حل تاني. اترجيتك. قلت لك دي أصعب حاجة عليَّ، لكن انت كنت منشن إني أحكم عليك.

- أنا اللي كنت منشن على كده؟ ده مكانش قرارك انت؟

- مانا باقولك، مش لوحدي. انت شريك زيي زيك. كنت أعمل إيه ما اطبقش القانون؟ نعمل ثورة في حفر الباطن؟ نستقل بالوحدة ونعلن جمهورية فخر الدين؟

- وكمان فاكر الاسم؟

- فاكر كل حاجة. ده كان أسوأ يوم في حياتي. قلت لك يومها إني موافقك في الرأي، إننا كلنا تقريبًا موافقينك إن دي حرب مش بتاعتنا واننا كلنا مضطرين. لكن انت خدت الطريق السهل. أنا أقدر أعمل اللي أنا عايزه وانتوا اتصرفوا، أنا أقدر اتحدى العالم بس انتوا اتحملوا المسئولية.

- أنا اللي خدت الطريق السهل؟ وانت لما مشيت ورا القواعد رغم ظلمها، كنت بتاخد الطريق الصعب؟

- أيوه خدت الطريق الصعب. انت فاكر ده كان سهل عليه إني أدي أمر لجنودي يعدموا زميلهم؟ لعلمك، لما الصاروخ ضرب القاعدة يوم التنفيذ فرحت. أول مرة قائد يفرح لما وحدته تنضرب! قطّعت محضر المحكمة وقفلت على الموضوع ولا كأنه حصل. لو

رحت السجلات العسكرية مش حتلاقي أثر للقصة دي، وإلا كان زمانك مسجل وفيات أو مطلوب القبض عليك. قلت السجلات اتدمرت في القصف. بس ما قدرتش ارجع الجيش. ما قدرتش ارجع ابقى ضابط. واديني هنا، طلعت من الخدمة وجيت هنا. بادير شركة سياحة. والله كان حقي اسميها شركة فخر الدين.

– معرفتش ترجع ضابط تاني ليه إن شاء الله؟ مانت كنت ماشي حسب التعليمات تمام.

– إحنا ليه بنعيد المناقشة اللي اتناقشناها من سبعتاشر سنة؟

– حبيت أوفر لك فرصة للدفاع عن نفسك زي مانت وفرت لي فرصة زمان.

– متهيألي انك أصدرت حكمك من قبل ماتيجي!

– وانت ماكنتش أصدرت حكمك قبل المحاكمة؟ انت فرضت عليه أختار بين الموت في حرب رافضها، أو الموت على إيديك. ساعتها القدر اللي أنقذني، مش انت. يا سيادة العميد انت قاتل، مهما ندمت بعد ذلك. وأنا اللي دفعت حياتي ثمن جريمتك، مش انت. دلوقت أنا عندي القوه اللي تخليني أقف قصادك وقصاد الدولة اللي وراك. أخيرًا جه اليوم اللي أعدل فيه الميزان.

– خساره يا فخر الدين. كان عندي أمل تكون نفدت، لكن واضح انك رحت ضحية اللي حصل. أنا قلت اللي عندي. اتفضل، اعمل اللي انت جاي تعمله.

رفع مسدسه المزود بكاتم الصوت ووجهه لرأس العميد المتقاعد. نظر إليه هشام وقرأ الشهادتين في هدوء. فك فخر الدين صمام الأمان ووضع إصبعه على الزناد وضغط عليه.

* * *

لم تكن ليلى تقول كلامًا عابرًا عندما أعلنت نيتها إنشاء مركز في الحي لمساعدة كبار السن على تفادي ما حدث للخالة. قالت ذات صباح لفخر الدين إنها ناقشت الفكرة مع تامر ومع الدكتورة شيماء وتوصلت لصيغة عملية ومفيدة. نظر إليها فخر الدين غير فاهم فاسترسلت في الشرح.

- كل اللي هاعمله اني أسجل أسماء سكان الحي اللي عندهم سكر أو ضغط أو أمراض مزمنة تستدعي متابعة. واسجل قدام كل واحد منهم النظام الغذائي اللي الدكتور قال له يمشي عليه والأدوية اللي مفروض ياخدها، واتأكد كل فترة من انتظامه في السير على البرنامج بتاعه.

- مش الحكاية دي محتاجة ممرضين وأطباء؟

- أنا مش حافتي في حاجة طبية، مش حاصرف لحد دوا. أنا حاخللي روشتة كل واحد عندي وبيان نظامه الغذائي ومواعيد أدويته ومواعيد الفحوصات وأفكّر كل واحد في مواعيده واللي محتاج زقة أديله زقة.

- وحاتفتكري كل ده إزاي؟ مش خايفة تتلخبطي؟ دي مسئولية.

- تامر حايعمل لي برنامج يحط فيه كل البيانات دي ويفكرني كل يوم بالمطلوب يومها. والدكتورة شيماء عجبتها الفكرة وقالت إنها ممكن تمر عليَّ مرة في الأسبوع تراجع الوضع، وممكن ابعت لها الحالات اللي معندهاش دكتور.

- إن شاء الله كلكم حاتروحوا السجن.

- ناقص حاجة واحدة بس، شراء وتجهيز الأدوية لكل واحد. ودي بأه مهمتك ياحلو، عشان برضه تيجي السجن معانا.

- أنا؟

- أيوه، وانت بتجيب الدوا لخالتي أول كل شهر، تجيب الباقي. أنا اتفقت مع الصيدلية وهايعملو لنا تخفيض ١٠٪. بس انت تسيطر على العملية وإيصالات الأدوية وكده لأني مش شاطرة في المسائل المالية.

- لا شكرًا، أنا مش فاضي للأعمال الخيرية بتاعتك دي. خللي ابنك تامر يعملها.

نفذت ابنة عمه خطتها، وتغلبت شيئًا فشيئًا على العقبات التي تواجه أي فكرة حتى استقرت الأمور. لم تكن ليلى تعمل، ووجدت في ذلك نشاطًا مفيدًا تقضي فيه وقتها وطاقتها، كما وجدت في مساعدتها لكبار السن بالحي نوعًا من الوفاء والرعاية لخالتها، وكأنهم جميعًا جزء من شيء واحد. هؤلاء الكبار الذين لم يعودوا يستطيعون رعاية أنفسهم ويحتاجون ليد عفية وعقل يقظ. أعجب الموضوع تامر، وصمم البرنامج الذي وعد به أمه وصار يطور ويحسن فيه

أسبوع بعد أسبوع، ثم نشر الفكرة ونقلها لأصدقائه الملتصقين بشاشات الحواسيب علّ أحدهم ينفذ مثلها حيث يكون. كما أصبحت شيماء تتردد على الحي مرة في الأسبوع. لكن فخر الدين كان غائبًا دائمًا حين تأتي. ورغم عدم حماسه البين للموضوع إلا أنه التزم كعادته بواجباته، وأصبح يذهب في أول كل شهر إلى صيدليته المفضلة بشارع القصر العيني - حيث نجح في التفاوض على نسبة خصم أكبر - ويشتري الأدوية الخاصة بكل المتعاملين مع مشروع ليلى ويقضي اليوم في تعبئة هذه الأدوية في أكياس صغيرة بألوان مختلفة للصباح أو المساء أو قبل الأكل أو بعده.

* * *

كانت هند على حق. لم يجد فخر الدين راحة في تسوية حسابه مع الذين خانوه والذين باعوه والذين أرادوا قتله والذين قتلوا أحباءه. كلما قضى على واحد منهم شعر ببعض الرضا، شعر بأنه أدى بعض واجبه وبأنه يسترد رجولته، لكن هذا الرضا لا يدوم. في نفس اليوم، يخرج بسيارته ويجوب شوارع القاهرة فيواجه مواقف جديدة تعيده حيث كان. ثم يتصل به المخبرون ويأخذونه في زيارة يجلبون بها المزيد من الضحايا، ويرتعد من احتمال كون الضحية شخصًا يعرفه. ثم يسأل نفسه عن الفارق بين من يعرفهم وبين هؤلاء المجهولين الذين يقودهم لهلاكهم؟

شعر بالحاجة لبعض الراحة والتأمل والتفكير، فاتصل بصديقه القديم بيشوي واستأذنه في الزيارة. أبلغ صديقه المخبر أنه راحل مع جماعة سياح إلى الإسكندرية لبضعة أيام كي يبلغ النقيب أيمن

إن سأل عليه، وذهب. التقاه بيشوي وأسكنه في غرفته القديمة وعاد فخر الدين لنفس الروتين الذي كان له. يغرق نفسه في أعمال الدير وكأنه يفر من نفسه، وبيشوي يرقبه. ثم سأله عما به وعن سر القلق العميق الذي يأكله طيلة الوقت. قال فخر الدين إنه أصبح مثل رجل كان يحلم طيلة عمره بشيء ما، وكلما اقترب من تحقيقه كلما فر منه الرضا. نظر لصاحبه واعترف له أنه لم يعد يعرف ماذا يفعل ببقية حياته. سأله بيشوي كيف يمكن له ألا يعرف ماذا يفعل ببقية أيامه وهو لم يتجاوز الأربعين إلا قليلًا. ذكره بأن النبوة لم تأت الرسول إلا بعد بلوغه الأربعين، أي أنه في حقيقة الأمر في بداية حياته، فلماذا يشعر بأنه قد انتهى منها؟ تحدثا كثيرا، وفتح فخر الدين قلبه لصديقه القديم دون أن يبوح بتفاصيل الأمر، سائلًا إياه عن طريق الخلاص وسلام الروح. شرح بيشوي له كيف وجد سلامه في خدمة الرب من خلال خدمة البشر، وفي التأمل ورعاية نعم الله الصغيرة والكبيرة، في الجمال، وفي صفاء الروح. تحدث بيشوي كثيرًا، لكنه أدرك في منتصف الحديث أن فخر الدين قد شرد منه، فابتسم له ودعاه لأخذ قسط من الراحة لعل ذلك يساعد ذهنه على الصفاء.

لم تساعده الراحة ولا التأمل ولا الإقامة في الدير. وبعد أسبوع شكر بيشوي وعاد للقاهرة. لا، ليس نادمًا على أي شيء فعل. ليس نادمًا على الرقاب التي حزها ولا الأعضاء التي بترها ولا القلوب التي انتزعها. لقد فعل ما كان عليه أن يفعل. لكنه بعد أن قضى هذه السنوات في الاستعداد لتسوية حسابه ممن آذوه، وحين أوشك على أن ينتهي من هذه التسوية، أدرك أنه لن يتبقى له شيئًا يفعله بعد ذلك. باقٍ هدف واحد، وبعده سيغادر المائدة، لكن لا يعرف بعد

إلى أين. بعد أن يسوي حسابه تمامًا ويعدل الميزان، سيواجه نفس المشكلات التي واجهها وهو في العشرينيات. لم يتغير شيء، ولا يظن أن باستطاعته تغيير شيء. هذا هو ما فهمه بعد كل هذه السنوات؛ لا الكلمات ستغير ولا الطلقات. غاية ما تستطيع الكلمات أن تفعله هو أن تجعل حياتنا أجمل قليلًا، وأكثر إنسانية. وغاية ما تستطيع الطلقات أن تفعله هو حماية ضعيف مرة، أو تنفيذ حكم في فار من العدالة، أو تسوية حساب قديم، ولا شيء أكثر.

لم يبق سوى اللواء سمير، وهو ليس هدفًا سهلًا. فبعد نجاحه في اختراق التنظيمات والجماعات الطلابية على أنواعها وتحطيمها، وفرض سيطرة كاملة للأمن على الحياة الجامعية، ترقى في المناصب الأمنية وأحرز فيها كلها نجاحات باهرة، حتى صار من أكبر قيادات الأمن السياسي. ولأنه خلق لنفسه مئات الأعداء خلال هذا العمل الدؤوب، فقد صار يحيط نفسه بإجراءات حماية معقدة. اللواء سمير هو الهدف الأول لفخر الدين؛ فهو الذي نكل به في الحجز أيام مظاهرات الجامعة، وهو الذي جند زملاءه وبعض أصدقائه، وهو الذي طارده بعد ذلك حتى قاد بنفسه حملة لاغتياله قتل فيها ابن خاله عيسى، وهو الذي قتل يحيى إبراهيم، وعلي. سمير هو هدفه الأول، هو اختبار القوة الرئيسي.

لكنه قرر التأجيل حتى تهدأ الأجهزة الأمنية المتأهبة ويتوقفوا عن السعي وراء التنظيم المجهول. قرر أن يتركهم في حالة التعبئة هذه حتى يجهدهم، وفي اللحظة التي يفكون فيها التعبئة يضرب ضربته. لكن هل كان ذلك سبب التأجيل بحق، أم إنه يؤجل كي يبعد عن نفسه التساؤل عما سيفعله بعد أن ينتهي من سمير؟

* * *

على مدى الشهور التالية استقر فخر الدين في روتين لا يتغير كثيرًا. يبدأ يومه بغسل الريجاتا وتلميعها بإتقان من يلمع عدسات نظارته، ثم يدور في الشوارع، ينقل الناس ويتأمل في الشوارع والبشر. من مرآة التاكسي يرقب الوجوه والشفاه وهي تتحرك والأيدي وهي تشير أو تشيح والناس وهم يتقاربون ويتباعدون ويركضون ويبطئون. هذه الفتاة الملتاعة تنظر لتليفونها المحمول كل دقيقتين عساه يرن، وتلك الأم الساهمة تجر طفلها المتذمر دون أن تستمع لما يقوله، وذلك الرجل النحيف الذي قارب الستين، الممسك بالجريدة والمتمسك ببدلته القديمة التي حك الزمن أطرافها فبليت، يثبت نظارته على عينيه ويحسب في سره كم سيدفع من أجرة وكم سيبقى في جيبه، وذلك السائح المشعث الشعر والثياب الذي يتسلى بمشاهدة الفوضى ويشير لصديقته التي تشبهه كي تنظر لعجيبة أخرى من أعاجيب الطريق، وهذا الرجل الملتحي الذي يدفع زوجته المنقبة والطفلة المحجبة في المقعد الخلفي ثم يضع الأكياس بجوارهم ويأتي ليجلس بجواره. يقف في إشارة مختلقة فوق كوبري أكتوبر عند مطلع ميدان التحرير ينتظر مرور موكب شخص ما مهم، ويطول الانتظار والشمس تتسلط على زجاج الريجاتا المختنقة، ثم يبدأ المرور في التحرك لكنه يتوقف ثانية في زحامه الطبيعي وصوت سيارة الإسعاف اليائسة يأتي من بعيد. لا يستطيع أن يميز ما إذا كان الصوت آتيًا من الخلف أم من الاتجاه المعاكس. ويفكر لحظة في الشخص المصاب داخل السيارة المحاصرة وفيم عساه يفكر - إن كان يفكر؟

يقود الريجاتا ويقف في وسط البلد للراحة أو لشراء السندوتشات، ويرقب رجل المرور وهو يدور حوله ويقول له إن الركن ممنوع

ويجهز نفسه لتلقي الثمن، ثم يلقف الجنيه وتعبير وجهه يتغير بسرعة من الرضا إلى الخجل إلى اللهفة على إنهاء رحلة الجنيه في جيبه ثم يستدير كأنما ليمحو هذه الواقعة، ويعود شرطيًا للمرور. يراقب أصحاب المحلات الجالسين في انتظار الفرج، أو منهمكين في اضطهاد عمالهم، أو في محاولة البيع لزبائن يعلمون أن نيتهم في الشراء محدودة كقدرتهم: محتاجين ينتظرون المساعدة من محتاجين.

يقود الريجاتا ويمر بجوار أصحاب المقامات العالية الجالسين في مقاعد السيارات الخلفية، يتظاهرون بقراءة الجريدة رغم اهتزاز السيارة المستمر والمطبات وكثرة التوقف والاستئناف، أو ينظرون من الشباك وهم يحاولون ألا يرون من حولهم وما يمرون من خلاله، والسائق الذي يتظاهر بأنه لا يسمع ولا يرى غير الطريق، وعقله سارح في التساؤل عما إذا كان سيده راض عن قيادته، وما إذا كان الوقت قد حان لطلب زيادة في راتبه الضئيل، وما إذا كان سيعود للبيت مبكرًا، وما سيقوله لزوجته إن كان له امرأة أو لأمه التي تريد الذهاب للطبيب، أو لخطيبته التي ملت الانتظار أو امرأته التي ملت من غيابه، أو كل ذلك.

يقود الريجاتا في الزحام ويرقب الشاب المعجباني الذي يسرع بسيارته في الأمتار العشرة المتاحة ثم يكبح الفرامل فتصفر الأرض، ويحاول أن يحشر سيارته الباهظة الثمن بين الميكروباص والأتوبيس، وينظر في المرآة ليتأكد من أن شعره ما زال يحتفظ بالتسريحة نفسها وأن ذقنه نصف النابتة تعطيه جاذبية ولا تبدو مهملة زيادة عن الحد، وأن الفتاة التي بجواره ما زالت بجواره، أو تلك التي ليست بجواره

قد تركت رسالة على تليفونه المحمول، ويغير الموسيقى للمرة الثالثة في ضجر. يشرب الشاي في المشتل الصغير بجوار النيل ويراقب الشاب والفتاة الجالسين على كورنيش العجوزة وهما يحاولان التركيز بعضهما في أعين بعض أو أيديهما وتجاهل مئات السيارات التي تمرق من خلفهم مخلفة ضجيجًا وتلوثًا يكفي للقضاء على شعب بأسره، والشاب يسأل نفسه إن كانت هذه حقًّا هي الفتاة التي عليه الارتباط بها أم الفتاة القادمة، وهي تسأل نفسها إن كان يجب أن تنغمس معه خطوة أخرى أم أنه سيسيء الظن بها.

يقود الريجاتا ويأتيه عند الإشارة الرجل الباسم الذي يحاول بيع وردات حمراء قليلة دون فائدة، ويحاول مع الزبائن الجالسين في الخلف فينهرونه فيكمل مبتسمًا إلى السيارة التالية وكأن لم يحدث شيء. يتقدم قليلًا ثم تغلق الإشارة ثانية ويظل عساكر المرور يتبادلون الصيحات حول فتح الإشارة وإغلاقها، وإقناع سائق متعجل أن ينتظر ولا يدخل في الممنوع ويعطل المرور، وهم يلعنون في سرهم اليوم الذي قادهم إلى هذا الشارع وهذه الإشارة بعيدًا عن أهلهم وعما يهمهم في هذه الدنيا. يقف عند الإشارة فيتسابق الأطفال نحو نوافذ السيارات حاملين النعناع والليمون وقائدو السيارات يغلقون النوافذ أو يتقدمون سنتيمرات قليلة للإفلات من إلحاحهم. ينهر الراكب بائع النعناع، والطفل الجالس بجوار أبيه يرقب المشهد وربما يقول لنفسه إن أباه رجل قاسي القلب لكنه في نفس الوقت يطبع المشهد في ذاكرته وسيكرره بحذافيره عندما يصير رجلًا.

يقود الريجاتا في الشوارع ويرقب السيدة العجوز التي تبحث عن الرصيف كي تسير عليه من باب بيتها لمحل قريب، والمقعد الجالس

على كرسيه في انتظار أن يتبرع أحد بإعانته على عبور المهالك التي يواجهها، يلمح الفتى الذي يهبش الفتاة العابرة في صدرها ويضحك وعيناها تدمع، والعجوز الذي يقود التاكسي المنهار بجواره مخلفًا عوادم تكلف المارة من صحتهم أضعاف ما يكسبه من قوت، والرجل الواقف عند محطة للأتوبيس ضاعت ملامحها، وهو يفكر فيما إذا كان عليه أن يركض خلف الأتوبيس الذي مر لتوه وما إذا كان سيجد به مكانًا للوقوف.

يقود الريجاتا ساعة خروج المدرسة ويرقب التلامذة التائهين في الشوارع دون هدف، وأفواجهم الخارجة من باب المدرسة كأنها تفر من الجحيم لتدخل من أبواب جحيم آخر ينتظر. يوصل مسافرًا لمحطة القطار ويمر وسط الجنود العائدين أو الذاهبين بلا رغبة. يسير خلف السيارة التي يقودها قسيس متحفز يتساءل عما إذا كان الشرطي قد أغلق الإشارة في وجهه صدفة أم اضطهادًا. وتوقفه المرأة البدينة التي لم يرض سائق الميكروباص أن يتوقف لها وتسأله عن الأجرة التي يريدها للذهاب إلى ميدان الجيزة، ثم ترفض الركوب وتنسحب لجانب الطريق في انتظار ميكروباص آخر.

يقود الريجاتا ويتظاهر بأنه لم يسمع سؤال الراكبة بالخلف عن زبائن أجانب، ولم يسمع سؤال الطالب صاحب الشعر الكبير وسماعات «الآي بود» عن مكان يبيع البانجو. يرقب من مرآته الفتاتين الجالستين خلفه وأحداهما تشكو للأخرى بالفرنسية - كيلا يفهم - من أبيها الغائب الذي لا يهتم بشئونها وأنها لا تعرف لمن تحكي عن هذه المشكلة لأن أمها هستيرية وستظل تصرخ لو سمعت القصة دون أن تقدم حلًا، فتنصحها بالاتصال بأبيها فتتصل به ثم تغلق الخط

وتقول إنه طلب منها الحديث مع أمها في الموضوع. يقود الريجاتا ويفكر في أنه لو كان بين ضلوعه قلب لسال من الألم. ويحمد الله أن قلبه مات من زمن.

يكظم غضبه، ثم يجمعه في حزمة واحدة وينتظر بطله؛ هذا الذي يلقي بنفسه أمامه سعيًا لحتفه. يأتي سائق ممعن في تجاهل الآخرين، أفرادًا ومركبات، يسد الطريق كله لشراء سجائر، أو يسير عكس الاتجاه ويصمم على عدم التراجع ويطفئ المحرك في تحد أبله، أو يتوقف فجأة لأنه تذكر شيئًا أو لأن أحدًا أشار له فيتسبب في ارتطام كل السيارات من خلفه، أو يوقف سيارته على حافة انحناءة مطلع الكوبري فلا تراه حتى تصطدم به، أو يسير بعرض الطريق فجأة ويعرض حياة الآتين من خلفه للخطر وأعصابهم للانهيار. يأتي هذا البطل ويطالب بحزمة الغضب التي جمعها فخر الدين طيلة اليوم. يتعرف فخر الدين عليه فور ظهوره، كأن على وجهه علامة، فيتبعه ويظل يسير وراءه حتى يصل لطريق هادئ ولا يكون خلفه أو بجواره أحد، فيتقدم بسيارته حتى يحاذيه ويضع طلقة واحدة في رأسه تفجر جمجمته وتقضي عليه وعلى آلة التخلف التي يقودها، ويواصل فخر الدين العمل بقية اليوم حتى يعود للمنزل، دائمًا قبل الثامنة كي يلحق بموعد مذاكرة الطفلين.

سن فخر الدين لنفسه قانونًا ألا يقتل أكثر من شخص واحد في اليوم أيًا كانت الظروف. في بعض الأيام يقابل بطله خارج الطريق، فليس كل الأبطال سائقي سيارات. ذات يوم استيقظ فزعًا على صوت جهوري يزعق في الشارع، وبعد أن أفاق أدرك أن ذلك هو الإمام الجديد للمسجد الأهلي المقام أسفل البيت المجاور. لم يكن الصوت أذانًا أو تلاوة للقرآن الكريم، بل كان الإمام يصلي في الميكروفون.

الله أكبر. صمت. الله أكبر. صمت. سمع الله لمن حمده. الله أكبر. صمت، الله أكبر. صمت. الله أكبر. صمت. الله أكبر. انتهت الركعة الأولى. لا شيء سوى صرخته المفاجئة والمتكررة بأن الله أكبر مع كل ركوع وقيام وسجدة وقعود، ثم صمت. لم يفهم علة لذلك، فقام وارتدى ملابسه وذهب للمسجد وتوضأ وصلى، ثم اختلى بالإمام بعد الصلاة واقترح عليه الاكتفاء بالأذان في الميكروفون إن أراد، وبتلاوة بعض الآيات إن ارتأى لذلك ضرورة، أما الصلاة نفسها فلا معنى لأدائها في الميكروفون إن كانت صامتة بحكم الشرع. وافقه الإمام في الرأي وأثنى عليه، غير أنه في اليوم التالي فعل الشيء نفسه، وحدثه فخر الدين في المساء في الأمر، وتكرر نفس الحوار يومًا بعد يوم دون نتيجة. فقام فخر الدين ذات فجر وهبط إلى المسجد ودخل والإمام ساجد ووضع رصاصة صامتة في خلف رأسه وخرج قبل أن يلحظ أحد شيئًا. في ذلك اليوم، مثلًا، لم يبحث عن بطله في الطريق.

في يوم آخر، سألته ليلى إن كان يستطيع أن يجد عملًا لبنت من الحي تعمل في محل يبيع الهواتف النقالة ويتحرش بها صاحب العمل. ذهب فخر الدين وحادث الرجل فأنكر وهاج وماج ونادى على البنت وصفعها أمامه وطردها. حدث ذلك كله في دقائق. عاد فخر الدين وطلب من ليلى أن تقول لصديقتها أن تعود للعمل في اليوم التالي وكأن شيئًا لم يكن. في اليوم التالي عادت البنت للمحل، وكانت لا تزال تحتفظ بالمفاتيح، ولكن صاحب العمل لم يأت. ثم لم يأت في اليوم الذي يليه، ولا بقية الشهر، وصارت البنت تفتح المحل هي وتديره حتى يظهر الرجل الغائب، لكنه لم يعد أبدًا.

اختفت هند خلال هذه الفترة. اتصل بها فقالت إنها في الصعيد تغطي مولد السيدة العذراء في أسيوط ثم انتهزت الفرصة لعمل بعض الموضوعات الأخرى عن الصعيد والنوبة، ثم اختفت ثانية.

لكن الملل يتسرب إلى نفسه؛ كل هذا بلا فائدة، كل هذا مسكن حتى يجد شيئًا يفعله، وماذا عساه يفعل؟ لا شيء ذا معنى. وهو يريد أن يفعل شيئًا ذا معنى، ولا يعرف ما هو هذا الشيء. ماذا يمكن أن يكون له معنى وسط كل هذا! فكر في الموضوع ألف مرة وهو يدور بالريجاتا في أنحاء المدينة يفكر في كنه ذلك الشيء الذي سيكون له معنى، وفي كل مرة يخلص لنفس النتيجة. لا شيء. الدعوة لم تؤد لشيء. والكلمات لم تؤد لشيء. والقتل هذه حدوده، انتقامات بسيطة أو كبيرة، وفي أحسن الأحوال قصاص - لكن لا عدل ولا إصلاح. لن يعلم القتل أبًا أن يحنو على ابنته أو يربيها، ولن يمنع أطفال النعناع من السقوط في الهاوية، ولن يعلم الناس قيادة السيارات، ولن يقيم العدل ويعيد ما ضاع. لن يفعل القتل الكثير. ولن يفعل الكلام الكثير. هل كان ناصر الخضري على حق إذًا؟ ألا توجد فائدة؟ هذا ما يرفض الإقرار به: لا بد وأن هناك شيئًا ذا فائدة، وإلى أن يجده سيظل يدور بالريجاتا ويقيم بعض العدل على طريقته.

* * *

صعد فخر الدين السلالم العتيقة بسرعة. وقف أمام باب الشقة. مسح التراب عن اليافطة النحاسية القديمة وقرأ على الباب اسم الساكن القديم. أخرج الآلة الحادة من جيبه وأعملها في قفل الباب وبعد دقيقة سمع الكالون يتك تكة الفتح. حرك الباب فانفتح وانهال

عليه تراب كثير. لم يأت أحد هنا منذ سنوات. دخل وأغلق الباب بسرعة.

ظل واقفًا حتى اعتادت عيناه الظلام. أخرج خفًا مفلطحًا من حقيبته الصغيرة ووضعه في قدميه. التراب يعلو كل شيء. الأثاث مغطى بملاءات بيضاء. المطبخ الصغير به ثلاجة بيضاء وموقد غاز من نوع فريجيدير القديم. مر على غرف النوم والمعيشة. شقة صغيرة ولكن بها شيء يوحي بعراقة قديمة، كأنه يتجول في فيلم أبيض وأسود. الضوضاء الآتية من شارع القصر العيني تعيده للواقع. توجه لغرفة المكتب وبحث فلم يجد ما يريد. تم تنظيف المكان بعناية قبل إغلاق الشقة. استغرب أن يكون عمر فارس قد رتب أوراقه بهذه العناية قبل أن يموت صدفة! ليس هناك ورقة واحدة في المكتب. أخبرته والدته أنها لم تدخل الشقة وأنها أرسلت الشغالة لتنظفها وتجمع ملابسه. لا بد أن أحدًا آخر قد تولى تنظيف الشقة من الورق.

دخل غرفة نوم عمر فارس وبحث في الفراش وتحته وفي الدولاب فلم يجد شيئًا. انتقل للغرف الأخرى فلم يجد فيها ما يلفت النظر. وقف في وسط الصالة ينظر من حوله، ألم يترك عمر فارس أي شيء ينم عن التحقيق الذي أنفق فيه عامًا كاملًا؟ أم إنهم وصلوا إليه قبله ومحوا أثر جريمتهم بالكامل؟ يجول بنظره على المنضدة ومقاعدها الثمانية، خزانات الأطباق، المقعد الهزاز، البار، منضدة الشاي، البيانو العتيق المغطى. هناك لمح رأسه. على المقعد الصغير المواجه للبيانو لمح رأس الدب الذي أهدته إياه شيرين في أول عيد ميلاد له مر عليهما معًا. اقترب ببطء وهو يمعن النظر، إنه

هو، هو بعينه. أزاح الملاءة التي تغطي المقعد وأمسك بالدب ونظر إليه يتفحصه، لا مجال للشك. حتى رائحته لم تتغير، والروائح لا تخطئ. ماذا يفعل هذا الدب هنا؟ لماذا أخذه عمر فارس ولماذا يحتفظ به هنا؟ وقف فخر الدين يحدق بالدب وعقله يعمل بسرعة، ثم مد يده بحركة خاطفة وشق صدر الدب بمديته. هنا! نعم هنا! أحسنت يا عمر يا فارس.

وجد فخر الدين مظروفًا محشورًا بعناية داخل كيس من البلاستيك وسط حشوة الدب. أخرج المظروف بسرعة وفتحه. داخله، وقعت عيناه أول شيء على ظرف نحاسي أصفر لرصاصة من عيار ١٦ مل. أمسك به وتذكر سخونته يوم أمسكه أول مرة وشعر بقلبه يهوي بين ضلوعه. نظر في الأوراق وفهم بسرعة ما هي. هذا هو ما يبحث عنه وأكثر. التقرير الكامل لـ«عمر فارس». قلب الصفحات بسرعة وقلبه يغوص أكثر مع كل صفحة، وعيناه تغرورقان بالدمع. عاد به التقرير لأدق تفاصيل حياته التي مضت. لم يلحظ مرور الوقت، ولم يتحرك من مكانه حتى أتى على التقرير كله. وبين دموعه التي تنهمر لأول مرة منذ سنوات طويلة، وضع المظروف بعناية في حقيبته الصغيرة وحمل الدب المفتوح الصدر وخرج من شقة عمر فارس.

* * *

سألته هند:

- إنت بتضيع وقت ليه؟ ما تعمل حاجة؟

- هاعمل إيه؟

- إنت مش لقيت التقرير بتاع عمر فارس؟ طيب ما تنشره!

- أنشره ازاي؟ أطبع نسخ وأوزعها على الناس في الشارع؟

- لأ، اطبعه على إنه رواية.

- آه فكرة برضه. وده يا ترى حايفيد في إيه؟

- تطلع اللي في نفسك.

- لأ. اللي في نفسي أكبر واتقل بكتير من إنه يطلع بروايه.

- خلاص، يبقى كفاية مماطلة وياللا نرجع لشغلنا ونخلص المهمة.

- قصدك إيه؟

- إنت عارف قصدي كويس. اللي انت مخليه للآخر. الهدف الرئيسي اللي بتطارده وبيطاردك. ياللا أنا زهقت منكم انتم الاتنين.

- أنا كمان زهقت.

- يبقى اتفقنا، ودي تبقى آخر عمليه لنا سوى.

- إيه؟ حاتعتزلي؟

- ده بعد إذن حضرتك. أنا حاساعدك في العملية دي وخلاص كفايه.

- على العموم هي كده كده آخر عملية.

- اتفقنا.

اتفقا في الريجاتا بينما كان يوصلها إلى مصر الجديدة. عادت لمنزلها وارتدت رداء أسود بسيط يصل إلى أسفل الركبة بقليل، ووضعت نظارات شمس مستديرة كبيرة، وجمعت شعرها في خصلة واحدة خلف رأسها، وبدت مثل سيدة أعمال أو موظفة كبيرة بمصرف. حملت جواز السفر المصري الذي أعدته باسم «إلهام ونيس»، وتوجهت لمقابلة عم محمد السمسار الذي وعدها بأن يريها عدد من الشقق في المنطقة التي يسكن بها اللواء سمير.

- أنا عايزة حاجة كويسة في عمارة كبيرة، في دور عالي وتكون قريبة من النادي.

أراها عم محمد عددًا من الشقق، اختارت منهم شقتين في عمارتين مختلفتين يطلان بزوايا مختلفة على المنطقة التي يقع بها منزل الهدف. اختارت لنفسها الشقة الأولى، وهي تقع في الدور الثامن في عمارة من اثني عشر طابقًا. وقالت لعم محمد إن صديقة لها موظفة بالبنك الذي تعمل به تريد شقة مماثلة وستصل بعد ثلاثة أيام وطلبت منه حجز الشقة الأخرى لها. بعد يومين وقعت العقد وحصلت على مفاتيح الشقة الأولى. نبه عليها المالك ألا تصعد إلى سطح العمارة وفقًا لتعليمات الحراسات فطمأنته ألا حاجة بها لاستخدام السطح وأنها ترفض ترك أطفالها الصغار يصعدون للأسطح. دفعت الشهور الثلاثة المقدمة المنصوص عليها بالعقد واستلمت المفاتيح وأعطتهم صورة من جواز السفر وأعطت عم محمد الشهر العمولة المتفق عليها واستلمت مفاتيح شقتها الجديدة.

ذهب فخر الدين للقاء النقيب أيمن، وأخبره بسفره للغردقة ليعمل على سيارة شركة سياحية لعدة شهور. نظر إليه النقيب أيمن مطولًا وللحظة ظن فخر الدين أنه يشك في كلامه. سأله النقيب أيمن عما سيفعل بالتاكسي خلال تلك الفترة، فقال فخر الدين إنه سيتركه في بين السرايات. صمت أيمن قليلًا ثم قال له أن يترك المفتاح مع خالته ويقول لها إن المخبر قد يمر من وقت لآخر كي يأخذ التاكسي. أومأ فخر الدين دون مناقشة، وسمح له النقيب بالرحيل.

لم تكن المقابلة مريحة، وشعر فخر الدين بالقلق من أن يكون أيمن يشك فيه أو يختبره. كان من الأفضل لو أنه عارض ترك مفاتيح التاكسي، فهذا هو التصرف الطبيعي لأي صاحب تاكسي. لكن ما حدث قد حدث. حتى لو كان أيمن يشك فيه، فسيختفي الآن لعدة شهور، وعندما يظهر سيكون قد أتم عمله، وليحدث وقتها ما يحدث.

بعد أربعة أيام، كانت «هدى كريم»، الشقراء ذات العينين الزرقاوين الصافيتين الآتية لتوها من چنيف والتي ترتدي تاييرًا مثيرًا دون أن يكون فاضحًا قد وقعت عقد الشقة الأخرى واستلمت مفاتيحها. ومع عمال الأثاث والتليفونات والدش وخلافه، تسلل فخر الدين للشقة الأقرب لمنزل الهدف في حين احتلت هند الشقة الأخرى واتخذتها مركزًا للمراقبة. لم تكن اتصالاتهما تتم من خلال التليفون، لا المحمول ولا الأرضي، ولا من خلال الإنترنت أو أي وسيلة سلكية أو لاسلكية، حيث إن المنطقة تحت المراقبة وقد يتم كشفهما. تذهب هند للشقة التي يقيم بها فخر الدين وتكتب له ما تريد قوله وهو يرد أو يسأل كتابة ثم يحرق قصاصات الورق في إناء من الفخار. تأخذ

متعلقات اليوم من ملابس وطعام وتعطيه متعلقات اليوم التالي، ثم تمضي. في مجيئها لهذا البيت تصبح «إلهام ونيس» وترتدي ملابسها، ثم تعود لمنزل «هدى كريم» وتغير من هيئتها هناك، بحيث لا يسألها أحد من البوابين أو رجال الأمن عمن تأتي لزيارته. كانت في بيتها في الحالتين، ومع مرور الأسابيع صارت كلا المرأتين مألوفة للجميع في العمارتين، وكانت قد أخبرت عم محمد أن الأولاد سيتأخرون قليلًا في چنيف مع والدهم حيث تبين صعوبة قبولهم في المدارس المماثلة بالقاهرة خلال الفصل الدراسي.

كان قضاء كل هذا الوقت داخل نفس الشقة صعبًا، ولكن فخر الدين كان مدربًا. استعاد التواصل مع قواه الروحية خلال أسابيع الانتظار الطويلة بهذا المكمن، كما كانت زيارات هند اليومية تسري عنه. صار يعلّم اليوم بتوقيت زياراتها وينتظرها. كما أكثر من تدريبات اليوجا والتنفس، فالمراقبة تقتضي الكثير من ضبط النفس. ساعات طويلة من النظر إلى بيت الهدف من داخل الشقة، في أوقات باستخدام منظار وأوقات أخرى بدون. ساعات طويلة لا يحدث فيها أي شيء، لا أحد يتحرك، لا أحد يأتي أو يذهب. وأحيانًا أخرى تحدث جلبة وتأتي أرتال من السيارات، ثم لا ينزل منها أحد. وتمضي مرة أخرى. أوقات أخرى يأتي الهدف في موكب طائرات عمودية ثم تطير الطائرات ببعض أفراد العائلة. وساعات تطير الطائرات وتعود دون أحد. تحركات كثيرة بعضها يبدو وكأنه للتضليل وبعضها غير مفهوم. وكثير.. كثير من الوقت الذي يمر دون حدوث شيء. مرات، بعد ساعات من الانتظار دون فائدة، يذهب فخر الدين لدورة المياه وحين يعود يكون شيئًا قد تغير. وكأنهم كانوا

ينتظرون أن يغادر موقعه ليتحركوا. عادة ما يقوم بالمراقبة مجموعتان أو ثلاثة تتكون كل مجموعة من اثنين. لكنه لا يريد مخاطرة؛ هذه عمليته وسينفذها وحده.

كانت إجراءات الأمن المحيطة بالهدف معقدة وذكية. لكن كل من عمل بالأمن أو بالاغتيال يعلم جيدًا أنه لا توجد خطة أمن محكمة مائة بالمائة، وأنه مهما بلغت تعقيدات الحماية الأمنية وصرامة إجراءتها فلا بد من وجود ثغرات بها. وإن كان هناك شخص مصمم وذكي ومدرب فسيستطيع اختراق أي إجراءات أمنية في النهاية. ولهذا تعتمد أجهزة الأمن على المعلومات الاستخبارية في منع الاعتداءات أكثر مما تعتمد على الحماية المباشرة. ومن هنا أيضًا تأتي قوة فخر الدين، فهو لا يعمل مع مجموعة ومن ثم لا يمكن اختراقه ومعرفة نواياه، كما أنه صبور وذكي ومدرب، وبالتأكيد مصمم. هذا هو بالضبط النوع الذي تخشاه أجهزة الأمن.

أما هند فصامتة، تؤدي عملها المساعد من الشقة الأخرى دون كلام. وبعد ستة أسابيع من المراقبة المكثفة التي تقوم بها هند من عمارتها المطلة على الجانب الآخر للبيت، وثرثرتها مع البوابين والسايس والبقال وكل من استطاعت الحديث إليه، أصبح لديه فكرة كافية عن جدول تحركات الهدف تمكنه من تنفيذ العملية. أراد اختيار توقيت لا يكون فيه أحد من عائلة الهدف موجودًا بالمنزل. لا يريد أن تأتي زوجته أو ابنه أو حفيده ويرونه مسجى على الأرض قتيلًا. ساعتها يتوقف الهدف عن كونه هدفًا ويعود رجلًا تم قتله أمام عائلته، ويصير فخر الدين في نظر نفسه رجل قتل أبًا وزوجًا وجدًا أمام أهله. هو على استعداد لتأجيل التنفيذ كي يتفادى مثل هذا الموقف. في

الأسبوع الثامن نضجت الخطة، وأصبح فخر الدين جاهزًا، ولبث ينتظر. في يوم الثلاثاء تخرج زوجة الهدف في الصباح الباكر، ويتوجه الأولاد لأعمالهم المختلفة ويكون الأحفاد في المدرسة. في هذا اليوم يُجري الهدف مقابلاته بالمنزل، ويكون معه عدد قليل من معاونيه. وحين يأتيه زائر هام يخرج معه من المنزل حتى أطراف الحديقة. هذه هي اللحظة التي ينتظرها قناصنا الرابض في الطابق الثامن غير بعيد. هذه هي أصعب الفترات في مهمة القناص، ساعات طويلة من التوتر وشد الأعصاب على آخرها. قد يظهر الهدف في أي لحظة، ولن يكون أمامك الكثير من الوقت، بضعة ثوان أو دقائق إن حالفك الحظ. ومن ثم عليك أن تضع بندقيتك أمامك وألا تفارق عينك منطقة الهدف، وأن تكون جاهزًا للانقضاض في كل لحظة، وجاهزًا لتحمل حاجياتك وتمضي دون عودة، دون أن تفكر حتى في أن تنظر وراءك.

انقضى الثلاثاء الأول دون أن يخرج الهدف إلى الباب. وفي الثلاثاء التالي لم تخرج زوجته لسبب ما. وفي الثلاثاء اللاحق، وكنا قد صرنا في الأسبوع الأخير من شهر مارس، وصارت هند قلقة من قدرتها على الاستمرار في إخفاء الأمر عن فضول البوابين والمحيطين، خرج الهدف يودع أحد ضيوفه ثم تنزه قليلًا في الحديقة مع مرافقه. التفت الهدف إلى مرافقه يستمع لشيء ما يهمس به فتبين فخر الدين ملامح وجهه جيدًا. قرب العدسة أكثر، ليس هناك من لبس. رفع البندقية قليلًا حتى استقر ميزان التصويب على رأسه. أصبح رأس اللواء سمير في منتصف عدسة البندقية عندما بدأ هاتف فخر الدين في الاهتزاز. اختلجت يده فخرج الهدف من مرمى العدسة. تردد؛ هذا هو هاتفه

الذي لا يعرف رقمه سوى الخاصة. أعاد التركيز على الهدف، حرك ميزان التصويب على رأس اللواء يمينًا ويسارًا. حبس نفسه. التفت اللواء سمير لمرافقه يستمع لشيء ما يهمس به وهو ينظر في الملف الذي يمسك به. تبين فخر الدين ملامح وجهه جيدًا. لا مجال للخطأ. استقر ميزان التصويب على جبهته. الهاتف يواصل الاهتزاز في عناد. توتر فخر الدين. رفع اللواء سمير ناظريه لأعلى فجأة وخيل لفخر الدين أن نظرتيهما التقت، وعندها ضغط على الزناد. أطلق رصاصة واحدة استقرت بين عيني اللواء سمير الشاخصتين نحوه فأسقطته على الفور بينما أفلت الملف من يده وطار في الهواء. سقط اللواء سمير على أسفلت الممر الممتد من باب منزله حتى البوابة الحديدية المدججة بالحراس. سقط، وسمع فخر الدين صوت ارتطام رأسه بالأسفلت، ورأى الدم ينداح من أنفه وفمه. نظر من عدسة البندقية فرأى على وجه القتيل ابتسامة من فهم ما يحدث في اللحظة الأخيرة. أخذ فخر الدين نفسًا عميقًا وتراجع من حافة مكمنه بعيدًا عن مجال الرؤية وأخرج من جيبه الهاتف الصغير الذي لا يزال يهتز، ورد.

* * *

الفصل السابع

صحراء النسر

«ها أنا ذا». تمتم فخر الدين لنفسه وهو جالس على صخرة لا عشب بها، ويرمي بناظريه عن يمين وعن شمال فلا يرى أحدًا. ها هو ذا، وحده، كما كان دائمًا. عمر ينام، ربما من التعب، وربما كيلا يراه. لم يعد ذلك يضايقه. اعتاد على فكرة أن ابنه لا يحبه، أو بالأدق يكرهه. لكنه مصمم على إصلاحه واستمالته. فشلت محاولاته حتى الآن، لكنه سيحاول ثانية، وثالثة، وعاشرة. سيظل يحاول هنا، في هذه الصحراء، ولن يخرجا منها حتى يحلا المشكلة بينهما أو يموتا، أحدهما أو كلاهما. يعرف أن فرصته في النجاح محدودة، لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ عندما فهم أن عمر لا يحبه صدم، وشعر بالعالم يهتز من حوله. هذا ما لم يحسب حسابه. لم يتخيل أن ذلك يمكن أن يحدث له هو، لكنه حدث. بعد صمت عمر الطويل ورفض الطعام والشراب ومشارفته على الموت، وبعد أن حمله بين يديه وفي عينيه أيامًا ولياليَ، وبعدما أفاق ونظر إليه وبدا من نظرته كم كره أن يعود للحياة ويراه مرة أخرى، فهم أن

ابنه يكرهه. ربما يعتقد أنه لا يستحق أن يكون أباه، أو أن يكون أبًا من الأساس. وفخر الدين يظن أن ابنه قد يكون على حق.

يجلس كي يستريح ويفكر. يستعيد ما حدث في الأسابيع الماضية، طار عكس الريح كي ينقذ ابنه من براثن القتلة. حمله في قبضتيه وبين جناحيه وحلق به عائدًا، لا يفكر في شيء سوى الوصول للهدف. لكن عمر أخذ يتملص من قبضتيه حتى أفلت هاويًا إلى الأرض، فهبط خلفه بأسرع ما يمكنه كي ينقذه من السقوط. لو تردد لحظة لالتهمته الذئاب الجائعة التي تترقبه على الأرض. حمله أبوه بعيدًا عن الخطر وحط به على صخرة عالية في قلب صحراء نائية، وقف كي يلتقطا أنفاسهما. لكن عمر يواصل التملص وكأنه مصمم على السقوط في أنياب الذئاب. ساعتها فهم أن ابنه يفضل الاستسلام للوحوش التي تطلب دمه على أن يكون معه. هو لا يريد البقاء معه، حتى وإن لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه.

يفكر في هذا، وفي شيرين التي أرادت ولكن لم تستطع أن تكون معه، ولم تكن تستطيع الوجود في مكان آخر. ولا يعرف أين يذهب بابنه وبنفسه. يعرف أن شيرين راحت ضحية الطبقة الاجتماعية التي حاصرتها وأعجزتها، لكن عمر ضحيته هو، لا أحد سواه. بعد طول تأمل وتقليب للأمر، فهم فخر الدين أن عمر كان غاضبًا عليه هو حين فعل ما فعل؛ اقترف الجريمة تلو الأخرى كي ينتقم منه هو، ثم حاول أن ينهي حياته بشكل يؤذيه هو. وحين أنقذه فخر الدين غضب أكثر. والآن يريد أن يموت بين يديه ليعاقبه أكثر. لذا غضب حين أفاق ووجد نفسه حيًا وبفضله. الابن يريد الموت على يدي أبيه كي يؤلمه، والأب يريده أن يغفر له كي ينقذه. وها هما الآن، وحش الجو الشهير

وابنه الوحش الصغير، وجهًا لوجه على قمة هذه الصحراء، ينظران بعضهما لبعض ولا يعرفان أين يذهبان من هنا.

يسأل فخر الدين نفسه عن أصل كراهية ابنه له. هل يكرهه لأنه أنجبه، أم لأنه أهمله، أم لأنه لا يعرفه؟ حين يفكر في الأمر لا يلومه. فأين كان كل هذه السنوات؟ وماذا يعني عمر من الأمر أن يكون أبوه مجاهدًا في أفغانستان أو حتى التشيه - جيفارا. ربما كره أولاد جيفارا أباهم؛ ربما لم يعتن بهم، لم يحتضنهم وهم صغار ويدفئ قلوبهم، لم يمسك بيد ابنه ويأخذه معه إلى مكان ما، لم يسمح له بأن يكبر من حوله وأن يشعر بالأمان ويقتدي به. ماذا يعني الأبناء أن يكون أبوهم محرر أمريكا اللاتينية؟ ربما يكرهونه سرًا ولا يبوحون. أما عمر، فإنه يقولها، وبكل الطرق الممكنة. على الأقل هناك ذلك، لديه الشجاعة ليقولها له. ويسأل فخر الدين نفسه في أمل، هل هي شجاعة أم رغبة في أن يجتذبه أبوه ويحتضنه ويثبت له أنه على خطأ وأنه يحبه ولم يتركه إلا مكرهًا؟

لكنه يعلم أن هذا بصيص ضعيف من الأمل. فقد ترك عمر شبه عامد، وعمر يشعر بهذا ولن يغفره له. لم يكن فخر الدين غافلًا عن وجود ابنه الصغير وعن احتياجه له، لكنه قرر دون كثير تفكير أن «يؤجله»، كأنه شيء يمكن حفظه لما بعد، حتى يقيم العدل ثم يعيد الحياة لابنه ويعيشا معًا في العالم الجديد العادل. تركه مؤقتًا ثم نسيه، لسنوات. وحين كان يتذكره كان يمني نفسه بأنه بخير مع أم ياسر ويعيشون في شبه عائلة وأن ذلك أفضل له. لم يكن يفكر كثيرًا في الأمر حتى لا يرى ما لا يريد؛ وهو أن ابنه مسئوليته هو، يحتاجه هو، ويجب أن يكون معه هو. لم يرد أن يلتصق به أحد لأنه - الآن بدأ

يفهم، بالكاد - لا يريد أن يقترب من أحد ولا أن يلتصق به أحد. الآن فقط بدأ يرى ما لم يره كل هذه السنوات، وهو أنه لم يرد سوى هذه الصحراء، تلك الجبال في أفغانستان، وذلك الدير على شاطئ البحر - دون الرهبان. يريد أن يكون وحده في سماء يفرد فيها أجنحته الكبيرة ويحلق عاليًا فيها حيث لا يدركه أحد.

هل كان يلوم ابنه سرًا على موت أمه؟ في قرارة نفسه يقر أن هذا السؤال - على قسوته - به جزء من الصدق. في نهاية المطاف، ألم تمت شيرين كي تلده؟ ألم يقتلها الحمل والوضع؟ كان هناك أوقات ظن فيها أن شيرين حملت بعمر عامدة، وأن تلك كانت طريقتها في أن تكون معه؛ فهي كانت تعلم منذ البداية أنها لن تقوى على الرحيل معه وتحدي عالمها. وكان الرحيل الوحيد الذي قويت عليه هو الموت وترك ابنها معه. لم تستطع أن تتحدى عالمها وترحل معه ولم تستطع أن تبقى مع عالمها الذي يقتلها، فرحلت وبقيت معه في صورة أخرى. قال ذلك لنفسه سنوات. لكنه لو آمن حقًا بذلك لأبقى عمر معه، لحمله ورحل به ولم يلق به خلفه. لا، لا بد وأنه يلوم عمر سرًا على موت أمه.

يجلس على صخرة عالية وهو يدرك فداحة الجرم الذي اقترفه، ولا يصدق أنه ارتكب هذا الجرم بحق أقرب الناس إليه، هو الذي جاب نصف المعمورة بحثًا عن الحق والعدل. أخذه عمر على حين غرة، وفاجأه بحجم جريرة لم يكن يذكرها. وها هو ذا، على صخرة في الصحراء ينظر إلى تقصيره وجهًا لوجه، ويحاول أن يجد سبيلًا كي يتماسك مرة أخرى ويستعيد بعضًا من توازنه ويجد الوسيلة لمداواة المصيبة التي تسبب بها. لم يعد يلوم إلا نفسه؛ لا عمر و لا أم ياسر ولا

حمزة ولا الجماعة. لقد وجه اللوم ساعتها للشيخ حمزة، وقال له إن تفجير القنصلية هو الذي جر عليهم عداء الأمن وانتقامهم، لكنه الآن يدرك أن تلك هي نصف الحقيقة فقط، وأن الأمن كان ينتقم منه هو، حتى لو لم يكن يعرف هويته. كان يجب على فخر الدين أن يعلم أن أفعاله لن تمر دون انتقام من سمير وأعوانه، وأنه مثلما يعرف طريق سمير فإن سمير يعرف طريقه - هو ومن شابهه. هو الذي وضع إصبعه في عين الوحش لا حمزة، ونسي أن له عينًا بلا حماية، نسي أن هناك دائمًا عينًا بلا حماية. انتقم من كل من شارك في قتله في الماضي حتى وصل لرأس الحربة، لكن رأس الحربة سبقته وأصابته في مقتل قبل أن يطلق رصاصته الأخيرة، قتله سمير وابتسم له قبل أن يقتله فخر الدين، ولم يفهم مغزى ابتسامته إلا الآن.

يجلس على صخرة لا عشب بها، ويقول لنفسه إنه ليس أفضل من حمزة كثيرًا، إنه ليس أفضل من أحد. هو الذي آذى من يحب، وتخلى عن ابنه. هو الذي كان يجب أن يكون مع عمر وأن يكون له أبًا، ولم يفعل. وعمر يعرف أنه هو المسئول؛ هذا ما قاله حين نطق. قال إنه هو السبب في كل ما حدث، وإنه لا يحبه. ثم سكت. ها هو ذا يواجه حقيقة بسيطة، إنه قد خلق من ابنه - عن خطأ أو غفلة أو تقصير - خائنًا ومتآمرًا وقاتلًا. في سعيه لقتل الوحش صار مثله، تمامًا مثلما تنبأ دميان، وحول ابنه إلى وحش مثله. مات الوحش الأصلي الذي كان يطارده، وها هما، الوحشان الباقيان، يجلسان وجهًا لوجه في هذه الصحراء الصامتة.

لن يحمله قسرًا. لن يستطيع؛ يعرف أنه لن يستطيع. سيتملص عمر منه ويلقي بنفسه مرة ثانية وثالثة وعاشرة حتى يهلك. ولو أنقذه ضد

إرادته سيكرهه أكثر وسيجد الوسيلة كي يقتل نفسه ليصيبه. لن يعودا إلى مصر في أسبوع. فشلت الخطة القديمة، ولن تكون هناك خطة جديدة دون تعاون عمر. سيظلان هنا، قابعان على هذه الصخرة، في هذه الصحراء، يدوران بعضهما حول بعض، حتى يعالجا هذا الأمر سويًا أو يموتا سويًا. هناك عين ماء غير بعيدة، ومعهما مؤن تكفي أربعين يومًا من المسير، وقرب نهاية المدة يمكن أن يذبح إحدى الناقتين إذ ستكون المؤن التي تحملها قد نفدت، ويمكنهما أن يقتاتا على لحمها أيامًا أخر. سيبقيان هنا حتى يقرر عمر ما إذا كان يريد أن يمنحه فرصة أخرى وأن يقبل به أبًا أم لا يريد. وإن لم يرد، لعله يقبل بأن يعطي نفسه هو فرصة أخرى؛ لعله يفهم أن فخر الدين لا يحتاج موته كي ينتبه لخطيئته، أنه فهمها وقبل بمسئوليته عنها وعنه، وأنه يريد منه المغفرة. سيبقى مع ابنه على أمل أن يغفر له، من أجله هو. وحتى يحدث ذلك، لن يتحركا من هنا.

* * *

جلس عمر أمام مدخل الكهف وهو يتساءل من أين طلع له هذا الرجل وماذا يريد منه. في البداية ظن أن فخر الدين قد أتى ليقتله، ليغسل عاره بيده كيلا يقال عنه إنه رخو أو جبان، فقرر أن يترك نفسه يموت ليحرمه من تحقيق هدفه. لكنه أنقذه من الموت، وظل عمر ينتظر بعدها أن يقتله لكنه لم يفعل. وهو لا يفهم ما يريده إذًا، أيريد إعادته فعلًا لمصر؟ ولم؟ كغطاء أمام الأمن؟ هل ينشئ تنظيمًا جديدًا ويريد مساعدته؟ يجب أن يكون مجنونًا كي يفكر أن عمر يمكن أن يساعده بعد ما سمعه من الشيخ حمزة. ماذا يريد إذًا، أيريد مثل الشيخ حمزة أن يرسله في عملية استشهادية كي «يكفر عن ذنوبه»؟ ابتسم عمر وهو

يذكر وجه الشيخ حمزة عندما قال له أن يذهب هو ويستشهد تكفيرًا عن ذنوبه. سيسمعه نفس الجملة إن فاتحه في ذلك. لو كان هذا هدفه فهو لا يعرف لأي حد يكرهه ويكره الجماعة كلها. ينتظر اللحظة التي سيفاجئه فيها بقدرته على الإيذاء، فخر الدين لا يعرف بعد، لا يعرف أنه قادر على غرز خنجر في قلبه بيده تلك وأن يتفرج عليه وهو يصارع الموت. قال لنفسه إن أباه لا يعرف عنه سوى ما سمعه من أم ياسر والشيخ حمزة، لكنه لا يعلم ما يمكنه فعله. ينظر لفخر الدين من مجلسه ويبتسم لنفسه، يظن أن رجال الأمن هم الذين غرروا به وأجبروه على التعاون معهم. لا يعلم ما الذي حدث، ليس بعد. يجلس وينتظر. سيعرف أباه الحقيقة في الوقت الذي يحدده.

يعبث في الأرض بخنجره ويأسى على فشل مؤامرته. لولا رخاوة شريكه لما فشل. لو لم يعترف ذلك الغر لأبيه لنجحت الخطة ولكانت قيادات الجماعة الآن أشلاءً ممزقة لا يعرفون أي جزء منها يرجع لمن. لو لم يعترف هذا الجبان لنجح في تفجير العبوة الناسفة أثناء الاجتماع وقضى عليهم جميعًا في لحظة واحدة. أفسد الصبي الخطة؛ انهار وطلب العفو والسماح. سامحوه، وسيتحول الآن لواحد منهم ومن يدري؛ ربما يصير أميرًا في المستقبل. أما هو فلم يطلب الصفح، بل وجد لذة في أن يقول لهم كم يكرههم. ألقاها في وجوههم. أقر بمؤامرته، وقال لهم إنه يعرف عقوبتها الشرعية ولا يخشاها. وقف أمام المجلس الشرعي كله وقال لهم، ببطء ووضوح إنه يكرههم جميعًا ويفضل الموت على طلب السماح منهم. تذكر أم ياسر؛ مسكينة تلك المرأة. لم تفهم شيئًا مما فعله ولم تصدق. ظلت تحتضنه وتبكي وهو يبعدها، فآخر ما يريده هو دموعها. لا يريد سوى أن يدعوه وحده. لكنهم أصروا على «إصلاحه» وأرسلوه إلى الخلاوي الشرعية

كي «يتوب». نظر لأبيه وهو يتذكر رد فعلهم؛ لم يصدقوا أن ابن النسر يمكن أن يفعل بهم هذا. «إنت يا عمر، من بين كل الناس؟ ماذا سيقول أبوك؟» لم يفهموه، لم يفهموا حرفًا مما قال، لأنهم يعتقدون أنهم لا يأتيهم الباطل ولا يمكن لأحد من بينهم أن يكرههم. ابتسم عمر لنفسه، هو الذي ذهب لرجل المخابرات واستدرجه. وبعد ذلك، حين أرسلوه إلى الخلاوي قلبها عليهم. غرر بالأولاد هناك وجند بعضًا منهم وظل أسابيع كاملة يعيث فيها فسادًا حتى أفاقوا لما كان يفعله. ضحك عمر عندما اتهموه بإفساد الأولاد هناك. سألهم في تهكم كيف يمكنه أن يفسدهم في ثلاثة أسابيع إن كانوا صالحين. ثم سألهم عمن أفسد الشيخ حمزة وبقية القيادات، وسعد برؤية ملامحهم وهي تتلوى من الامتعاض. سعد وهو يلقي بالقاذورات في وجوههم. إن كان أباه نسرًا يقتل من علٍ، فهو فهد يهاجم وجهًا لوجه ويصرع خصمه بخنجره وهو ينظر فيٍ عينه. راض هو، لأنهم سيتذكرون دائمًا ذلك الفهد الذي كاد أن يقضي عليهم كلهم بخبطة واحدة.

لكن النسر هبط عليه من حيث لا يدري وقرر أن ينقذه. حانق عمر عليه، فهو لم يطلب منه المساعدة، ولم يرد رؤيته. رتب نفسه منذ سنوات على غياب أبيه. أدرك منذ وعى على الدنيا أن فخر الدين جاء به للدنيا ثم ألقى به لهؤلاء الوحوش وطار بعيدًا. قبل بهذا واعتاده، وهو الآن لا يريد شيئًا آخر، لا يريد سوى استمرار هذا الترتيب الذي اعتاده. لكن لا، يعود النسر المزعج فجأة مثلما اختفى ويمنعه من الميتة الوحيدة التي كانت ستخلد ذكراه. ينظر لأبيه ويشعر بموجة من الكراهية تجتاحه. ود لو أن الشيخ حمزة صرعه وخلصه منه للأبد.

* * *

مر أسبوعان، ولم يبرحا مكانهما. عمر ما زال صامتًا معظم الوقت، لكنه أصبح يقول كلمة أو كلمتين في اليوم. حاول فخر الدين تعليمه ركوب الخيل لكنه لم يبد اهتمامًا. تظاهر فخر الدين بأن عمر مهتم وشرح له الفروق بين الخيل وكيفية معاملة كل صنف، وكيفية قيادة الفرس وترويضه دون قسوة. وعمر لا ينظر إليه ولا يبدو أنه يستمع، لكن فخر الدين يفترض أن ابنه يسمع ما يقوله وإن تظاهر بغير ذلك، إلا لو كان قد أصيب بصمم أيضًا. يسكت فخر الدين فجأة في وسط الحديث فيشعر أن عمر كان على وشك أن يسأله أن يكمل، لكنه لا يفعل، فيكمل من تلقاء نفسه علّ إحساسه يكون مصيبًا.

رغم صمت عمر، وضع فخر الدين قواعد لحياتهما المشتركة، الاستيقاظ والأكل والنوم. فحتى لو كان عمر يقاوم دوره كأب، يجب عليه أن يفهم أن هناك حدودًا. لا يرغمه على شيء، لكن لأمور الحياة قواعد، وهو المسئول عن حياتهما المشتركة، على الأقل الآن. الاستيقاظ في السابعة صباحًا على أقصى تقدير. في البداية تظاهر عمر بأنه لا يزال نائمًا حين يوقظه، لكنه لم يستطع العودة للنوم خاصة حين يرفع فخر الدين أطراف الخيمة التي تسد باب المغارة فتغمرها الشمس. يتلكأ قليلًا ثم يستسلم ويقوم. بعد عدة أيام صار يستيقظ قبل هذا الموعد كي يكون هو الذي استيقظ من تلقاء نفسه. وفخر الدين ينظر ويقول لنفسه لا بأس. يسأله عن نوع الطعام الذي يريده على الغداء، وحين لا يرد يختار نيابة عنه. بعد عدة أيام أكلا فيها نفس الطعام، أصبح عمر يرد على هذا السؤال. وهكذا أصبحت هناك كلمة على الأقل ينطقها في الصباح واختيار يشارك فيه.

طلب منه مساعدته على أداء بعض المهام، كالبحث عن حطب أو ربط الدواب أو تمشيتها أو تنظيف مكانها أو تقوية الخيام التي تحميها في الليل. ظل عمر يتجاهله أسبوعًا، ثم أصبح يقوم ببعض الأشياء الصغيرة دون حديث، ثم اختار جمع الحطب والعناية بالدواب وأصبح يتولاها دون أن يطلب منه. وحين يسأله فخر الدين عن هذه الأمور يشير بما يفيد بأنه قد اعتنى بالأمر. من وقت لآخر، مرة في اليوم على الأقل، يقوم بعمل عدواني ما؛ يكسر شيئًا، يلقي ببعض الماء في الرمل، لا يرد حين يطلب منه أن يهتم بشيء ما أو أن يساعده في شيء ما. يفعل ذلك وينظر إلي فخر الدين في تحد وكأنه يدعوه لتعنيفه، كأنه يبحث عن القسوة الكامنة في أبيه. لكنه يبتلع غيظه، يخبره أن ذلك سلوك خاطئ، ثم يذهب ويتولى الأمر دون أن يزيد على ذلك حرفًا.

يتحدث فخر الدين إليه كل يوم أثناء الغداء وفي الليل حتى يناما. عمر لا يرد، لكن فخر الدين يواصل الحديث. يحكي له عن أشياء بسيطة، عما يحب وما يكره من الطعام، عن طرق إعداد الطعام في الصحراء، عن الصيد، عن قيادة السيارات، عن القوارب والبحر، عن النجوم والرياح والرمال، عن القاهرة وبين السرايات، عن خالته مريم ومرضها وليلى وخدماتها العلاجية. يسأله عن نفسه وما يحب. طبعًا عمر لا يجيب، والأب يسترسل في الحديث. ذات مرة حدثه عن أمه، فقام عمر ودخل لفراشه ولم يعد طيلة اليوم، ولم يعد فخر الدين للحديث عنها.

عرض فخر الدين عليه مرتين أن يأتي معه لصيد غزال أو أرنب بري، مؤكدًا أنه سيحب ذلك، فنظر عمر إليه مطولًا ولم يرد. طمأنه

فخر الدين أن بوسعه تعلم ركوب الفرس سريعًا أو الركوب خلفه، فلم يرد. سأله مبتسمًا إن كان يخاف أن يقع من على الفرس فنظر إليه في استخفاف ولم يرد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينظر إليه نظرة بها تعبير غير الكراهية.

* * *

سئم عمر من هذه اللعبة، وسئم من بقائهما هكذا وسط هذه الصحراء الجرداء. لا يفهم الهدف من هذا الانتظار؛ عما قريب ستنفد المؤن. هل يريد إضاعة الوقت والمؤن ثم يفر بما يبقى منها ويتركه وحده ليموت جوعًا وعطشًا؟ أهذه هي العقوبة الجديدة التي توصل إليها؟ لكن لا شيء في سلوك فخر الدين يوحي بأنه يخطط لعقابه، وهذا ما يقلقه. يبدو كأب طبيعي، أقرب ما يكون لشخص في رحلة مع أسرته. كل يوم يطعم الدواب، ثم يخرج للصيد، ويأتي بالماء في حين يجمع عمر الحطب ثم يعدان الطعام، وهكذا. وعمر يسأل نفسه عن معنى هذا، أهذه نسخة فخر الدين من الخلاوي الشرعية؟ هل الخطوة القادمة أن يحفظه القرآن ويستتيبه؟ وإن لم يتب يعذّره ثم يقيم عليه الحد؟ إن كان هذا ما ينويه فهو يضيع وقته، فعمر لا ينوي أن يتوب أو يرجع.

لكن أكثر ما يستغربه عمر هو عدم سؤال أبيه له عما فعله مع الجماعة. لم يسأله عما حدث؛ عن ضابط المخابرات وعلاقته به، وعن الأولاد الذين أغواهم، وعن المتفجرات والخيانة وكل ذلك. يريده أن يسأل كي يقول له ويرى وقع ما يقوله على وجهه. يريد أن يقول له في وجهه، ببطء ووضوح، كيف كان صديقه الشيخ حمزة هو أول من اعتدى عليه، وأن يقص عليه بالتفصيل كيف حدث ذلك، تدريجيًا، ويومًا بعد يوم، حتى اللحظة التي وجده ملتصقًا به وشعر

بجسده الثقيل يرتجف فوق جسمه وشيء ما يؤلمه وهو لا يستطيع التملص من قبضتيه. يريد أن يرى وجه أبيه وهو يسمع ذلك، وهو يسمع من ابنه كيف أخذ جسمه كله يرتعش وهو يبكي في صمت تحت وطأة حمزة المعتدي وهو مستسلم يعلم ألا حول له ولا قوة. يريد أن يقص عليه كيف حاول إفهام أم ياسر التي تزوجها الشيخ حمزة وكيف قاطعته ونهرته ورفضت الاستماع لما كان على وشك قوله. يريد أن يحكي لأبيه عن استدعاء الشيخ حمزة المتكرر له بحجة «الحديث معه» وكيف قال للجميع إنه قد «تبناه». يريد من هذا النسر المجيد أن يسأله كي يقص عليه كيف صار يحب جلسات الشيخ حمزة معه لأنها الأوقات الوحيدة التي كان يحتضنه فيها أحد أو يربت على شعره ويسأله عما يريد، قبل أن يبرك عليه ويؤلمه مرة أخرى. يريد أن يخبره كيف أصبح يحب «تبني» الشيخ حمزة له لأن ذلك جعل بقية الأولاد يغارون منه. يريد من أبيه أن يسأله عن فعلته ليفجعه بالحقيقة، بأنه لم يفعل ذلك انتقامًا من اعتداء الشيخ حمزة المتكرر عليه، بل لأنه رماه بعد فترة و«تبنى» ولدًا آخر. يريده أن يسأله عن رجل المخابرات كي يشرح له كيف غرر بالمسكين الذي ظن نفسه فاتح عكا ولم يفهم أن عمر يستخدمه كي يدمر أعداءه. لكن فخر الدين لا يسأل ولا يثير هذا الموضوع من قريب أو بعيد. كل ما يفعله هو إعداد الطعام والعناية بالدواب والحديث عن الخيول والنجوم وأقارب لا يعرف عنهم شيئًا. ما هي لعبته بالضبط؟ ماذا يحاول أن يفعل؟

لا يفهم هذا الرجل. يعرف أن أباه يكرهه لأنه السبب في موت أمه، وأنه تخلى عنه لأن لديه أشياء أكثر أهمية مثل بقية قيادات الجماعة. لكنه يرى فيه اختلافًا عنهم؛ ليس بنفس غلظتهم، وباستثناء لقائه مع الشيخ حمزة لم يره عنيفًا أو قاسيًا. لم يضربه ولا مرة واحدة، بل لم

يعنفه حين عانده وحطم الأشياء وأهدر الماء في الرمل وأضاع بعض المؤن. قال له إن ذلك لا يجوز ولا يصح من فتى مثله، ثم مضى. هذا كل ما فعله، وهو ما أدهش عمر المعتاد على العقاب البدني. حتى عندما خرجا للصيد بدا رحيمًا بالأرنب الذي اصطاده. لا يفهمه، وأحيانًا يراه يحدث نفسه وكأن هناك شخصًا ثالثًا معهما. ولا يفهم كل هذه الأسئلة التي يسأله عنها؛ ما يحب وما يأكل وما لا يأكل. لا يفهم الصبي لماذا لا يدعه أبوه في حاله ويفعل ما أتى لفعله، ولا يفهم ما الذي أتى لفعله.

في أعماق أعماقه يتمنى ويخشى. يتمنى أن يكون أبوه قد عاد له وسيعيده إليه ويبقى معه ويصبح له أبًا وحاميًا، لكنه لا يصدق أن ذلك ممكن، وكلما خطر بباله احتمال صدق نوايا فخر الدين طرد الفكرة من رأسه بسرعة. لا يريد مجرد التفكير في هذا الاحتمال. لن يسمح لنفسه بأن ينساق خلف أبيه ويصدقه. لا، لن يسمح لنفسه بالضعف أبدًا.

سيتحرك بدلًا من انتظار اتضاح نية الأب من هذا اللف والدوران. سينتقم انتقامه الذي أراده منذ البداية ولكن من أبيه مباشرة. واضح أن فخر الدين يريد أن يفوز بثقته، لا يعرف لم بالضبط ولكن هذا هو هدف كل هذا التودد وهذه الأحاديث وهذه الصحبة. سيجاريه في لعبته؛ سيجعل أبوه يثق به، ثم ينزل به عقابه. هكذا اتخذ القرار، كيلا يضعف أمام تودد أبيه وأمام الأمل الذي يداعبه من بعيد. سيجاري الأب في لعبته حتى يأمن له تمامًا، ثم يوجه له الضربة القاصمة.

* * *

ثم ظهرت هند.

كان فخر الدين جالسًا في المغارة حين رآها تدخل من الباب. فزع. ابتسمت له وسارت باتجاهه وهي تتعثر. ترتدي تاييرًا غامقًا وشرابًا طويلًا وحذاء بكعب عال وتحمل حقيبتها الجلدية المعتادة. نظر إليها غير مصدق، كيف وصلت إلى هنا؟ كيف عرفت بمكانهما وهما في وسط صحراء الجلف الكبير؟ وما هذه الملابس وكيف تسير بها في الصحراء؟ خاف هذه المرة. نظر إليها وإلى عمر الجالس وحده في الزاوية الأخرى من المغارة لكن عمر لم يبد عليه أي انزعاج. ابتسمت وقالت:

- ما تخافش، هو مش شايفني.

قطب حاجبيه وسأل:

- يعني إيه مش شايفك؟

- مش طول عمري أقولك إني مخلوقه نورانية!

نادى على عمر فرفع رأسه نحوه ولم يرد. أومأ له فخر الدين بأن ينظر ناحيتها لكن عمر ظل ينظر له غير فاهم. سألها وهو ما زال ينظر لعمر ليرى إن كان فعلًا لا يراها.

- انتي إزاي جيتي هنا؟

- أنا دايمًا أعرف أوصل لك. بص يا سيدي، يؤسفني أبلغك أن المركب وقف بيّه ومعرفتش أرجعه. كان حايغرق ويغرقني معاه. أنا قلت معلش بأه، ونطيت وكملتها سباحه لغاية ما وصلت الشط وبعدين اتصرفت. لو تفتكر أنا كنت قلت لك إن عملية مصر الجديدة حاتكون آخر عملية أساعدك فيها. والله ماجيت معاك السودان إلا

عشان خاطر ابنك. انت خلفته إزاي ده؟ ده أحلى منك ميت مرة. المهم، لما المركب بدأت تعمل المشاكل دي عرفت إنها علامة، وسبت المركب وقررت إنه فعلًا خلاص، دي حاتكون آخر مرة نشتغل فيها مع بعض.

- انتي ازاي جيتي هنا؟

- إنت ليه مش مصدق إني مخلوقة نورانية؟

- نورانية إيه بس يا هند؟

- انت مش واخد بالك ولا إيه؟

- من إيه؟

ابتسمت في حنان ووضعت يدها على كتفه.

- فخر الدين يا حبيبي، ركز شوية، إنت أكيد من جواك عارف.

- عارف إيه يا ست يا مجنونة انتي؟

- عارف إن ربنا باعتني ليك انت، وإن محدش غيرك بيتعامل معايا.

- أفندم؟

- فخر الدين، ماتقوليش إنك مافكرتش في الحكاية دي قبل كده.

- عمر؛ يا عمر!

- سيب عمر في حاله ماتلخبطوش أكثر ما هو. ربنا يعينك معاه. ده هو ده اللي هايعرفك ان الله حق.

- عايز تقوللي انك ماخدتش بالك قبل كده إن محدش غيرك وغيري يعرفنا احنا الاتنين؟ عايز تفهمني إن الخاطر ده ماعداش في بالك خالص؟

- مالك؟

ينظر إليها ولا يقوى على الحديث. لا يعرف كيف يتحدث إليها، بل لا يعرف كيف يفكر. انعقد لسانه وتوقف ذهنه عن العمل. جمد. بشكل ما معها حق في أنه كان كأنه يعرف، لكنه لم يكن يعرف. جزء منه ليس مفاجئًا تمامًا، لكنه لا يستطيع أن يصدق. ما معنى هذا الكلام؟ ما معنى أنها هنا في وسط الصحراء حيث لا أحد على الأرض يعرف مكانهما وترتدي هذه الملابس العجيبة؟ وحتى لو عرفت طريقهما بمعجزة، فكيف وصلت إلى هنا وحدها دون دواب ودون معونة إن كانت إنسانة طبيعية؟ ولكن كيف يمكن ألا تكون هند حقيقية؟ وماذا عن كل الذي دار بينهما، القتل والأحاديث ومغامرات أفغانستان وبيشاور؟ مع من كان طيلة هذا الوقت؟ ينظر إليها ويسأل نفسه عن كنه الذي يجري. أتكون مخلوقة نورانية مثلما تزعم؟ أتكون تهيؤات؟ كل هذه تهيؤات؟ وطول هذه المدة؟

- ما تتخضش قوي كده، ممكن تفكر في باعتباري جزء منك؛ الجزء النوراني.

وضحكت. فرك عينيه وقام وعاد فوجدها جالسة تبتسم. ذهب وغمر وجهه في الماء وعاد، فوجدها متبرمة من مقاومته ولكنها ما زالت مبتسمة. ذهب ناحيتها ولمس كتفها فوجدها هي.. هي التي يعرفها، بملمسها الذي يذكره جيدًا. نظرت له وهزت رأسها في نفاد

صبر. نظر لعمر مرة أخرى، لا يبدو عليه أنه يراها فعلًا. ذهب حيث يجلس عمر وحاول أن يحدثه وهو ينظر لهند ليتأكد من أنها ظاهرة من حيث يجلس، وهند تشير له بعلامة الجنون وتضحك. أدار وجه عمر قسرًا ناحيتها وسأله إن كان يرى شيئًا فأعاد وجهه وهو ينظر لأبيه في ضيق ولا يرد. عاد إليها، لكنه لم يستطع البقاء بجوارها وعمر على مرأى منه. خرج وأشعل نارًا وجلس أمامها. لحقت به. ظل يروح ويأتي بين المغارة والنار طول الليل وهي جالسة بجوار النار لا تتحرك. قرب الفجر، تثاءبت وقالت إنها راحلة؛ ستتركه مع ابنه الذي يحتاج لكثير من وقته وطاقته، مضيفة إن استعادته لابنه قد تكون أفضل شيء فعله. سألها أين ستذهب فقالت إنها ستعود من حيث أتت وأشارت إلى رأسه، ثم أضافت أنها ستطمئن عليه من بعيد لبعيد، وستعود لو شعرت أنه يحتاجها، وإن كانت لا تعتقد أن ذلك سيحدث. مالت عليه وطبعت قبلة حارة على شفتيه، ثم حملت حقيبتها الأنيقة وسارت بحذائها العالي في قلب الصحراء وهي تتعثر وتتذمر.

* * *

عندما مر الأسبوع الخامس وبدأت المؤن تدخل في المرحلة الحرجة، بدأ فخر الدين يقلق. لكنه ذكّر نفسه بما استقر عليه من قرار، لن يتحرك من هذه البقعة قبل أن يبدي عمر رغبة واضحة في العودة، ولن يغير موقفه الآن حتى لو انتهت المؤن، لن يجبر عمر على الرحيل.

في بداية الأسبوع السادس، تغير سلوك عمر بشكل ملحوظ. أصبح يتكلم أكثر، فيخبر فخر الدين أنه نظف للدواب مكانها بدلًا

من أن يشير له، أو يسأله عن نوع الحطب الذي عليه البحث عنه، أو عن نوع من الطعام أعده فخر الدين من عدة أسابيع ولم يبد وقتها على عمر أنه لاحظه. ثم طلب منه أن يخرجا للصيد، وطلب منه أن يعلمه كيف يتعرف على مكان الفريسة وكيف يطاردها. وقال لأبيه إنه أسرع وأخف من رأى، وأطرى ذلك المديح فخر الدين وجعله يبتسم. كانت هذه أول مرة يقول له عمر شيئًا إيجابيًا، وبدأ فخر الدين يشعر أن علاقة ما على وشك أن تنشأ بينهما، وأدخل ذلك بعض الاطمئنان إلى قلبه.

ذهبا للصيد وعادا بغزال، وأعدا الطعام سويًا. في المساء وهما جالسان أمام الشواء، سأله عمر عن حياته في القاهرة. حكى له عن الخالة مريم، وعن ليلى وعن تامر، ثم توقف. ولأول مرة يلاحظ أنه لا يعرف الكثير عن أهله ولا عن الحياة في القاهرة خارج نطاق القتل. وكي يجد ما يقوله لعمر، بدأ يمعن التفكير كي يتذكر تفاصيل تستحق الذكر أو تجتذب عمر للحياة التي تنتظره عند عودتهما. حكى عن الطفلين الذي يستذكر معهما دروسهما كل مساء في الثامنة، وكيف نجحا نجاحًا باهرًا هذا العام. أخبره كيف أن نجاحهما قد غير من شعورهما بنفسيها، في العام السابق كانا منطويان، لا يحبان المدرسة، ويشعران بالاضطهاد. عندما زادت قدرتهما على التحصيل بالمدرسة، زاد شعورهما بالثقة في أنفسهما، وتحسنت علاقاتهما بزملائهما وبالمدرسين، وأصبحا أكثر مرحًا. سأله عمر إن كان يفتقدهما فأجاب بهزة من رأسه، ثم ابتسم وقال إنه ينتظر عودة العام الدراسي كي يعود للاستذكار لهما.

حكى له عن تامر وشغفه بالحاسب الآلي وشبكة المعلومات، وعن المواقع التي ينشئها للشباب أصحابه. سأله عمر عن مزيد من التفاصيل مشيرًا إلى قيامه هو وأصدقاؤه بأشياء مشابهة ولكن للجماعة. فابتسم فخر الدين واعترف بجهله بهذه الأمور. مع التركيز تذكر أن تامر يساعد زملاءه من الشباب على إقامة مواقع خاصة بهم على شبكة المعلومات يكتبون منها مدونات ويتبادلون معلومات أو يبيعون منها منتجات، وأنه أراه على شاشة الحاسوب عشرات المواقع التي أنشأها للمدونين. تذكر أيضًا ما قاله تامر من أنه يطور حزمة أدوات تمكن شباب المتعاملين مع الشبكة من إقامة مواقعهم بأنفسهم، ويضعها على موقعه. أضاف أن تامر يساعد أمه في إدارة المركز الذي يساعد كبار السن في الحي على ضبط العلاج ونظام التغذية من خلال برنامج صممه هو وموقع على الإنترنت يسانده وأنه وإن لم يفهم بالضبط كيف إلا أن هذا ما ذكره تامر. سأله عمر إن كان هذا الموقع يحتوي على «موارد» للمستخدمين، فنظر إليه فخر الدين غير فاهم، وأردف مبتسمًا أن تامر أيضًا تعرف على خطيبته من خلال هذا العمل.

عمر ينصت بشغف. سأله عما سيفعله حين يعود وما إذا كان سيواصل ما كان يفعله في السودان وأفغانستان. أطرق فخر الدين ثم هز رأسه نافيًا. أضاف أنه قد انتهى من هذا الأمر، ويبحث عن طريق جديد ولكن لا يعرف ما هو بعد. سأله عمر عن قصة حياته، وعما أوصله لهذا، فلاحت شبه ابتسامة على وجه فخر الدين وقال إنها قصة طويلة ومملة، ربما يقصها عليه في وقت لاحق – عندما يصلان لقلب الصحراء سيكون لديهما ما يكفي من الوقت لذلك. اقترح عليه عمر أن يكتبها، فقال فخر الدين إن لديه تقريرًا كاملًا

وموثقًا عن حياته، فاستغرب عمر. ثم سأله إن كان من الممكن أن ينشره، ربما كرواية. هز فخر الدين رأسه ساخرًا وغير مصدق أن ابنه قال هذه الكلمات بالضبط. سأله عمر عن ليلى وعمرها، وما إذا كانت طويلة أو قصيرة، نحيفة أو سمينة، لون عينيها، وشعرها، وكيفية حديثها، وما إذا كانت تميل للمرح أم للجدية، وأنواع الطعام الذي تعده، وهكذا. ومرة أخرى اكتشف فخر الدين أنه لا يتذكر إلا بعد تفكير. سأله عن المركز العلاجي الذي قال له إنها أنشأته، وعن المرضى الذين تتابعهم، وحالتهم الاجتماعية، ومصير أهلهم ولماذا يحتاجون ليلى كي تتابع علاجهم وغذاءهم وعما تجنيه ليلى من ورائه. حدثه فخر الدين عن هذه الأشياء، وشرح له وجهة نظر ليلى وكيف أنها تجد متعة في مساعدة الجيران من كبار السن. قال له إن الممرضين والأطباء الذين عالجوا الخالة مريم كانوا يفعلون ذلك بتفان وإخلاص لا يفسرهما فقط الواجب الوظيفي، فهناك شيئًا إنسانيًا في أن تساعد المريض والعاجز حتى يتجاوز محنته. وصف له شعور أهل المرضى حين يتوفى واحد ويأخذه أهله، كأن مصيبة جماعية ألمت بهم كلهم. قال له فخر الدين إن هذا الشعور بضعف الإنسان وبالتضامن مع بقية الضعفاء لا يشعر به إلا من قضى أيامًا بالمستشفى يذهب ويعود على الخط الأحمر وهو يسأل نفسه كل يوم إن كان سيجد من يحب حيًا، ويسأل نفسه وهو يغادر إن كانت هذه آخر مرة يراه فيها. سأله عمر عن الخط الأحمر وعن طاقم المستشفى، فأخذ فخر الدين يتذكر ويحكي، غرفة العناية المركزة، الممرضون والممرضات، الدكتورة شيماء. استوقفه عمر وأمطره بأسئلة عن الدكتورة شيماء، ومرة أخرى فوجئ فخر الدين

بحجم التفاصيل التي يمكن للمرء أن يختزنها في ذاكرته دون أن يراها ساعتها، تذكر تفاصيل شكلها، لون عينيها، تسريحة شعرها، طولها، قوامها، مشيتها، طريقة حديثها وسرحانها وتوقفها في وسط الحديث، ابتسامتها العريضة، ووجنتيها حين تحمران وإطراقها مع ابتسامة مكبوتة قبل أن تستدير وتمضي. استرسل فخر الدين في الوصف هذه المرة دون أن يسأله عمر. ثم اكتشف أن النوم قد غلب ابنه بينما كان هو يحكي.

طلب عمر من أبيه أن يساعده في إتقان ركوب الخيل، وخرجا يتريضان ويلعبان مع الفرس، وفخر الدين يسند عمر ويساعده على امتطاء الفرس والقفز من فوقها عند الضرورة، ويركب معه أحيانًا كي يريه بعض المناورات الماهرة ويريه كيف يحكم السيطرة على الفرس ويدفعه لخطوات يخاف أن يخطوها. في البداية كان عمر يجفل حين يلمسه أبوه، لكنه تعود عليه شيئًا فشيئًا ثم صارا يتبادلان اللكز والدفع والجذب ويتسابقان وأحيانًا يقفز عمر ممسكًا به كي يمنعه من الفوز. في آخر أيام هذا الأسبوع، أطفأ عمر النار وقال لفخر الدين قبل أن يخلد للنوم: «تصبح على خير يا أبو عمر». ابتسم فخر الدين ورد في حنان: «تصبح على خير يا عمر!».

في الصباح قال عمر إنه يريد بدء رحلة العودة لمصر إن كان لا يمانع. أشرق وجه الأب ووافق على الفور. قضيا النهار في جمع حاجياتهم وتجهيز الناقتين والفرس والحمارين وإزالة ما استطاعا من آثار لإقامتهم. كان من المستحيل إزالة كل الآثار التي تركوها، بقايا النار، والدخان على جدار الكهف الذي كانا ينامان فيه، وبقايا الدواب والأكل وآثار أقدامهما حول المكان وغير ذلك. أزالا ما

استطاعا إزالته، وتركا الباقي لعاصفة رملية قوية أو اثنتين ليتكفلا به. وضعا المؤن على ظهر الحمارين، وربطا الفرس إليهما، وامتطيا ظهر الناقتين الباركتين على الأرض، وابتسم فخر الدين في رضا والناقة تقوم به وبابنه ويبدآن المسير وهو يفكر في المسافة التي قطعاها هو وعمر حتى التقيا.

تحركا بعد أن مالت الشمس للمغيب وسارا طوال الليل. عمر يحاذي أبيه ويستعلم منه عن الطريق وكيفية الاستدلال بالنجوم ومواقع الآبار في الطريق وأقرب الواحات وسكانها وغير ذلك من شئون السفر في الصحراء. من وقت لآخر يسأله عن نفسه وكيف تعلم كل ذلك، وما إذا كان قد سافر وحده كثيرًا في الصحراء. وفخر الدين سعيد سعادة غامرة بهذه الأسئلة. لو ترك فخر الدين لنفسه العنان لقص عليه كل ذلك بالتفصيل ولشرح له عواطفه وأفكاره وعذابه طيلة هذه السنوات. لكنه يمسك نفسه كيلا يخيف الصبي، ويعزي نفسه بأن هناك وقت كثير ليعلمه فيه كل ما يعرف، ويتناقش معه وهو يكبر.

استراحا بعد الشروق ووجدا تلة نصبا خيمتهما في ظلها. استراحا بعض الوقت ثم ذهبا لجمع الحطب والبحث عن الماء والتقيا بعدها بساعة. وجد عمر حطبًا ولم يجد فخر الدين ماءً؛ هناك بئر قريبة لكنها جافة. لا بأس، قال، فمعهما من الماء ما يكفي لأيام. استراحا بقية النهار واستأنفا المسير عند المغيب. سارا طوال الليل كما اليوم السابق واستراحا في اليوم التالي عند بقعة أخرى، ولكن مرة أخرى كانت بئرها جافة. قرب مغيب الشمس وبينما يتأهبان للمسير قال عمر إنه متعب ويود لو ارتاحا هذه الليلة. اعترض فخر الدين؛ فمن

الأصوب العثور على بئر ماء أولًا. لكن عمر ألح قائلًا إن ظهره يؤلمه وإن معهم من الماء ما يكفي خمسة أيام. رضخ الأب، وخلدا للنوم مبكرًا. في الصباح، استيقظ فخر الدين فلم يجد عمر ولا الفرس. ظن أن عمر قد ذهب للتريض أو للبحث عن الماء، لكنه لم يعد حتى الضحى. قام ينظر عند الدواب والمؤن فوجد الدواب في مكانها، ولكن معظم المؤن والماء قد اختفى. لقد فر عمر.

قضى فخر الدين ثلاثة أيام بلياليهم في البحث عن عمر دون جدوى. يخرج في الصباح على ناقته ويبحث في اتجاه، ثم يعود عند الغروب ويخرج على الناقة الأخرى يبحث في اتجاه ثان حتى بعد الفجر. يعود عند شروق الشمس ويأخذ الناقة الأولى باحثًا في اتجاه ثالث. فر عمر بالفرس الوحيد، ومهما عدت النوق فلن تجاري سرعة الفارس الهارب. أين اختفى في هذه الصحراء؟ ولماذا فعل ذلك؟ بعد أن ظن فخر الدين أن فرصة أخرى قد سنحت لهما. كان قلبه يؤلمه وهو يجوب الصحراء على ناقة متعبة، يعدوان في الفراغ. عمر لن يعرف الطريق في هذه الصحراء المخادعة. الأسئلة التي كان يسأله إياها لن تغنيه شيئًا، لا أحد يعبر صحراء الجلف الكبير إلا من خبرها بنفسه وتعلم دروبها مرة بعد مرة. بحث في كل مكان خطر بباله، ذهب في كل الاتجاهات، دون أن يجد له أثرًا. أأصابه مكروه أثناء فراره؟ لو حدث ذلك لعثر على أثر له أو للفرس، لكنه لا يجد أي شيء، وكأن الفتى تبخر. ثلاثة أيام بلياليها، وفخر الدين يطوي الأرض في كل الاتجاهات بحثًا عن ابنه أو عن أثر يدل عليه، دون فائدة. ومع كل ساعة تمر يتقلص الأمل وتختنق روحه أكثر. لن يستطيع عمر أن يصمد في الصحراء وحده. لا يمكن للمؤن

التي يحملها ولا للفرس نفسها أن تصمد، ولا توجد واحة واحدة قبل مسيرة أيام. اليوم الرابع، وفخر الدين سائر في شمس الصحراء ينظر دون جدوى. الشمس تلمع، وعينا فخر الدين اللتان لم تناما منذ أربعة أيام تنكمش تحت اللظى. يغمضهما ويفتحمها فتقتحمها ومضات الشمس وحبات الرمل، لكن لا أثر لعمر أو لفرسه. قضى اليوم الرابع في بحث يائس. فهم ما فعله ابنه الغاضب؛ قرر الانتقام منه فغرس الأمل في قلبه ثم اقتلعه بقسوة. يطوف نهارًا بالأماكن التي بحث فيها في الليل، واليأس يزحف إليه مع كل ساعة تمر. أربعة أيام مضت والمؤن تتلاشى والدواب تخور ضعفًا وفخر الدين لا يجد الطعام أو الماء الكافي لها أو له. أربعة أيام وفخر الدين لا ينام، يطوف في الصحراء وهو لا يكاد يرى بعينيه الموزعتين بين اليقظة والغيبوبة، وصور تمر أمامه لا يعلم أن كانت من نسج خياله أم من ذاكرته أم من الواقع. في اليوم الخامس، أدرك أن النهاية قد حانت فقرر العودة للمغارة التي آوتهما الأسابيع الماضية، فبجوارها ماء له وللدواب. لكنها على مسيرة يومين وربما لا يصل إليها حيًا وهو ودوابه منهكون جوعًا وعطشًا. لكن لم يبق أمل آخر؛ لعله يجد عمر هناك، أو ليهلك هو الآخر. وعد نفسه ألا يعود دون عمر، وهذا تحقيق الوعد. جلس على ناقته وعاد جنوبًا باتجاه المغارة. سار دون توقف والسماء والشمس والليل يتداخلون ويتمازجون، حتى أظلمت الدنيا من حوله وانقطعت الأصوات.

* * *

كان وجه الدكتورة شيماء هو أول ما رآه حين فتح عينيه. وجد بشرة وجهها السمراء الناعمة في وجهه. دقق في ملامحها، مسام

بشرتها طيبة، وظل ابتسامة يقيم على شفتيها وفي طرف عينيها. نظر إليها فأومأت:

– حمد لله على السلامة!

– أنا فين؟

– في المستشفى. انت حاسس بإيه؟

– أنا إزاي في المستشفى؟

– آه! إنت بقى وأسئلتك اللي مابتخلصش. اقعد ساكت وخليك كويس وسيبنا نعالجك.

قطب فخر الدين حاجبيه. لم يعتد أن يحدثه أحد هكذا. كيف وصل للمستشفى؟ وأين عمر؟ حاول النهوض من فراشه فوجد نفسه مقيدًا بسلاسل حديدية في الفراش. شيماء واقفة بجوار الفراش تنظر في أوراقه الطبية. أشار للسلاسل فأومأت أن هذا أمر عادي. تحركت ناحيته وجلست على مقعد بجوار رأسه. يلمح طرف ركبتيها السمراوين ورداؤها الطبي الأبيض يتحرك فوقهما. يغيب ويعود للوعي وهي تحدثه. حكت عن أمها وعائلتها والحياة المقيدة التي يفرضها المجتمع المحافظ على شابة مثلها. حدثته عن رغبتها في التخصص في الطب الوقائي، والمشروعات التي تحلم بإقامتها والتي يمكن أن ترفع مستوى الصحة العامة بنفقات زهيدة. قالت إنها لا يرضيها الواقع الذي تعيشه، لكنها لا تستطيع تحطيمه وحدها، وإنها تدرك ضعفها وتتقبله وتحاول أن تجد وسيلة لتحسين حياتها تتناسب وقدراتها.

دخلت ليلى إلى الغرفة تسند الخالة مريم وجلستا في صمت. واصلت شيماء الحديث وسألته إن كانت ليلى قد أخبرته أنهما اتفقا على تحويل مشروع ليلى لعيادة وقائية متكاملة، وأنها ستصبح الطبيبة المسئولة عن العيادة وستخصص لها جزء من وقتها دون ترك عملها الأصلي. قامت من على مقعدها وفحصته ثانية. فتحت زرار قميصه الأبيض ومسدت صدره ثم قبلته بحنان على صدره وسألته إن كانت تعجبه. فاجأه السؤال، وحين حاول الرد وجد فمه مغلقًا بشريط لاصق من النوع الذي يستخدم لتوصيل الأسلاك الكهربائية. نظر لليلى ولخالته فلم يبد عليهما استغراب لما تفعله وتقوله الطبيبة المنطلقة. تحسست شيماء الشريط اللاصق بيدها وابتسمت ثم استطردت بأنها معجبة به منذ رأته، وأنها متأكدة من ملاحظته ذلك رغم تجاهله لها. نظرت للخالة مريم التي أومأت مؤكدة أن النساء تعرف هذه الأمور دون كلام. أضافت شيماء أن رؤيته كل يوم كانت تشعرها بالدفء في جسمها كله وفي قلبها، وأنها لم تكن تسمع نصف ما يقوله لأن صوته يربكها. مدت يدها تتحسس وجهه وصدره وهي تحدثه. قالت له ألا يخاف، وأنها تعلم ماضيه كله ولا ترى غضاضة في أي منه، فيمكنهما أن يلقيا بذلك كله خلفهما ويبدآ حياة جديدة معًا. سرحت بنظرها ويدها لا تزال على صدره ثم أضافت أن الدنيا بها أشياء كثيرة ألطف من القتل، وأن مهنتها أن تعالج الناس من أمراضهم لا أن تعاقبهم عليها. عادت بعينيها لعينيه وابتسمت وهي تربت على يده وقالت له أن يطمئن، فيمكنهما أن ينجبا أطفالًا كثيرين بدلًا من هؤلاء الذين قتلهم. مالت عليه، وخلعت الشريط اللاصق من على فمه دون أن يشعر بألم. طبعت على شفتيه قبلة طويلة ودافئة، ووضعت الشريط مرة أخرى، وخرجت.

قامت ليلى وربتت على يده وهنأته بالسلامة وبوصول عمر. أخبرته أن تامر أخذ عمر في جولة بالقاهرة كي يعرفه على مدينته الجديدة وأنه سعيد جدًا بظهور ابن خاله. سألته في عتاب عن سبب تأخيره في إحضار عمر، وما إذا كان يظن أن أم ياسر كان يمكن أن تكون أمًا أفضل منها. حاول أن يرد لكنها ربتت على الشريط اللاصق على فمه مضيفة أن ذلك غير مهم الآن، فهي سعيدة بعودة عمر وسعيدة بزواجه من شيماء. رد بأنه لم يتزوج بشيماء، ليس بعد على الأقل، واستغرب أن صوته خرج هذه المرة واضحًا رغم الشريط اللاصق. فنبهته ليلى أنه لا يمكنه الكلام بسبب وجود الشريط اللاصق على فمه فاعتذر وصمت. أكدت له عدم معارضتها لارتباطه بشيماء، فهي تناسبه أكثر منها وأكثر من أي امرأة قابلها، وأضافت أن هذه علامة رضا الله عنه إذ يعطيه مثل هذه الفرصة ليبدأ من جديد. قالت ليلى إنها أخته منذ كانا طفلين وأنهما سيظلان هكذا، ورجته ألا يقلق، وشكرته على كل ما فعله من أجلها. نظرت للخالة التي أومأت مؤكدة على ما قالته، ثم سألته عن دوائها، وعما إذا كان سيذاكر للطفلين كعادته أم لن يستطيع بسبب الشريط اللاصق.

* * *

كان وجه عمر أول ما رآه فخر الدين حين فتح عينيه. واصل عمر مسح وجه أبيه بقطعة قماش مبللة وتقطير الماء على شفتيه. وجه الفتى صارم. يقوم بعمله بآلية دون أن يبدو عليه ولو ظل ابتسام لعودة فخر الدين للوعي. أفاق فخر الدين وفتح عينيه وذهبت أشباح الخالة مريم وليلى وشيماء. أغلق عينيه ثم فتحهما ثانية ونظر إلى المغارة ليتأكد أين هو. قام عمر من جانبه ومضى لنهاية المغارة وقبع هناك.

وجد فخر الدين بجواره طبقًا صغيرًا به قطع من الخبز الجاف وكوب صغير من الماء المحلى بعسل. أراد أن يسأل عمر ألف سؤال. أراد أن يقوم ويمسك به، ليتأكد من أنه حقيقي وليس حلمًا أو تهيؤات جديدة. لكنه لم يستطع أن يتحرك. أسبوع بلا نوم وبلا طعام كاد أن يقضي عليه. أراد أن يتكلم فجاءت كلماته مبعثرة. نظر لعمر الذي أخذ يدخل ويخرج من المغارة، يحمل أشياء ويضع أشياء، يغيب ويرجع دون أن يلقي نظرة واحدة باتجاهه، ثم عاد للنوم مرة أخرى.

يفيق، يأكل بعض الخبز الجاف ويشرب بعض الماء. أحيانًا يجد زيتونة أو بقية عسل أو تمرة. يعرف جيدًا هذه المؤن؛ هو الذي جمعها، ويدهشه أن عمر أبقى على بعض منها. يدهشه أنهما ما زالا على قيد الحياة. بقيت هذه المؤن أكثر مما قدر لها. يتناول كسرة خبز أو جرعة ماء ويظل يقظًا قليلًا ثم يغفو. مع الوقت صارت يقظته أطول، لكنه لم يقو على مغادرة فرشته. الشمس تدخل المغارة في الضحى، فيستجمع فخر الدين قواه ويجلس في مواجهتها، ثم تذهب الشمس فيعود للاستلقاء. عمر يروح ويجيء دون أن ينظر إليه. كأنهما عادا لما كانا عليه في أول الرحلة، لكن عمر يبدو أكبر. كان قد أعد كل شيء من حولهما إعدادًا جيدًا؛ اعتنى بالدواب وأطعمها وسقاها، واقتصد في استعمال المؤن، وأحضر من الماء ما يكفي وملأ الخراج احتياطًا. المكان نظيف ومرتب، والحطب مرصوص في حزم بآخر المغارة، وهناك بقايا شواء. لقد اصطاد عمر لنفسه! وضع مزيدًا من الماء أمام أبيه. ابتسم فخر الدين:

- شكرًا.

نظر إليه عمر في حذر:

- العفو.

- حانعمل إيه دلوقت؟

- معرفش.

- انت إيه اللي رجعك هنا؟

- معرفش الطريق للواحات، خفت أتوه.

- معقول؟ ده انت سألتني عن كل تفصيله فيه؟

- قلت استنى لما تبطل تدور عليه.

- ماكنتش حابطل غير لو مت.

- أستنى لغاية ما تموت.

قالها ببساطة ونظر لأبيه في عينيه. ابتلعها فخر الدين.

- ولما أموت كنت حاتعمل إيه؟

- لما تموت حاتبقى ميت ومش حتسألني الأسئلة دي.

- تعرف إن فيك حاجات كتير شبهي؟

- حاييجي منين الشبه؟ هو أنا شفتك قبل كده!

- من الچينات.

- بيتهيأ لك. ما حدش قال إني شبهك. ولو فيَّ حاجة شبهك بالچينات حابطلها. أنا مفيش حاجة ماقدرش اعملها.

- مش قلت لك؟

- اسمع بقى. أنا زهقت من الكلام ده ومن اللعب ومن اللف والدوران. انت عايز إيه؟ عايز مني إيه؟ رجعت ليه؟ حد طلب منك تيجي؟ حد قالك اني عايز اشوفك؟

- رجعت عشان انت ابني وانا أبوك.

- من إمتى إن شاء الله؟ لا انت أبويا ولا أنا ابنك وإنت عارف كده كويس. انت شفتني كام مرة؟ كلمتني كام مرة؟ تعرف عني إيه؟ كنت فين لما كنت باترمي من مصيبة لمصيبة انقح منها؟ كنت فين لما كنت باتبهدل ويتمسح بكرامتي الأرض ويدوسوا عليه عشان يتيم وما ليش أب؟ يا ريت يتيم، ده أبويا عايش بس رماني. كنت فين وهم بيتحكموا فيَّ بجبروتهم اللي مالوش حد؟

- كنت...

- عارف، كنت زيهم بـ«تجاهد في سبيل الله»، انت وبقية المغاوير اللي رمت عيالها وسافرت على أفغانستان، أبو مصعب وأبو مسهل وأبو قتادة وأبو عبيدة وأبو معرفش مين. ربنا ينتقم منك ومنهم. والنبي مش حاجة غريبة انكم مسميين نفسكم بأسامي عيالكم اللي رميتوها؟

- أنا آسف، حقيقي آسف.

- أنا عايز أعرف حاجة واحدة، انت عملت إيه؟ حققت إيه؟ ضحيت بيَّ وكسبت إيه؟

وجم فخر الدين. صمت عمر لحظات. كان صوت تنفسه يعلو. استطرد وهو ينظر في الهواء بعيدًا:

– أنا عايز أقولك حاجة عشان نقصر الكلام، أول نقطة انك ما تكلمنيش على إنك أبويا. إنت مالكش عندي حاجة. إنت مجرد واحد حبّل أمي. مفيش أي واجب عليّ ناحيتك. تاني حاجة لازم تفهم كده إني باكرهك، ولو سبت نفسي كنت قتلتك.

– طيب ليه ما سبتنيش أموت؟

– كنت ناوي، وفضلت اراقبك وانت رايح جاي بتلف حوالين نفسك وكل يوم تقرب من الموت أكتر. ماكانش فاضل عليك حاجة، كل اللي كان علي أعمله إني ماعملش حاجة واسيبك تقع. بس ماحبيتش أكون زيك.

– إنت كبرت قوي يا عمر، قوي، وبقيت قاسي قوي.

– إنت السبب. لازم تفهم إن انت السبب في كل حاجة وحشة حصلت لي.

– أنا عارف، ومقر بمسئوليتي. أنا عارف إني قصّرت في حقك وأهملتك. ماكانش عن قصد ولا لأني ما بحبكش، لكن كان فيه حاجات تانية مشيت وراها. أنا عارف إني مخطئ. كلنا بنغلط، بننسى حاجة، نغلط في حاجة. ممكن خطأ واحد تعمله يفضل يطاردك طول عمرك. أنا معترف بخطئي، وجيت عشان أحاول أصلحه.

– أنا مش محتاجلك خلاص. بس عايز أعرف ليه؟ ليه رميتني؟

- أنا ما رميتكش. أبدًا. أنا افتكرت إن كده أفضل، انك تعيش مع عائلة وأولاد وبنات تانيين. أنا آسف. كان لازم أفكر اكتر من كده. كان لازم أهتم اكتر من كده وأعرف إن وجودك جنبي أهم. مش حادور على تبرير، لكن الحقيقة إني أنا كبرت بدون أب أو أم وماكانش عندي نموذج أعمل زيه. ما فكرتش.

- كان لازم تفكر. وعذرك مش عذر، بالعكس، كونك كبرت يتيم كان لازم يخليك تحس اكتر.

استمرا في الحوار ساعات طويلة دون أن يصلا لنتيجة محددة. كانا يقولان بعضهما لبعض ما يريدان أن يقولاه، وكفى. في النهاية، طلب فخر الدين الصفح من ابنه وأن يعطيه فرصة أخرى، وقال الفتى إنه لا يستطيع أن يثق فيه، فهو قد خانه من قبل وليس هناك ما يضمن ألا يخونه ثانية. عند هذا الحد ساد صمت ثقيل، ولم يزد أيًا منهما كلمة. قام عمر بعدها وذهب للنوم، ورقد فخر الدين في فرشته وتغطى وأغلق عينيه.

* * *

في الصباح جمع عمر أشياءهما وجهَّز الدواب وقال لأبيه إنهما راحلان. سأله فخر الدين إلى أين، فأجاب الفتى في تصميم إنهما سيعودان لمصر. قال فخر الدين إنه لن يقوى على الرحلة، فأمره الفتى أن يتماسك، فلا خيار أمامها وإن لم يرحلا الآن فسيفنيان في هذه الصحراء. سأله فخر الدين إن كان يريد العودة للسودان حتى يتعافى وينتقم له من الشيخ حمزة، فرد الفتى أنه لا يريد انتقامات، وأنه أقوى من حمزة، ويفضل أن يدعه يهمع في غيِّه على أن يحول نفسه لقاتل

مثله. استحثه الفتى، فالطريق طويل والمؤن شحيحة. قال له إن كل ما عليه فعله أن يبقى حيًا فوق ناقته، ويدله على الطريق كيلا يضل. سيقتصدان في المؤن، وفي الماء، ويغامران على أمل أن يمن الله عليهما بصيد أو بئر. نظر الفتى لأبيه المريض وأضاف أنها مغامرة، فمن غير المؤكد أن يتمكنا من الوصول لغايتهما أحياء، لكنه مستعد للمحاولة. أراد فخر الدين الاعتراض، لكن الابن حثه على الإسراع. ساعده على الخروج من المغارة وهو ملتحف بغطاء ثقيل ليحميه من الريح والرمل وتقلب الجو في الليل. أناخ له الناقة وساعده على الاستواء عليها. بقية الدواب محملة بالقليل من المؤن الذي تبقى لهما. خراج الماء ممتلئة. امتطى عمر الفرس الوحيد وسحب الناقة الأخرى خلفهما وأشار لأبيه ببدء التحرك، وسأله أن يتماسك قدر الإمكان فالطريق أمامها طويل.

* * *

عمر جالس على ظهر ناقته وينظر من حين لآخر لأبيه المكوم فوق الناقة الأخرى. اقتنع الآن أن أباه طيب القلب، أطيب كثيرًا مما كان يظن، لكنه متخلف، قطعًا، بل وبه درجة من العبط، ولا يصدق كيف وثق به الرجل بهذه السرعة. لم يأخذ الأمر أكثر من أسبوع، بعض الابتسامات، وبعض الركض وركوب الخيل والسمر. ورغم أن عمر لا يحب أن يلمسه أحد إلا أنه ترك أباه يربت على كتفه، وظن أنهما بذلك صارا أبًا وابنًا بحق وحقيق. ثم وثق به، هكذا. لو كان فخر الدين شريرًا مثلما يظنه لما وثق به بهذه السرعة، بل لما وثق به أبدًا.

لكن لماذا لم يتركه هو يموت؟ يسأل نفسه هذا السؤال ويعرض عن الإجابة. أيكون قلبه قد حن لفخر الدين؟ هل كان يخدع فخر الدين أم يخدع نفسه حين قرر مجاراة الأب في لعبته؟ ألم يكن في حقيقة الأمر يتوق لمبادلة الأب الود والملاطفة، ولو مؤقتًا، ولو تحت مسمى الخداع؟ هل يمكن أن يكون قد غفر له بمجرد أن ذاق عذوبة الشعور بوجود أبيه؟ وإن لم يكن يريد بقاء أبيه معه فلِمَ لم يتركه يموت في تيهه؟ لقد راقبه يومًا بعد يوم وهو يجري بعرض الصحراء كالأعمى الذي لدغته عقرب ويحاول الفرار منها ولا يدري أين هي ولا أين يذهب. ليس هذا هو فخر الدين الذي سمع عنه، ليس هذا هو النسر الذي يردي فريسته قتيلًا بطلقة واحدة بين رشفتي شاي. كان ضائعًا، وترك نفسه وإبله تهوي نحو الموت. النسر الذي سمع عنه لم يكن ليسمح لنفسه بهذا الضعف. كان مضى لحال سبيله، فأيًا كانت الفائدة التي ستعود عليه من عودة عمر معه لا يمكن أن تساوي موته. لا يجد عمر تفسيرًا لذلك إلا أن يكون فخر الدين يريده قتيلًا. ضمير استيقظ أو - من يدري - ربما عاطفة، ربما تذكره حين علم أن الجماعة ستقتله؟

يجلس على ناقته ويفكر كيف لم يجادله فخر الدين بالأمس ولم يبحث عن عذر أو يحاول الدفاع عن نفسه. لم يتوقع هذا. توقع أن يغضب أباه، أن يقوم ويحطم الأشياء ويضربه ويرفع سلاحه في وجهه أو يطلقه عليه، أو أن يصرعه بواحدة من ضربات قبضته الشهيرة. لكنه ظل هادئًا في فرشته، يعتذر مرة بعد مرة، ويعترف بخطئه، ويكاد يدمع. لم يتوقع ذلك البتة. حاول أن يستثير غضبه قدر استطاعته، قسا عليه بأكثر مما يشعر، لكن أباه لم يغضب ولم يثر، بل ظل يعتذر ويطلب فرصة أخرى.

فرصة أخرى؟ آه لو يعرف كم يتوق لفرصة أخرى، لأب حقيقي، وحماية، وبيت، ومدرسة، وشارع به جيران لا يقتلون أحدًا، وأصدقاء، وأم، أو شبه أم. يجلس على الناقة ويحلم أحيانًا أن أباه قد تزوج بليلى أو بشيماء أو بالاثنتين معًا، وأنهم يعيشون سويًا كعائلة. ثم يفكر فيم سيفعل في مصر؟ هل سيعود الأب للقتال؟ لا يدري ما هو الأسوأ، أن يكون كل هذا غطاء لتنظيم آخر أم أن يكون النسر فعلًا بهذه الرحمة وأن يتبناه فعلًا. هل يستطيع أن يترك نفسه يأمل في أب من جديد؟ هل يسمح لنفسه بأن تحن وتصدق، أم إن فخر الدين مصاب الآن بلوثة مؤقتة سيشفى منها كي يجد عمر نفسه مرة أخرى في الشارع يبحث عن أب؟

يقود القافلة الصغيرة وينظر لأبيه العليل. يخاف أن تتدهور حالته، ويخاف أن يشفى. لا يعرف ماذا يفعل به في الحالتين. إن كان فخر الدين فعلًا بالطيبة والحب الذي يبديهما، فلماذا لم يأت من زمن. كانا يضحك من قلبه وهما يتسابقان. الأب لا يحسن السباق لكنه أقوى، وعمر متأكد أنه سيسبقه بعد شهور قليلة من التدريب. سيبدأ بالجري، كما وعده فخر الدين بتعليمه السباحة في ناد رياضي قريب من البيت. حدثه عن لطف تامر مؤكدًا أنه سيسعد بإشراكه معه في مشروعات الكمبيوتر التي يعملها. كما قال له إن هناك ولدًا وبنتًا آخران يساعدهما في دروسهما كل يوم؛ وسأله عمر على الفور لماذا لم يكن يساعده هو الذي لم يفهم في حياته درسًا واحدًا بالمدرسة ولا بمدرسة القرآن وكان معلموه يضربونه طول الوقت. أجاب فخر الدين أنه يمكنه مساعدة ثلاثتهم، وأخبره أنه لم يذهب للمدرسة عندما كان في سنه وحصل دروسه بالبيت ودخل الامتحان. قال له إنه يمكنه أن

يفعل ذلك بحيث يذهب للجامعة في سنه الطبيعي. فكر عمر ماذا سيدرس بالجامعة؟ لن يدرس القانون مثل أبيه، ولا المفرقعات، ولن يلتحق بالكلية العسكرية - ربما الطب؛ يمكنه أن يكون جراحًا جيدًا. هذا ما قاله له أحد أطباء الجماعة حين ساعده في بعض العمليات بالمزرعة. قرر أن يستشير الدكتورة شيماء إن وجدها لطيفة، ربما يمكنها أن تساعده، فيبدو من حديثه عنها أنها لطيفة.

جال بخاطره أيضًا أن يساعد ليلى في العيادة الغريبة التي أنشأتها. يمكنه تولي الأشياء التي كان فخر الدين يفعلها، شراء الأدوية وتوزيعها وغير ذلك. هكذا سيتعرف على سكان الحي، ويمكن أن يقابل بنات. لم يسبق له التعرف على أي بنت. في المزرعة يبقونهن مع أمهاتهن بعيدًا عن الأولاد. لا بد أنه سيتعرف إلى كثيرات في الحي، ومن يدري، ربما يجد فتاة مثله، يتيمة أو خذلها أبوها، وتبحث مثله عمن تحكي له وتشاركه. ماذا سيفعل أيضًا؟ يمكن أن يأخذ الخالة مريم في التمشية اليومية التي نصحها بها الطبيب. ربما حكت له حكاية أبيه من أولها، وحكاية جده وجدته وكل هذه القصص. خفق قلبه وهو يتساءل إن كانت الخالة تعرف أمه. لا يريد أن يحدث فخر الدين عنها. ربما ستقول له ليلى أشياء عنها أو عمن يعرفها. لا بد أن لديهم صورة لها. يريد أن يعرف شكلها. بعد ذلك يمكن أن يبحث عن مريم أخته ويقابلها: أكيد هي لديها صور وحكايات عن أمهما.

- لما نروح مصر، عايز أشوف مريم.

- مريم مين؟

- أختي. مش اسمها مريم؟

- آه. بس... معرفش إن كانت في مصر ولا في باريس مع أبوها.

- دور عليها. أنا عايز أشوفها. عايزها تيجي تعيش معايا شوية وأروح أعيش معاها شوية. عايز اختي، هي دي حاجة غريبة؟

- لأ، مش غريبة. حاضر. لما نوصل مصر إن شاء الله.

يدرك أنه لم يعد ضعيفًا أو خائفًا منه. بل يشعر أنه الأقوى؛ أنه هو الذي يحمي أبيه الآن، هو الذي يحمله؛ فخر الدين مجرد بوصلة. أما عمر فهو الذي يقود هذه القافلة. سيراقب أباه، وإن تخلى عنه مرة أخرى فلن يرحمه. استوى عمر على الناقة وقال لنفسه إنه سيرقب جيدًا كيف ستسير الأمور بينهما في المستقبل، أما الآن فعليه أن يركّز في الطريق كيلا يموتا كلاهما في هذه الصحراء.

* * *

تعب فخر الدين. ولا يريد الآن سوى أن يستلقي على الأرض وينام، ينام طويلًا، أطول وقت ممكن. ظلت تلك الرغبة عالقة في ذهنه وهو يغفو ويفيق على الناقة العجوز التي تصعد وتهبط به في بحر الرمال المحيط. يغفو ويستيقظ والضوء يتداخل في عينيه مع أطياف لم يعد متأكدًا مما إذا كان يراها أم يتخيل وجودها. ربطه عمر جيدًا كيلا يسقط؛ ومن حين لآخر يسأله سؤالًا عن الطريق كي يتأكد من أنه مستيقظ، أو حي، فيجيبه ثم يعاود الغفو. أجهدته الأسابيع الماضية وزلازلها، وقضت هند الوهمية على ما فيه من ثقة في صواب نفسه، ثم أجهز عمر وخداعه له على ما تبقى فيه من عزم.

لا يريد الآن سوى الراحة؛ كان يأمل أن يقضي ساعات النهار مستلقيًا على الأرض المنبسطة، لكن عمر قرر مواصلة السفر أثناء

النهار. لا يتوقفا إلا ساعة كي تستريح الدواب. قال عمر إنه لم يعد أمامهما حل آخر إن أرادا الوصول على قيد الحياة. ولم يجادله. لم يعد يقوى على الجدال. يبدو له أن عمر يقود القافلة بشكل جيد، وإن لم يكن فهو على الأقل يقودها، أما هو فلم يعد يستطيع. كل ما يريده هو أن يستلقي على الأرض وينام. تنبسط روحه على رمالها مثل سقف خيمة تخلص من أوتاده وطار. تنفرد روحه وتسبح فوق الرمال: الشمس تجففها من الرطوبة ويغسلها المطر، ثم يرميها الرمل فتصير خشنة وقوية ولينة كسعف النخيل الحي. لم يعد يرغب في شيء، أيامه انقضت، وكل ما يريده الآن هو أن يرقد فوق هذه الرمال كي يذوي في هدوء، وينثر روحه فراشات صغيرة تحوم في هذا الفضاء إلى الأبد.

نفدت قوته. ذهبت في جبال ووديان وشوارع وأنهار وبحار وصحاري، ولم يعد أمامه الآن سوى الإقرار بوصوله لنهاية حدوده. لا يستطيع المضي أبعد من هذا. انهارت خططه، فقد السيطرة، وصارت الأشياء تحدث له بدلًا من أن يجعلها تحدث. رجا عمر أن يرحل مع ما تبقى من مؤن ويتركه، فلن يحتمل رحلة العودة الطويلة في كل الأحوال. لكنه أصر على اصطحابه، قائلًا إنه لن يتركه يتحلل من مسئوليته إزاء الخالة مريم وليلى وتامر وأن يقترف نفس الجريرة التي اقترفها إزاءه.

سأله عمر لم تصرف في حياته وكأنه مسئول عن الكون، فسكت فخر الدين. كان يحاول نشر العدل ودفع الظلم. هل كان ذلك غرورًا منه أم براءة زائدة؟ هل كان عليه أن يترك العالم لفساده ويهتم هو بخالته وابنه وتعليم طفلين ومساعدة بعض العجائز المرضى؟ ولو كان قد فعل ذلك، فمن يقف للظلم؟ لكنه الآن يتساءل عما إذا كان

قد أخفق في الأمرين وقضى عمره شبحًا يطارد أشباحًا. طار فوق الأرض كلها خلف هدف يراوغه، فلم ير شيئًا مما يستحق النظر في الطريق. يفيق ويرمي ببصره بعيدًا فلا يرى سوى تلال من رمال. يتمنى لو أنه رأى الأشياء الأقرب مثلما رأى الأشياء البعيدة. ربما لو كان قد رأى شيرين حقًا وعرفها حقًا لاستطاع إنقاذها، أو فهم وتركها لعالمها الذي تنتمي إليه. وأين مريم؟ كيف تركها واختفى هكذا؟ يسأل نفسه إن كان قد رأى ناصر وعلي حقًا؛ إن كان قد رأى أحدًا ممن أحب أم كان يعظ طيلة الوقت ويبحث عن العنقاء كي يصرعها.

قال عمر إن كل ما يطلبه منه هو البقاء حيًا. وهو يريد أن يحاول. يحب هذا الفتى. وكلما تكلم، عرف أن هذا الملاك الجريح ابنه وقطعة منه. لكنه ليس متأكدًا من استطاعته البقاء حيًا مثلما وعده. ليس لديه ما يعود له. ذهب طعم الحياة منذ زمن، ثم فقد الهدف الذي بقي له. صرع العنقاء، واكتشف ألا حياة له خارج أشباحه التي أدرك الآن نهائيًا أنها مجرد أشباح. يأتي عمر كل ساعة ويطمئن عليه؛ يطعمه ويسقيه ويشجعه. وفي كل صباح يجعله يعده بالصمود يومًا آخر. وفخر الدين يرقبه ويرى كيف يزداد عمر قربًا منه يومًا بعد يوم. وفخر الدين يعده، لكنه لا يعلم أن كان سيستطيع الصمود أم سيستسلم لرغبته الجارفة في الفناء على رمال هذه الصحراء التي يعرفها وتعرفه.

- تمت -

القاهرة ٢٠٠٩

تنويـه

هذه الرواية قائمة على خيال محض، لكنني استعنت في صياغتها بعدد من الكتابات التي تناولت حياة تنظيمات عربية مقاتلة في السودان وأفغانستان، بعضها دراسات وبعضها أحاديث مع عناصر من هذه التنظيمات وبعضها اعترافات أدلى بها مشاركون في أنشطتها، وبعضها بيانات صدرت عن هذه التنظيمات. وفي كل ذلك، اقتربت هذه الرواية في بعض تفاصيلها من وقائع حقيقية، لكنها ظلت بعيدة عن هذه الوقائع من حيث تسلسل الأحداث وأماكنها وسياقها. والهدف - مثلما آمل أن يكون واضحًا للقارئ - هو كتابة رواية لها علاقة بالواقع، لكنها ليست بالتأكيد توثيقًا لأي من الوقائع التي اقتربت منها.

عز الدين شكري فشير

عن المؤلف

عز الدين شكري كاتب ودبلوماسي مصري، نال درجاته العلمية في العلوم السياسية من جامعات فرنسية وكندية، ويعمل حاليا أستاذا زائرا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدرت له من قبل ثلاث روايات هي «مقتل فخر الدين» عام ١٩٩٥، «أسفار الفراعين» عام ١٩٩٩، و«غرفة العناية المركزة» التي تم ترشيحها للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) عام ٢٠٠٨.

الموقع الإلكتروني للمؤلف:

www.ezzedinechoukri.com

أبو عمر المصري

«عز الدين شكري يقدم نموذجًا فذًا للرواية السياسية...».

صلاح فضل

«اللغة التي يكتب بها عز الدين شكري لغة بسيطة ومباشرة لكنها عميقة، وعارية من زيف البلاغة المصطنعة، وفتنة الزخرف الكاذب، لأنها تسعى إلى هدف واضح من أقرب سبيل».

فاروق شوشة

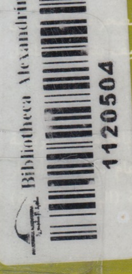
«أخذ عز الدين شكري عن فتحي غانم أفضل ميزاته، بدرته على صياغة الفرد والنموذج معًا ...».

فاروق عبد القادر

«عز الدين شكري... يلقي بنفسه إلى التهلكة بجرأة وجسارة وحساسية ودراية عميقة بفنون السرد الروائي».

محمود الورداني

تدور أحداث هذه الرواية حول حياة فخر الدين منذ نجا من محاولة اغتيال دبرها جهاز أمني يعمل خارج القانون، ومحاولاته المتعددة لمواجهة الظلم الذي وقع عليه وعلى رفاقه من أجل تغييره، تبدأ محاولات فخر الدين بفراره إلى فرنسا ليدرس القانون. ولا يكاد يصبح أبًا حتى توصد الأبواب في وجهه وتدفعه للرحيل، فيجد لنفسه وظيفة في شركة استثمارية خليجية بالسودان، ومنها إلى أفغانستان حيث يصبح «أبو عمر المصري»، وحيث يتعلم كثيرًا قبل اتخاذ قرار العودة.



مع سطور هذه الرواية سنكتشف كيف يجد فخر الدين نفسه في وسط الـ... جديد أن يجد الطريق، وقد آذى أقرب الناس إليه ثمنًا لتحقيق أهدافه، وكيـ... من أجل الحقوق إلى قاتل، وكيف يجد الإرهاب الطريق إلى جنوده.

عز الدين شكري فشير كاتب ودبلوماسي مصري، يدرِّس العلوم السياسية ... بالقاهرة حاليًا. صدرت له من قبل ثلاث روايات هي: «مقتل فخر الدين» عا... الفراعين» عام ١٩٩٩، التي تم ترشيحها للجائزة العالمية للرواية العربية ... عام ٢٠٠٨.



دار الشروق
www.shorouk.com

تصميم الغلاف عمرو الكفراوى